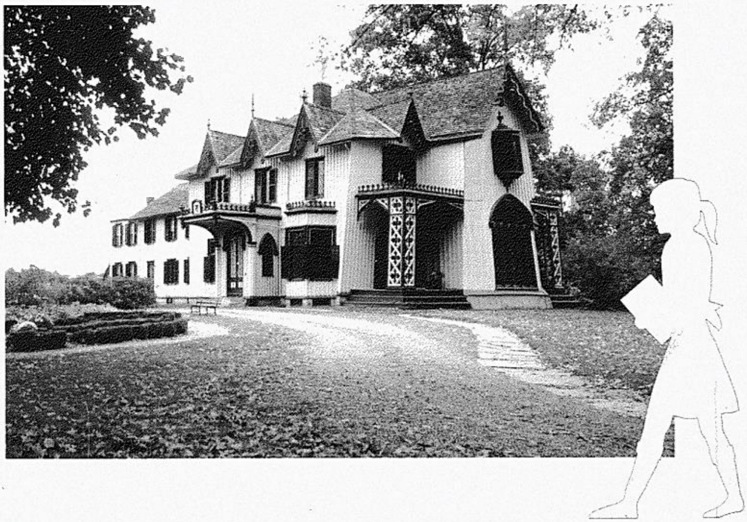
النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

Agatha Christie

أغاثا كريستي



البَيْت المَائِل

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

٤٨

البَيْت المَائِل

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٤٩ بعنوان
Crooked House

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الرابعة

٢٠٠٤

أغاثا كريستي

البَيْت المَائِل

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٤٩

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: جهاد الكردي

تحرير: رمزي رامز حسّون

تنفيذ الغلاف: عروة مؤمن ديرانية

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الناشر

لماذا هذه الطبعة؟

عندما أعلنّا -في مؤسسة الأجيال للترجمة والنشر- عن عزمنا على تقديم ترجمة جديدة لأعمال الروائية الفذّة، أغاثا كريستي، تساءل كثيرون بدهشة واستغراب: "لماذا تُجهدون أنفسكم وتتكلفون كثيراً من الجهد والعناء وكثيراً من المال لإعادة ترجمة هذه الروايات التي تُرجمت إلى اللغة العربية من قديم وتداولها الناس لعشرات السنين؟".

ولكن الحقيقة (التي ربما بدت غريبة) أن الترجمة القديمة ذاتها هي الجواب عن هذا السؤال؛ إذ إن فيها من الأخطاء والنقائص ما لا يصلح معه الحال أو يستقيم بغير إعادة الترجمة وإعداد طبعة جديدة. وأول تلك النقائص، وإن بدت غيرَ ذات أهمية للقارئ العربي ظاهراً، أن أياً من الترجمات القديمة لم تكن «شرعية» بالمعنى القانوني؛ أي أن الذين نفّذوها ونشروها لم يحصلوا على الإذن بطباعتها ولم يدفعوا شيئاً مقابل حقوق النشر، وبالتالي لم يهتموا بتجويدها أو إتقانها بقدر ما اهتموا بالربح العاجل والكسب السريع.

من هنا جاءت تلك الطبعات القديمة حافلة بالعيوب، حتى لا يكاد يصحُّ لمن قرأها أن يقول إنه -فعلاً- قرأ شيئاً من كتابات أغاثا كريستي. وإليكم جملة من تلك العيوب:

(١) في الترجمة نقص واسع وحذف كثير، يكاد يذهب -في بعض الأحيان- بثلث النص الأصلي. وما ندري ما الذي حمل المترجمين الأوائل على اقتراف هذا الخطأ المتعمَّد: أهو لتقليص حجم الروايات وتوفير نفقات الطباعة على الناشر، أم لتيسير القراءة على القارئ حتى لا يملّ من قراءة رواية طويلة؟ ولكن مَن قال إن قراءة ما حُذف يبعث على الملل؟ الحقيقة أن ما وقع من حذف وتقليص واختصار قد أربك القارئ إذ غيّبَ عنه بعض التفصيلات الهامة، كما فوّتَ عليه الاستمتاع بكثيرٍ من «اللمسات الساحرة» من الأدب الفذّ لأغاثا كريستي.

(٢) في الترجمات القديمة أخطاء كثيرة لأنها -بجملتها- نتاج عمل فردي متسرع هدفه الربح العاجل كما أسلفنا، وهذه الأخطاء (وكثير منها ساذج مضحك) أفسدت استمتاع القارئ بمتابعة القصة وكانت -أحياناً- عقبةً في طريق فهمه لحَبْكَة الأحداث وعقدة الرواية.

(٣) فضلاً عن أخطاء الترجمة، حفلت تلك الطبعات القديمة بما لا يكاد يُحصى من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية وجاءت على غير نَسَقٍ في طبيعة ترجمتها وأسلوب كتابتها، حتى لتجد أن اسْمَي بَطَلَيْ أغاثا الشهيرين، هيركيول بوارو والكابتن هيسْتِنْغز، قد كُتبا بأشكال متنوعة وصور متباينة خلال الروايات،

وكأنهما مجموعة من الأشخاص المختلفين!

(٤) أما الطباعة فمأساة لا تقلّ حجماً عن مأساة الترجمة وتكاد تنافسها في السوء والرداءة! امتلأت الروايات بالأخطاء المطبعية التي لم يحفل بتصحيحها أحد، وصُفّت أسوأَ صف ثم طُبعت على أسوأ ورق. وما زال أولئك «الناشرون...» يصوّرون طبعة عن طبعة حتى صارت مقاطعُ كاملةٌ منها مطموسةً مستعصيةً على القراءة لا تكاد تبين حروفها وألفاظها.

(٥) ثم اجتهد «الناشرون...» فوضعوا لهذه الروايات أغلفة يظنّ معها من يراها أنها ليست سوى قصص فاضحة ماجنة، فكان أن أعرض عنها كثير من الناس الذين ظنوا أن صور أغلفتها تعبير عن محتواها، وزهد في هذا الأدب الرفيع كثير من المتأدبين.

(٦) وأباح هؤلاء «المترجمون...» لأنفسهم أن يتدخلوا في عناوين الروايات وتبويبها وترتيبها؛ فمسخوا العناوين الأصلية واستبدلوا بها ما ظنّوه أكثر إثارة أو أدعى لجذب القرّاء. واعتدوا على تبويب الروايات فأدخلوا بعض فصولها في بعض، وعلى ترتيب مجموعات القصص القصيرة فبعثروا ما كان منتظماً وشتتوا ما كان مجتمعاً. كل ذلك بغير سبب واضح ولا تعليل مفهوم.

(٧) وأخيراً، كان العدوان الأكبر على أغاثا كريستي بأن نحلوا لها ما ليس -أصلاً- من كتابتها. وذلك أن الناشرين لمّا رأوا إقبال الناس على ما حمل اسمها قد طمعوا في مزيد من البيع ومزيد من الربح، فجاؤوا بروايات لا يُعرف مؤلفوها فألحقوها بها ونسبوها إليها، حتى بلغ ما نُشر في السوق باسمها مئة وبضع

عشرة رواية، رغم أن كل ما كتبته من روايات بوليسية (وهي لها كتابات أخرى لم تُترجَم بعد إلى العربية، كما سيأتي في ترجمتها الموجزة) ليست سوى ثمانين رواية لا غير!

فما الذي فعلناه نحن؟

اتصلنا بأصحاب الحقوق (ورثة المؤلفة) فعقدنا معهم اتفاقاً ووقّعنا عقداً ينصّ على الحقّ الحصري لنا بالطبعة العربية عبر العالم، ودفعنا مبلغاً كبيراً من المال مقابل هذا الاتفاق. بعد ذلك بدأنا بمشوار الترجمة الطويل الذي استغرق نحواً من سبع سنوات من العمل الشاق الدؤوب، المتعب والممتع في آنٍ معاً، ونفذّنا العمل بالأسلوب التالي:

(١) الترجمة على مرحلتين: يُترجَم العمل -أولاً- بالكامل، ثم يُراجَع مراجعة كاملة شاملة وكأنه ترجمة جديدة يقوم بها مترجم آخر. وكلا العملين تولاه مترجمون محترفون أصحاب خبرة وكفاءة ودراية واسعة باللغتين، العربية والإنكليزية.

(٢) التحرير: وفي هذه المرحلة تمت المراجعة الكاملة والدقيقة لكل نص مترجَم؛ لغوياً، ونحوياً، وإملائياً. مع العناية بالتفقير والترقيم (وضع العلامات من نقطة وفاصلة وسواهما). وتولّى هذا العمل واحدٌ من أفضل المختصين في هذا المجال.

(٣) الصفّ والإخراج: وقد نُفّذ هذا العمل لدى أفضل مراكز الصف، وبُذل في الإخراج من الجهد غايته ليأتي على أفضل شكل ممكن. وكان أن وقع الاختيار على قَطْع الكتاب

بالشكل الذي يجده القارئ بين يديه بعد استقراءٍ لميولِ كثيرٍ من القرّاء وُجد فيه أن الغالبية منهم يفضّلون -للروايات- هذا الحجم مقابل الحجم الكبير للكتب العلمية وكتب التراث.

(٤) ثم كانت المراجَعة بعد المراجَعة للنصّ النهائي المصفوف للتأكد من سلامته من أي خطأ أو سهو. كل ذلك ابتغاءَ الوصول إلى غاية الاتقان والحصول على أفضل عملٍ ممكنٍ يطيقه الجهد البشري.

نعم، نحن لم نحقق كتباً عظيمة من كتب التراث أو نترجم أعظم روائع الأدب العالمي، ولكن المرء مطالَبٌ -إذا عمل- أن يتقن عمله؛ تلك واحدة من وصايا الشرع. ثم إن في أدب أغاثا كريستي من الجمال والرقيّ ما يستحق السعي إلى مثله -إذ يُترجَم- في النص المُعرَّب. وأخيراً، فإن القارئ العربي الذي سيدفع قيمة هذه الكتب مالاً من جيبه ثم يصرف لقراءتها ساعات من وقته جديرٌ بالحصول على الأفضل. وهذا هو -بالذات- ما سعينا إليه في نهاية المطاف. فهل وُفِّقنا؟

نرجو أن نكون، وأنت -عزيزنا القارئ- خير حَكَم.

الناشر

* * *

منهجنا في التحرير

أردنا لهذه الطبعة أن تخرج متميزةً في سلامة لغتها وصحة صياغتها وقوة أسلوبها، فبذلنا في تحريرها غاية الجهد وأقصى الاهتمام، واضطررنا -في سبيل ذلك- إلى مراجعة المادة المترجَمة مرةً بعد مرة، غيرَ عابئين بما نصرفه من وقت أو نبذله من طاقة، حتى وصلنا إلى ما نحسبه عملاً مقبولاً يرضى عنه القارئ ويُرضينا نحن عن أنفسنا.

وقد أحببنا أن نضع بين يدي القارئ هذه الملاحظات حول الأسلوب الذي اتبعناه في المراجعة والتحرير:

ففي اللغة: نَهَجنا اعتمادَ الفصاحة بلا تكلّف؛ فاعتمدنا من الألفاظ الدائرة على ألسنة الناس ما وافق العربية، وتجنبنا كل لفظ غريب. وفي هذا المقام كرّسنا ما اعتمده مجمع اللغة العربية ووافق عليه مما ورد في معجمه «الوسيط»، مثل «الشُّرْبة» (بضم الشين بلا واو بعدها اسماً للحساء) و«السَّلَطة» و«الكُشك»، ومثل قولهم: «سرَّحَ العامل» (بمعنى أخلاه وصرفه من عمله) و«أشَّرَ على الكتاب» (أي وضع عليه إشارة برأيه)، ومثل هذا كثير.

وقد تنبّهنا إلى بعض المفردات مما يُخلَط فيه بين المذكر

والمؤنث والمفرد والجمع، «فالمستشفى» مذكّر يُؤنَّث خطأً، و«الحماس» بالتذكير لفظ غير موجود في اللغة، بل هي «الحماسة» بالتأنيث، و«الشرطة» جمع مذكّر وليس مفرداً مؤنثاً كما يظن عامة الناس؛ في الوسيط: «الشرطة هم حَفَظة الأمن في البلاد، الواحد شُرْطيٌّ وشُرَطيٌّ». ومثل هذا الخلط -فيما يجري على أقلام الكُتّاب وألسنة الناس- أيضاً كثير.

وكذلك تنبّهنا إلى بعض ما درَجَ على الألسنة والأقلام من مفردات غير صحيحة، فأبدلنا بها ما صحَّ وسُمِعَ عن العرب في هذا المقام؛ مثل قولهم: «خجول» والصواب «خَجِلٌ»، وقولهم: «مُندهش» والصواب «دَهِشٌ» أو «مَدْهوش»، وقولهم: «خصّيصاً» والصواب «خصوصاً»، و«الجِدّيّة» والصواب «الجِدّ»، ومنه: كان الأمر جِدّيّاً، وهو خطأ صوابه: كان الأمر جِدّاً، و«جاؤوا سويّةً» والصواب «جاؤوا معاً» لأن «سويّة» تعني الاستواء والعدل (كقولك: قسمت المال بينهم بالسوية)، و«المجوهرات»، وهو جمع غريب لم يُسمَع، والصحيح «الجواهر»، ومثل ذلك كثير.

وفي الإملاء: كتبنا «إذن» بالنون مطلقاً، عملت أو لم تعمل، وهو مذهب الأكثرين من أهل اللغة، وكان المبرّد يقول: "أشتهي أن أكوي يد مَن يكتب إذن بالألف؛ لأنها مثل أن ولن".

وفي بعض الألفاظ التي يجوز فيها الوصل والفصل (مثل: قلَّ ما) اخترنا الوصل مطلقاً فكتبناها: «قلّما» أسوةً بأمثالها؛ فقد اتفقوا على أن يكتبوا بالوصل «ممّا» (من ما) و«عمّا» (عن ما) و«إلّا» (إن لا)، ومثلها: «إنّما» و«حيثما» و«كيفما»، إلخ.

واخترنا في لفظ «مئة» كتابتها من غير ألف، وهو رأيٌ لكثيرٍ من العلماء نقله السيوطي في «همع الهوامع» واعتمده عبد الغني الدقر في «معجم قواعد اللغة العربية»، قال: "وهو أقرب إلى الصواب". وفي عدد المئات (كثلاثمئة وخمسمئة، الخ) اخترنا كتابتها متصلةً غير منفصلة (لا كما يفعل بعضهم فيكتبونها: ثلاث مئة وخمس مئة، إلخ).

وحرصنا -في الطبع- على أن تُثبَت همزات القطع وتُحذَف همزات الوصل ،وهو الصحيح في الكتابة. وحرصنا على عدم الوقوع في الخطأ الذي يقع فيه كثيرٌ من الطابعين إذ يخلطون بين الألف المقصورة والياء المتطرفة في آخر الكلمة فينقطون الاثنتين أو يجردونهما كلتيهما من النقط، ومثل ذلك بالنسبة للتاء المربوطة والهاء المتطرفة. وحرصنا -أيضاً- على إثبات تنوين الفتح مطلقاً منعاً لالتباسه بالألف (كقولهم: "وجد مالا يفرح"، فهي بلا تنوين تفيد أنه لم يجد شيئاً يفرح، وبالتنوين تفيد أنه وجد من المال ما يفرح، فتأمّل الفرق!). وأثبتنا تنوين الضم والكسر في كل حالة خشينا فيها الالتباس.

وكذلك أثبتنا علامات الشَّكل الأصلية (الفتحة والضمة والكسرة والسكون) في كل حالة يُخشى فيها الالتباس؛ كالتفريق بين الفعل المبني للمجهول والمبني للمعلوم، وبين فعلَي المضارع والأمر، والمثنى وجمع المذكر السالم في حالَي النصب والجر، وغير ذلك. وحرصنا على إثبات الشَدّة -خصوصاً- في غير المواضع المدرَكة سليقةً؛ إذ هي دلالة على حرف محذوف.

أما علامات الترقيم (من نقطة وفاصلة وعلامة استفهام وغيرها)، فقد أوليناها كل عناية ممكنة؛ إذ هي -كما سمّاها بعض الأدباء- «علاماتٌ للتفهيم»، بها يتم المعنى ويَضِحُ المقصود. واتّبعنا في تحديد العلامات ومواضعها الأصولَ التي اعتمدها أهل البحث واللغة، وعلى رأسهم العلامة أحمد زكي باشا في كتابه القيّم «الترقيم وعلاماته في اللغة العربية» مع بعض التصرف بما يوافق الأصول الحديثة المتّبَعة في عالَم النشر في هذا العصر.

وأخيراً، نظرنا في كتابة الحروف الأجنبية التي ليس لأصواتها مقابل في لغتنا العربية، فوجدنا القوم قد اختلفوا فيها اختلافاً كبيراً. فأما الباء الشديدة (P) فقد كتبوها باء بثلاث نقاط، فاعتمدنا لها الباء العادية؛ إذ ليس من المتيسّر في الصف والطباعة توفير باء مثلثة، كما أن هذا الرسم غيرُ متفَقٍ عليه ولا هو معتمَد من جهة علمية ذات شأن كمجمع اللغة العربية. وكذلك فعلنا في الحرف (V) فكتبناه فاء عادية بنقطة واحدة. أما الحرف الذي أثار أكبر اضطراب فهو الحرف (G) الذي يسمّونه «جيماً مصرية». فلأجل نطق أهل مصر الجيم بهذا الصوت اعتمد له كثيرون صورة الجيم، ولكن لو تأمّلت مَخرَج هذا الحرف ومَخرَج الجيم لوجدتهما متباعدَين تباعداً بيّناً، ولوجدت أن ما يقاربه في لغتنا مَخرجاً (في النطق) هي الغين والقاف والكاف. وقد كان هذا الصوت يُكتَب -فيما نُقل قديماً عن الفارسية- كافاً فوقها خط، وهي صورة لم يُتّفَق عليها فماتت واندثرت. وأهل الخليج يكتبون -اليوم- هذا الصوت قافاً، ويكتبه آخرون غَيْناً، وهو ما اخترناه لما وجدنا من قوة الدليل عليه؛ وانظر كيف كتبوا أكثر ما عرّبوا من أسماء البلدان كذلك فقالوا: «البرتغال» و«غانا» و«الغابون» و«السنغال»

و«بلغاريا» و«غرينتش»، وأمثال ذلك كثير كثير. وهكذا كتبنا اسم مؤلفة هذه القصص «أغاثا» خلافاً لما كان شائعاً من كتابتها بالجيم. (واستثنينا من الكتابة بالغين فقط كلمة «إنكلترا» والنسبةَ إليها: «إنكليز» و«إنكليزية»؛ لشيوع كتابتها بالكاف بين المتعلمين وطلبة المدارس ولمناسَبة المخرج، فأثبتناها بالكاف كما هي هنا).

أما أكثر ما يربك فهو كتابة الحروف الصوتية الطويلة في الأسماء الأجنبية. ففي العربية ثلاثة أصوات طويلة لا غير: الألِف والواو والياء، أما في الإنكليزية فتوجد ثمانية أصوات طويلة: الألف المرقَّقة (كما في: cat)، والألف المفخَّمة (كما في: car)، والألف الممالة (كما في: care)، والواو المشبعة (كما في: boot)، والواو الممالة المرقَّقة (كما في: bone)، والواو الممالة المفخّمة (كما في: orange)، والياء المشبعة (كما في: me)، والياء الممالة (كما في: urgent). وقد قربنا -في الرسم العربي- كل أنواع الألف فكتبناها ألفاً، وكل أنواع الواو فكتبناها واواً، ونوعَي الياء فكتبناهما ياءً، ما عدا الألف الممالة التي اجتهدنا في كتابتها ياء (كما في Hastings، صاحب بوارو الشهير في كثير من الروايات، كتبناه هيستِنْغْز).

هذا ما اجتهدنا فيه وذهبنا إليه، آملين أن يكون اجتهادنا صحيحاً وأن نكون قد هُدينا فيه إلى الصواب؛ فيكون العمل الذي نقدمه إلى قرائنا سليماً صحيحاً معافى من العيوب. والله المستعان.

المحرّر

* * *

المؤلّفة في سطور

تُعتبَر أغاثا كريستي أعظمَ مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها بليونَيْ (ألفَيْ مليون) نسخة!

وُلدت أغاثا كريستي في بلدة توركي بجنوب إنكلترا عام ١٨٩٠، وتوفيت عام ١٩٧٦ وعمرها نحو خمسة وثمانين عاماً. لم تذهب أغاثا قطّ إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها في البيت على يد أمها التي دفعتها إلى الكتابة وشجعتها عليها في وقت مبكر من حياتها، كما تخبرنا هي نفسها؛ فحينما كانت نزيلة فراشها تتعافى من مرض ألمّ بها سألتها أمها: "لماذا لا تكتبين قصة؟". أجابت فوراً: "لا أظن أنني قادرة على ذلك"، فقالت أمها: "بلى، تستطيعين. جرّبي وسترَين". عندئذ كتبت أغاثا أول رواية لها وعنوانها «ثلوج على الصحراء»، وهي رواية رفضها الناشرون فلم تُنشر قط. أما الرواية الثانية «القضية الغامضة في ستايلز» (التي ظهر فيها بوارو للمرة الأولى) فقد أدخلتها إلى عالم الكتابة الرحيب،

وذلك حين نُشرت -أخيراً- بعدما رفضها ستة من الناشرين!

عاشت أغاثا طفولة سعيدة، إذ كانت صغرى ثلاثة أولاد لأبٍ مرِح مُحبٍّ للحياة وأم ذكية طموحة، وقد ظلّت -حتى آخر حياتها- تذكر بيتها الذي وُلدت ونشأت فيه بكثير من الشوق والحنين. ولكن هذه السعادة لم تَدُم؛ فقد توفي والدها وهي في الحادية عشرة مخلّفاً لأسرته مشكلات مادية لم تلبث أن أدخلت أغاثا في عالم المسؤولية في ظروف صعبة.

وحينما قامت الحرب العالمية الأولى تطوعت أغاثا للعمل في أحد المستشفيات ممرّضةً تساعد جرحى الحرب. وفي هذا المستشفى عملت بتحضير الأدوية وتركيبها وتعرفت إلى السموم المختلفة، وهو الأمر الذي كانت له فائدة عظيمة في كتاباتها اللاحقة عن الجرائم.

وفي تلك الفترة، في عام ١٩١٤، تزوجت طيّاراً شاباً اسمه آرشيبالد كريستي، ولكنها انفصلت عنه عام ١٩٢٨ بعد موت والدتها بقليل. ولم تلبث أن تزوجت -مرة أخرى- عام ١٩٣٠ عالم الآثار الشهير السير ماكس مالُوانْ، وهو الذي أمضت برفقته سنوات من عمرها في المشرق (في العراق وسوريا ومصر) فجاءت أحداث عدد من رواياتها لتقع في هذه البلاد، مثل: «موت على النيل»، و«لقاء في بغداد»، و«جريمة في العراق». وحينما سافرت على متن قطار الشرق السريع خرجت بواحدة من أشهر رواياتها: «جريمة في قطار الشرق».

تحدثت أغاثا كريستي عن نفسها فقالت: "لو سُئلت عن

ميولي لأجبت بأنني أحب كل طعام جيد، وأكره الكحول وكل ما يدخل في صنعه الكحول. حاولت التدخين فوجدته بغيضاً ولم أجد ما يغريني بالتعلق به. أحب الأزهار، وأعشق البحر، وأهوى السفر ولا سيما في بلدان الشرق الأدنى. أحب المسرح وأكره الأفلام الناطقة إذ أعجز عن متابعتها، وأكره الإذاعة وضوضاءها، وأبغض المدن وازدحامها".

أما قصصها فتتميز بدقة حَبْكتها وترابط أحداثها ومنطقية تسلسلها، تغور فيها في أعماق النفوس البشرية محلِّلةً كوامنَها باحثةً عن دوافعها بعبقرية فذة وبصيرة نافذة. وهي قصص «نظيفة» بريئة من إثارة المشاعر والغرائز وليس فيها ما يُخجِل أو يَسوء. وقد حرصت على أن تقول لنا فيها دائماً: «لا بدّ أن ينتصر الخير»، و«الجريمة لا تفيد».

أشهر أبطالها هيركيول (هرقل) بوارو، والآنسة ماربل. أما بوارو فقد «وُلد» عام ١٩٢٠ في «القضية الغامضة في ستايلز»، وهي أول رواية نُشِرت لها، ثم استمرّ بالظهور في روايات لاحقة لمدة خمس وخمسين سنة حتى «قُتل» أخيراً عام ١٩٧٥ في روايتها «الستارة». وهو محقق بلجيكي وشرطي متقاعد أهمّ ما يميّزه ذكاؤه الخارق (الناتج عن «الخلايا الرمادية الصغيرة» في دماغه!) وشارباه العظيمان اللذان ليس لهما مثيل في الدنيا! وغالباً ما يرافقه في تحقيقاته صاحبه الشهير، الضابط المتقاعد، الكابتن هيستِنْغز، الذي يتميز بطبيعته الطيبة وذكائه المتواضع وحبه الكبير لبوارو.

وأما الآنسة ماربل فهي عانس عجوز ذات ذكاء بالغ وإدراك عجيب، وتتمتع بقدرة فذّة على الملاحظة والتحليل وفهمٍ عميقٍ للنفس البشرية بحيث تكشف أسرار الجرائم مستفيدةً من شبكةٍ واسعةٍ من الأصدقاء والمعارف والعلاقات الاجتماعية الناجحة.

كتبت أغاثا كريستي من روايات وقصص الجريمة سبعاً وستين رواية طويلة وعشرات من القصص القصيرة التي نُشرت في ثلاث عشرة مجموعة، وبذلك يكون عدد ما نُشر لها من الأعمال البوليسية ثمانين كتاباً. كما كتبت ستَّ روايات طويلة رومَنسية باسم مستعار هو «ماري ويستماكوت»، وست عشرة مسرحية أشهرها «مصيدة الفئران» التي تُعتبر أطول المسرحيات عرضاً في التاريخ؛ إذ ما زالت تُعرض في لندن (دون انقطاع تقريباً) منذ عام ١٩٣٠، أي لنحو ثلاثة أرباع القرن! أما سيرة حياتها التي كتبتها قبيل وفاتها فقد نُشرت بعد موتها بعام واحد، وسوف نقدّم ترجمتها إلى قرائنا (مع كتاب ذكرياتها الآخر «تعالي أخبريني كيف تعيشين» الذي نشرته عام ١٩٤٦ وسردت فيه ذكرياتها عن رحلاتها مع زوجها)، حيث ستكون هذه هي المرة الأولى التي يُترجم فيها هذان الكتابان إلى اللغة العربية.

* * *

البَيْتُ المَائِل

مقدمة المؤلفة

هذه القصة من أخصّ رواياتي المفضلة، وقد حفظتها سنين طويلة أفكر في أمرها وأعيد النظر فيها؛ أقول لنفسي: في يوم ما، في الوقت المناسب وحين أريد إمتاع نفسي حقاً، سوف أبدأ في كتابتها.

إن روايتي «البيت المائل» كانت متعة خالصة، وأتساءل كثيراً: هل يظن الناس الذين يقرؤون الكتب أن التأليف عمل صعب أم متعة؟ وكان الناس يقولون لي مرة بعد أخرى: "لا بد أنك استمتعت بكتابة هذه القصة أو تلك"؟

أما هذه القصة فأبت بعناد أن تخرج كما أتمنى؛ فشخصياتها بغيضة وعقدتها متشابكة من غير ضرورة، والحوار متكلّف. وربما لا يكون المؤلف أفضل من يحكم على عمله، ومهما يكن فكل من قرأ رواية «البيت المائل» قد أحبها، ومن أجل هذا أقول إنها واحدة من أفضل رواياتي.

لا أعرف كيف جاءتني فكرة عائلة ليونايدز؟ فقد جاءت هكذا، ثم، كما يقول توبساي: «لقد نمت وترعرعت».

إنني أشعر بأنني كنت ناسخة لهذه الفكرة ليس غير.

أغاثا كريستي

-١-

عرفتُ صوفيا ليونايدز أول مرة في مصر قبل نهاية الحرب العالمية. كانت تشغل منصباً إدارياً رفيعاً في إحدى دوائر وزارة الخارجية هناك، وقد عرفتها في أثناء وظيفتي بصفة رسمية فأعجبت في الحال بكفاءتها التي أوصلتها إلى ذاك المنصب رغم صغر سنها، إذ كانت آنذاك في الثانية والعشرين من عمرها.

وإلى جانب حسن مظهرها فقد كانت ذكية وصريحة تسهل محادثتها رغم ميلها إلى السخرية، فأصبحنا صديقين وأحببتها ورغبت في الزواج بها. كان ذلك حين تقرر نقلي للعمل في المشرق بعد خمود الحرب في أوروبا.

عزمت على هذا القرار بعدما تناولنا العشاء في فندق شبرد، فأقررت بحقيقة كنت أعرفها منذ زمن طويل؛ فقد أعجبتني منذ رأيتها قبل الحرب. أعجبني كل شيء رأيته فيها: الشعر الداكن الأجعد الذي كان يتشامخ إلى أعلى من جبهتها، والعينان الزرقاوان المفعمتان بالحيوية، والذقن البارز الصغير والأنف المستقيم، وثيابها الأنيقة.

كانت تبدو إنكليزية ممتلئة بالحيوية، وقد أعجبني ذلك كثيراً

بعد ثلاث سنين قضيتها غائباً عن بلدي. وأدركت أن صوفيا -رغم حديثنا الحر الطويل ومناقشة الأفكار فيما نحب وما نكره والمستقبل وأصدقائنا الأقربين- لم تذكر شيئاً عن بيتها وأسرتها. لقد عرفَتْ كل شيء عني (فقد كانت مستمعة جيدة) لكني لم أعرف عنها شيئاً! كنت أقدّر أن لها الجذور الاجتماعية المعروفة لكنها لم تتحدث عنها قط، ولم أدرك هذه الحقيقة حتى تلك اللحظة.

سألَتْني: فيمَ كنت تفكر؟

أجبتها بصدق: أنت.

- عرفت ذلك.

- قد لا نلتقي ثانية قبل عامين. لا أعرف متى أعود إلى إنكلترا، لكن أول شيء سأفعله حين أرجع إلى إنكلترا هو الذهاب لكي أراك وأطلب منك أن تتزوجيني.

تقبّلت صوفيا الأمر دون أن يطرف لها جفن، وجلست تحتسي القهوة دون أن تنظر إليّ. وشعرت بالعصبية قليلاً، قلت: اسمعي، سأفعل كل شيء إلا شيئاً واحداً. لن أطلب منك الزواج الآن، فربما ترفضينني فأرحل بعدها يائساً، وربما أعشق امرأة أخرى قبيحة حتى أنتقم لغروري، وحتى لو وافقت فما عسانا أن نفعل إزاء هذا الأمر؟ نتزوج ثم نفترق في الحال؟ نعلن خطبتنا ثم نبقى على تلك الحال زمناً طويلاً؟

سكتُّ قليلاً ثم مضيت قائلاً: لا أحتمل رؤيتك على هذه الحال، فقد تلتقين رجلاً غيري ثم تشعرين بأن عليك أن تكوني

مخلصة لي. أحب أن أراك تعودين إلى وطنك حرة مستقلة لكي تنظري حولك وتعرفي عالم ما بعد الحرب الجديد وتقرري ما تريدينه من هذا العالم، فالذي بيني وبينك سيبقى خالداً يا صوفيا... لأنني لن أتزوج أي امرأة أخرى.

- وأنا أيضاً.

- هل تعلمين بماذا أشعر؟

همست صوفيا: لا ينبغي الغزل الآن.

- حبيبتي، ألا تفهمين؟ لقد حاولت أن لا أقول بأنني أحبك...

قاطعتني: أفهم يا تشارلز، وأنا أحب أسلوبك الغريب. قد تأتي لتراني حين تعود إن كنت تريد أن...

وقاطعتها أنا هذه المرة: لا شك في ذلك.

- الشك يدخل كل القلوب يا تشارلز. قد يظهر أحياناً أمرٌ غير محسوب ولا مقدَّر يغير الأحداث كلها. تذكّر أنك لا تعرف شيئاً عني، أليس كذلك؟

- بلى، حتى إنني لا أعرف أين بيتكم في إنكلترا؟

- إنني أعيش في سوينلي دين.

أومأت برأسي حين ذكرت هذه الضاحية الشهيرة في لندن التي

تتباهى بثلاثة ملاعب غولف، وأضافت هي بهدوء وصوت مطمئن: في بيت صغير مائل.

وضحكَت فجفلتُ قليلاً، ثم أردفت بجملة مقتبسَة: «وكانوا جميعاً يعيشون في بيت صغير مائل»... هذه حالنا نحن؛ بيتنا ليس بيتاً صغيراً لكنه -حتماً- منحرف موشور الشكل، في سطحه زوايا كثيرة.

- هل أنت من عائلة كبيرة؟ إخوتك وأخواتك؟

- أخ واحد وأخت واحدة، وأبي وأمي، وعمي وزوجته وجدي وزوجته وخالة عجوز.

صحت وأنا مرتبك قليلاً: يا إلهي!

ضحكت صوفيا: نحن لا نعيش معاً، لكن الحرب والغارات الجوية هي التي اضطرتنا أن نجتمع، لكنني لا أدري...

قطبت حاجبيها تفكّر ثم أردفت تقول: ربما كان أبناء العائلة يعيشون معاً في الروح تحت رقابة جدي وحمايته. إنه رجل له شأنه؛ لقد تجاوز الثمانين من عمره، وهو قصير القامة لكن شخصيته قوية بدرجة غير عادية.

- يبدو أنه مثير للاهتمام.

- إنه كذلك فعلاً؛ فهو يوناني من سميرنا، اسمه أريستايد ليونايدز.

ثم أضافت وعيناها تطرفان: وهو غني جداً.

- من يرثه بعد وفاته؟

- جدي سيقرر، ولن يؤثر فيه أي أسلوب أو يزحزحه. إنه داهية. هل ستحبه يا ترى؟

- وهل تحبينه أنت؟

- أكثر من أي شخص في الدنيا.

* * *

-٢-

كان ذلك قبل سنتين من عودتي إلى بلدي. لم تكن سنوات الغربة سهلة، وكنت أكتب إلى صوفيا وأسمع منها كثيراً، وكانت رسائلها مثل رسائلي؛ رسائل صديقين حميمين لا رسائل حب، فكانت هي تكثر من ذكر شؤون الحياة اليومية، لكنني كنت أعرف أن مشاعر أحدنا تجاه الآخر كانت تزداد وتقوى.

ورجعت إلى إنكلترا في يوم هادئ كئيب من أيام أيلول، حيث بدت الأوراق على الأشجار ذهبية في ضوء المساء وكانت الريح تعصف. وأرسلت لصوفيا برقية من أرض المطار:

لقد عدت لتوي.

أرجو أن نتناول العشاء معاً هذا المساء في «ماريو» الساعة التاسعة.

تشارلز.

بعد ذلك بساعتين كنت أجلس أقرأ جريدة «التايمز» وأتفحص أعمدة المواليد والزواج والوفيات، فوقعت عيني على اسم ليونايدز:

في ١٩ أيلول، في منزل «ثري غابلز» في سوينلي دين، مات أريستايد ليونايدز زوج بريندا ليونايدز المحب عن عمر يناهز الثامنة والثمانين.

مع الأسف العميق.

ثم قرأت إعلاناً آخر:

مات أريستايد ليونايدز فجأة في مسكنه «ثري غابلز»، سوينلي دين. ينعاه أولاده وأحفاده المحبون بعميق الأسى.

تُرسل الورود إلى كنيسة القديس إليرد في سوينلي دين.

أثار الإعلانان استغرابي، فربما أدى خطأ من جانب المحررين في الصحيفة إلى هذا الازدواج، لكن شغلي الشاغل كان صوفيا. وأرسلت إليها برقية ثانية على عجل:

لقد قرأت لتوي خبر وفاة جدك. أنا آسف جداً.

متى أستطيع رؤيتك؟

تشارلز.

وصلتني برقية من صوفيا في الساعة السادسة وأنا في بيت أبي:

سأكون في «ماريو» في التاسعة ليلاً.

صوفيا.

جعلتني فكرة لقاء صوفيا مرة أخرى عصبياً، وكان الوقت يمر ببطء يثير الجنون. كنت أنتظرها في مقهى ماريو قبل الموعد بثلث ساعة وتأخرَت هي عن الموعد خمس دقائق.

إن لقاء شخص مرة أخرى بعد انقطاع طويل مربكٌ إلى حد ما، وإن يكن حاضراً في ذهنك طوال تلك الفترة. وحين دخلت صوفيا من الباب الدوار كان لقاؤنا متكلَّفاً. كانت تلبس الأسود بسبب الحداد بلا ريب، وقد فاجأني أن صوفيا من الذين يلبسون الأسود حقاً حداداً على قريب مات!

شربنا عصيراً ثم ذهبنا إلى طاولتنا، وتحادثنا سريعاً بطريقة محمومة ونحن نسأل عن الأصدقاء القدامى أيام كنا في القاهرة. وكان حديثنا مجاملة لكنه طغى على الارتباك الذي ساد بداية اللقاء.

واسيتها بوفاة جدها فقالت صوفيا -بهدوء- إنها حدثت فجأة. ثم انطلقنا إلى الذكريات مرة أخرى، وبدأت أشعر بالخوف من شيء ما، شيء غير الارتباك الطبيعي من اللقاء ثانية بعد غيبة طويلة.

كان في صوفيا شيء غير طبيعي حتماً: هل تخبرني بأنها عرفت رجلاً آخر غيري تهتم به أكثر مني وأن إحساسها بي كان كله خداعاً؟ وساورني إحساس عميق بأن الأمر لم يكن كذلك: ولكني فشلت في الاهتداء إلى احتمال آخر، وفي غضون ذلك أكملنا حديثنا المصطنَع.

ثم بدأ الحديث يتغير فجأة بعدما وضع الساقي القهوة لنا وتراجع وهو ينحني، فأنا أجلس الآن مع صوفيا كما كنا نفعل من

قبل كثيراً على طاولة صغيرة في مطعم، كأن سنوات الغربة التي عشناها لم تكن أبداً.

قلت: صوفيا!

- تشارلز!

تنهدت عميقاً دلالة على الارتياح وقلت: أحمد الله على أن هذا الأمر قد انتهى وولى. ما الذي أصابنا؟

- ربما كانت غلطتي، كنت حمقاء!

- هل الأمر طبيعي الآن؟

- أجل؛ إنه طبيعي الآن.

وابتسمنا، فقلت: حبيبتي، هل نتزوج قريباً؟

انطفأت ابتسامتها فأصابني الانقباض ثانية. قالت: ربما، لا أدري يا تشارلز إن كنت أستطيع الزواج بك.

- ولمَ لا يا صوفيا؟ ألأنك تشعرين بأنني غريب؟ أتريدين وقتاً لتعتادي عليّ ثانية؟ هل عرفت رجلاً غيري؟

هزت رأسها وقالت: لا، ليس كذلك.

ثم خفضت صوتها وقالت: بل بسبب موت جدي.

- موت جدك؟ لماذا؟ وما الفرق؟ إنك لا تقصدين أن امتناعك

بسبب المال حتماً، أليس كذلك؟ وهل ترك جدك مالاً؟ لكنّ الأمر يا عزيزتي...

ابتسمت ابتسامة خاطفة وقالت: إنه ليس المال. أظن أنك ستكون راغباً تماماً في أن تأخذني على حالتي الجديدة كما يقول المثل القديم، ثم إن جدي لم يخسر مالاً في حياته.

- إذن فما الأمر؟

- أظن أن جدي لم يمت موتاً طبيعياً يا تشارلز... ربما يكون قد قُتل.

- يا لها من فكرة غريبة! ما الذي جعلك تظنين أن جدك قُتل؟

- أنا لم أفكر فيها، بل كان الطبيب يشك في الأمر. إنه لم يوقع شهادة الوفاة، وسوف يشرّح الأطباء الجثة فلعلّ في الأمر شيئاً غير طبيعي.

لم أجادلها؛ لأنها فتاة ذكية جداً صاحبة آراء صائبة واستنتاجات سليمة، بل قلت لها جادّاً: قد يكون لشكوكهم أسبابها، ولو أن لها أسباباً فكيف يؤثّر هذا علينا نحن الاثنين؟

- قد يؤثر في حال من الأحوال، فأنت تعمل في السلك الدبلوماسي. إنهم شديدو الاهتمام بأمر الزوجات. لا، أرجوك لا تقل شيئاً يتفطر له قلبك. كأنك تريد أن تقول: "أريد أن يكون

زواجنا حسناً، لا ينبغي لأحدٍ منا أن يضحي من أجل الحب!". فما يدريك يا تشارلز؟ ربما يكون كل شيء طبيعياً.

- أيكون الطبيب قد ارتكب خطأ؟

- وإن لم يرتكب خطأ فلن يكون الأمر مهماً لو كان ذلك الشخص هو الذي قتله.

- ماذا تقصدين يا صوفيا؟

- إنه أمر بغيض، لكنني أريد أن أكون صريحة.

وأدركَتْ صوفيا كلماتي قبل أن أقولها، فقالت: لا يا تشارلز، لن أقول شيئاً آخر. ربما قلت كثيراً من قبل، لكنني أصررت على المجيء هنا ولقائك هذه الليلة لكي أراك بعيني وأفهمك. لن نفعل شيئاً حتى تنجلي هذه المشكلة.

- خبريني عنها على الأقل.

- لا أريد يا تشارلز... لا أريدك أن ترى الأمر من زاويتي، بل أريد أن تكون نظرتك صواباً وأن ترى الأمر بطريقة صحيحة.

- وكيف أفعل ذلك؟

قالت وهي تنظر إليّ بعينين زرقاوين تبرقان بوهج غريب: فلتسمعه من أبيك.

كنت قد أخبرت صوفيا -ونحن في القاهرة- أن أبي يعمل مساعد مفوض في سكوتلانديارد، وهو ما زال كذلك. وعندما قالت

كلمتها الأخيرة أحسست بالإحباط فقلت مستفسراً: إذن فالأمر سيئ إلى هذا الحد؟

- أظن ذلك. هل ترى رجلاً يطيل الجلوس إلى طاولة قرب الباب وحيداً؟ رجلاً وسيماً بليداً كان يعمل من قبل في الجيش؟ لقد كان هو نفسه على رصيف محطة سوينلي دين هذا المساء ساعة دخلت القطار.

- أتقصدين أنه تبعك إلى هنا؟

- نعم، أظن أننا جميعاً تحت الرقابة. لقد ألمحوا إلينا أن من الأفضل أن نمكث جميعاً في البيت، ولكنني كنت عقدت العزم على رؤيتك.

وبرز ذقنها الصغير وهي تتكلم مشاكِسة: لقد خرجت من شبّاك الحمام وانزلقت على أنبوب المياه!

- حبيبتي...

- لكن الشرطة قديرون في عملهم. وهناك طبعاً البرقية التي أرسلتها لك... حسناً، لا تؤاخذني، إننا هنا معاً لكن علينا أن نفترق من الآن فصاعداً.

وسكتت قليلاً ثم أضافت: ولسوء الحظ فإن أياً منا لا يشك بحب صاحبه له يا تشارلز.

- لا شك بتاتاً، ولا تقولي: "لسوء الحظ"... لقد بقيت أنا وأنت

على قيد الحياة أثناء الحرب العالمية ونجونا من الموت المفاجئ كثيراً، ولا أعلم كيف يدهم الموت عجوزاً فجأة؟ كم كان عمره؟

- سبعة وثمانين عاماً.

- نعم؛ قرأت ذلك في جريدة «التايمز». ولو سألتِني لقلت إنه مات في الشيخوخة، وإن أي طبيب يحترم نفسه سوف يرضى بهذه الحقيقة.

- لو كنت تعرف جدي لأسِفتَ على موته.

* * *

-٣-

اهتممت على الدوام بعمل أبي في الشرطة، لكني لم أتهيأ للّحظة التي أكون فيها مهتماً به بشكل مباشر هكذا. ولم أكن قد رأيت الرجل العجوز بعد، فعندما وصلت البيت كان هو في الخارج. وبعدما اغتسلت وحلقت ذقني وغيّرت ثيابي خرجت من أجل صوفيا، وحين رجعت أخبرني غلوفر أنه كان في مكتبه.

كان يجلس وراء مكتبه عابساً يطالع كثيراً من الأوراق، وحين رآني داخلاً قفز عن مقعده مرحّباً: تشارلز، لم أرك منذ زمن بعيد.

كان لقاؤنا بعد خمس سنوات من الحرب لقاءً يصيب أي فرنسي بخيبة أمل، والحقيقة أننا كان بيننا عاطفة اجتماع الشمل، فأنا والعجوز يحب بعضنا بعضاً كثيراً ويفهم بعضنا بعضاً جيداً.

قال أبي: أنا آسف لأنني كنت خارجاً حين وصلت هنا؛ إنني غارق في العمل حتى أذنيّ. تباً لهذه القضية التي بدأت أدرسها الآن.

أسندت ظهري إلى الكرسي وسألته: قضية أريستايد ليونايدز؟

عبس العجوز وقطب حاجبيه ونظر إليّ نظرة تقدير، وقال بلسان هادئ قوي: تشارلز، كيف عرفت بذلك؟!

- بلغتني معلومات.

- ما الأمر يا تشارلز؟ أخبرني.

- أخشى أن لا يعجبك كلامي! لقد لقيت صوفيا ليونايدز في القاهرة، وقد أحببتها، وسوف أتزوجها. التقينا هذه الليلة... لقد تعشّت معي.

- تعشت معك؟ في لندن؟ وكيف خرجَتْ؟ لقد طلبنا من أفراد العائلة أن لا يغادروا البيت.

- أجل، لكنها انزلقت على أنبوب المياه من شبّاك الحمام.

ابتسم العجوز ابتسامة خاطفة وقال: تبدو فتاة داهية!

- لكن شرطتكم قديرون تماماً، فقد تبعها شرطي إلى مطعم ماريو، وسوف ترى أوصافي في البيانات التي بين يديك: الطول خمسة أقدام وأحد عشر إنشاً، الشعر بني، العينان عسليتان، بدلة كحلية مقلمة...

نظر أبي إليّ نظرة قاسية، وسألني: أهذا كلام جاد؟

- أجل، إنه كلام جاد يا أبي.

صمتنا برهة قصيرة، ثم سألته: وهل تمانع ذلك؟

- لم أكن لأمانع ذلك قبل أسبوع. إنها أسرة غنية جداً والفتاة سوف ترث المال، وأنت فتى بالغ عاقل راشد، ولكن...

- ماذا يا أبي؟

- سيكون الأمر طبيعياً لو...

- ماذا؟

- لو كان الذي فعلها هو ذلك الشخص.

للمرة الثانية أسمع العبارة ذاتها في تلك الليلة، وبدأت أتشوّق لمعرفة التفصيلات وجلاء الموضوع. سألت: من هو ذلك الشخص؟

نظر إليّ نظرة حادة وقال: ماذا تعرف عن هذا الأمر؟

- لا شيء.

تساءل بدهشة: لا شيء؟ ألم تخبرك الفتاة؟

- لم تفعل؛ بل قالت إنها تحب أن أرى الأمر من وجهة نظري من غير تأثير منها.

- لماذا؟

- أليس ذلك واضحاً؟

- نعم، ليس واضحاً يا تشارلز.

وجعل أبي يروح ويجيء وهو ما يزال عابساً، وأشعل السيجار

ونفث دخانه فعرفت أن الوالد العجوز انزعج. ثم فاجأني بسؤال: ماذا تعرف عن العائلة؟

- أعرف أنها تتكون من الرجل العجوز والعديد من أبنائه وأحفاده وأزواجهم... ولكني لم أستوعب جميع أفراد هذه العائلة الكبيرة. ليتك توضح الصورة لي يا أبي.

قال وهو يجلس: حسناً؛ سوف أبدأ بالأب الكبير إريستايد ليونايدز، وقد وصل إلى إنكلترا وهو في الرابعة والعشرين.

- يوناني من سميرنا؟

- ها أنت تعلم هذا!

- نعم، لكن هذا هو كل ما أعرفه.

عندئذ فُتح الباب ودخل غلوفر ليقول إن رئيس المفتشين تافيرنر قد حضر، فقال أبي: إنه المسؤول عن القضية. فلندخله، لقد كان يطلع على ملف العائلة وهو يعلم عن أفرادها أكثر مما أعلم.

وسألت أبي إن كانت دائرة الشرطة المحلية قد استدعت سكوتلانديارد فقال: إنها من شأننا لأن سوينلي دين تقع في منطقة لندن الكبرى.

ودخل رئيس المفتشين تافيرنر إلى الغرفة فأومأت برأسي محيياً، فقد كنت أعرفه منذ سنين، وحيّاني هو بحرارة وهنأني على عودتي سالماً.

ثم قال أبي: أنا أوضّح الصورة لتشارلز، فإن أنا أخطأت فذكّرني يا تافيرنر.

ثم استأنف يقول: وصل ليونايدز إلى لندن عام ١٨٤٤، حيث أنشأ مطعماً صغيراً في سوهو، وكان ناجحاً فأنشأ مطعماً آخر، وما زال هكذا حتى صار يمتلك سبعة مطاعم أو ثمانية، وكانت كلها رابحة.

قال تافيرنر: لم يكن ليونايدز يخطئ في أي شيء يفعله.

فقال أبي: كانت فيه حاسة طبيعية. وسرعان ما أصبح وراء معظم مطاعم لندن الكبرى، ثم عمل في سوق التجهيزات الغذائية وكان عمله فيها ضخماً حقاً.

قال تافيرنر: وكان ليونايدز وراء بعض التجارات الأخرى أيضاً، مثل الثياب البالية ومحال الجواهر التقليدية وغيرها كثير... وكان رجلاً غير أمين.

قال تافيرنر الجملة الأخيرة بعد هنيهة من التفكير، فسألته قائلاً: أكان محتالاً؟

- لا، كان فيه عوج ولكن لم يكن محتالاً، وهو -وإن لم يخرج عن القانون- إلاّ أنه كان يفكر بأي أسلوب للالتفاف عليه. لقد جنى أرباحاً كثيرة بهذه الطريقة، وحتى في الحرب الأخيرة ورغم أنه كان أثناءها طاعناً في السن فإنه لم يفعل شيئاً غير قانوني، ولكنه كان إذا شرع في عمل يلتمس له في القانون مخرجاً ثم يكون قد انتقل إلى عملٍ غيره! أرجو أن تكون قد فهمت ما أعنيه.

قلت: إنه لا يبدو شخصية جذابة.

- من الغريب أنه كان جذاباً قوي الشخصية، حتى إنك لتشعر بذلك من لمحة واحدة. وإذا نظرت إليه لم ترَ ما يثير إعجابك؛ فقد كان قزماً قبيحاً لكنه ساحر، فما أكثر النساء اللائي أحببنه!

قال أبي: لقد تزوج زواجاً يصدم السامع؛ تزوج ابنة إقطاعي في الريف صاحب أراض لتربية الثعالب.

رفعت حاجبيّ من الدهشة وقلت: المال؟!

هز العجوز رأسه وقال: لا، بل كان زواج حب. لقيته الفتاة لتبحث معه شأن بعض التجهيز الغذائي في حفل زفاف صديقة لها فوقعت في حبه، وسخط أبوها عليها لكنها ألحّت في الزواج به. لقد قلت لك إن للرجل سحراً عجيباً جذبها، ويبدو أنها كانت قد سئمت من الرجال التقليديين حولها.

- وهل كان زواجهما سعيداً؟

- كان سعيداً جداً. ورغم أن أصدقاءهما المحترمين لم يخالطوهما فإن ذلك لم يكن يقلقهما، وعاشا بلا أصدقاء. وبنى زوجها بيتاً تنكره الطبيعة والعقل في سوينلي دين، وسكنا هناك حيث أنجبت له ثمانية أطفال. كان العجوز ليونايدز ذكياً حين اختار سوينلي دين لأنها كانت في بداية التحول إلى منطقة نموذجية راقية، فلم يكن فيها -بعد- ملعبا الغولف الثاني والثالث. وكان حولهما جماعة من السكان القدامى الذي كانوا يحبون حدائقهم كثيراً، وقد

أحبوا جارتهم السيدة ليونايدز وأحبوا رجال المدينة الأغنياء الذين أتوا ليعيشوا بجوار السيد ليونايدز.

سكت أبي قليلاً ثم علّق قائلاً: أعتقد أنهم كانوا سعداء تماماً حتى ماتت السيدة في عام ١٩٠٥ بمرض ذات الرئة.

- وهل تركته مع ثمانية أطفال؟

- أحدهم مات طفلاً، واثنان قُتلا في الحرب الأخيرة، وكان هناك ثلاث بنات إحداهن تزوجت ورحلت إلى أستراليا وماتت هناك، والثانية بقيت عانساً ثم صدمتها سيارة فماتت، والثالثة ماتت قبل سنة أو اثنتين. وما زال من أبنائه اثنان على قيد الحياة: روجر، الولد الأكبر، وقد تزوج ولم ينجب أطفالاً، وفيليب الذي تزوج ممثلة شهيرة فأنجبت له ثلاثة أطفال: صاحبتك صوفيا، ويوستيس، وجوزفين.

- وهل يعيشون جميعاً في... ما اسم ذلك البيت؟ «ثري غابلز»؟

- نعم؛ فقد دُمِّر بيت روجر ليونايدز بالقصف في أول الحرب، أما فيليب وأفراد عائلته فإنهم يعيشون هناك منذ عام ١٩٣٧. وهناك الخالة العجوز أخت السيدة ليونايدز، الآنسة دي هافيلاند، التي كانت تشمئز من زوج أختها لكنها عرفت أن من واجبها -بعد موت أختها- أن تقبل دعوة السيد ليونايدز لكي تعيش عنده وتربي الأطفال.

قال تافيرنر: إنها دائمة الحماسة في عملها لكنها لا تغير رأيها

في أحدٍ من الناس، فهي تعارض ليونايدز وتنقد أسلوبه.

قلت: حسناً، يبدو أنه بيت مليء تماماً! فمن تظنه القاتل؟

هز تافيرنر رأسه وقال: الوقت ما زال مبكراً لقول ذلك.

قلت: ما بك يا تافيرنر؟ أنا واثق من أنك تعلم القاتل. تحدث بحرية فنحن لسنا في محكمة يا رجل!

تجهم تافيرنر وقال: نعم، وربما لا تُعقَد المحكمة أبداً.

- هل تقصد أنه ربما لا يكون قد قُتل؟

- بل قُتل بلا شك... سُمِّم، لكن إثبات الدليل في أحوال التسمم هذه يتطلب براعة شديدة. قد تشير جميع الوجوه إلى اتجاه واحد. إنها قضية واضحة... جريمة كاملة، لكنني في حيرة... إنها جريمة متقنة جداً.

نظرت إلى العجوز مستغيثاً، فقال ببطء: أنت تعلم -يا تشارلز- أن الحل الواضح في قضايا القتل يكون غالباً هو الحل الصحيح. لقد تزوج العجوز ليونايدز مرة ثانية قبل عشر سنين.

- وهو في السابعة والسبعين؟

- أجل، تزوج فتاة في الرابعة والعشرين!

صفرت بدهشة: ومن هي؟!

- فتاة كانت تعمل في مقهى، محتشمة وحسناء لكنها ضعيفة ومهملة.

- أتكون هي قتلته؟

خاطبني تافيرنر قائلاً: إنني أسألك أنت؛ فالفتاة قد بلغت الرابعة والثلاثين، وهذه سن خطيرة. وهي فتاة تحب العيش الهادئ، وفي البيت شاب غريب يعلم الأطفال، وهو لم يذهب إلى الحرب لمرضٍ أصاب قلبه، وكانت علاقتهما معاً علاقة حميمة.

نظرتُ إليه متأملاً. كان ذلك نموذجاً قديماً ومألوفاً؛ تلك العائلة المتباينة الأفراد ومعها السيدة ليونايدز الثانية التي كانت -حسب كلام أبي- امرأة جديرة بالاحترام. ولكن لا يجدر أن ننسى أن جرائم كثيرة ارتُكبت دوماً مستترة بثوب الاحترام.

وسألت تافيرنر: وماذا كان ذلك السم؟ أهو الزرنيخ؟

- لم يأتِنا تقرير المختبر بعد، لكن الطبيب يظن أنه سم الإيسيرين.

- هذا مستغرَب قليلاً، أليس كذلك؟ من السهل كشف المشتري حتماً.

- كان دواء يتداوى به... لقد كان قطرة عين.

قال أبي: كان ليونايدز مصاباً بالسكري وكان يأخذ حقناً دورية من الأنسولين. كان الأنسولين في قناني صغيرة أغطيتها من المطاط، فيوخز الغطاء بإبرة الحقن ثم تسحب الحقنة وفيها الأنسولين.

قلت مستنتِجاً: ولم يكن الذي في الزجاجة الأنسولين بل الإيسيرين، أليس كذلك؟

- تماماً.

- ومَن الذي حقنه الإبرة؟

- زوجته.

لقد فهمت الآن ماذا كانت صوفيا تقصد بقولها: «ذلك الشخص». وسألته: وكيف كانت العائلة مع السيدة ليونايدز الثانية؟

- لم تكن جيدة، ونادراً ما تبادلوا الحديث بعضهم مع بعض.

كان كل شيء يتضح أكثر فأكثر، ولكن كان واضحاً أن المفتش تافيرنر لم يكن سعيداً بذلك. فسألته: لا يبدو أنك مقتنع تماماً بهذه الفرضية؟

- لو أنها فعلت ذلك -يا سيد تشارلز- لكان سهلاً عليها أن تستبدل بالقنينة قنينة أنسولين حقيقية بعد ذلك، لا أستطيع أن أفهم لِمَ لَمْ تفعل ذلك؟

- وهل في البيت كثير من الأنسولين؟

- نعم، قنانٍ ملأى وأخرى فارغة، ولو أنها فعلته لما استطاع الطبيب كشفه قط لأن جسم الإنسان إذا تسمم بالإيسيرين فمات لا يُعرف في الأعراض التي تظهر على الجثة إلا قليلاً جداً. أما الذي

حصل هنا فهو أن الطبيب قد فحص زجاجة الأنسولين فعرف فوراً أن الذي فيها لم يكن أنسولينا.

قلت متأملاً: إذن فإما أن تكون السيدة ليونايدز غبية جداً وإما أن تكون ذكية جداً.

- أنت تقصد...

- ربما راهنت على استنتاج ستصلون إليه بأن أحداً لا يمكن أن يكون بالغباء الذي يبدو لكي يرتكب عملاً كهذا. على أية حال هل يوجد مشبوهون آخرون؟

- كل مَن في البيت مشبوهون، جميعاً، وقد كان فيه مخزون كبير من الأنسولين يكفي أسبوعين، فربما عبثت يدٌ بإحدى القوارير وتم وضعها لكي تُستعمل في الوقت المقرر.

- وهل يستطيع أي منهم أن يصل إليها؟

- أجل، فلم تكن في خزانة مقفلة بل كانت تحفظ على رف خزانة الأدوية في الحمام، وكل ساكن في البيت يأتي ويذهب إليه بحرية.

- وماذا يدفعهم لقتله؟

تنهد أبي وقال: يا عزيزي تشارلز! كان أريستايد ليونايدز غنياً جداً، صحيحٌ أنه خصص مالاً كثيراً لعائلته، ولكن لعل أحدهم أراد المزيد.

- لا يوجد أحد يريد أن يكون نصيبه أكبر من الجميع أكثر من تلك الأرملة، هل كان صديقها الفتى ذا مال؟

- بل فقيراً مثل فأر الكنيسة.

وفجأة لمعت في ذهني بعض الأفكار. تذكرت عبارة صوفيا المقتبَسة، وتذكرت فجأة أبيات نشيدنا في الحضانة:

رجل ملتوٍ مشى مسافة ميلٍ ملتوٍ،
فوجد قطعة شلنٍ ملتوية عند باب ملتوٍ،
وقطه الملتوي أمسك بفأرٍ ملتوٍ،
ثم عاشوا جميعاً معاً في بيتٍ صغيرٍ ملتوٍ.

قلت أخاطب تافيرنر: كيف وجدت السيدة ليونايدز وما رأيك فيها؟

رد ببطء: إنها ليست سهلة. تبدو هادئة جداً فلا تعرف ما تفكر فيه لكنها تحب العيش الهادئ. أقسم أنني لعلى حق في هذا... إنها تذكرني بقطة، قطة كسولة كبيرة تهرهر... وهذا لا يعني أنني أكره القطط... إننا نسعى وراء الدليل.

نعم؛ كنا جميعاً نريد دليلاً على أن السيدة ليونايدز قد سممت زوجها. صوفيا كانت تريده، وتافيرنر رئيس المفتشين، وكذلك أنا... وكل شيء سيكون حسناً بعد ذلك.

لكن صوفيا لم تكن متأكدة، وأنا لست متأكداً، ورئيس المفتشين مثلنا!

* * *

-٤-

في اليوم التالي ذهبت إلى منزل غابلز مع تافيرنر. كان موقفي غريباً وغير تقليدي أبداً، لكن العجوز لم يكن تقليدياً بتاتاً.

وكانت لي مكانة، فقد عملت في الشعبة الخاصة في سكوتلانديارد في أيام الحرب الأولى، وعملي ذاك قد بوأني مكانة رسمية إلى حد ما، وإن كانت مهمتي الآن مختلفة تماماً.

وقال أبي: إذا أردنا حل هذه القضية فينبغي أن نحصل على معلومات داخلية؛ يجب أن نحيط بالناس الذين يعيشون في ذلك البيت، علينا أن نعرفهم من الداخل لا الخارج. أنت وحدك الذي تستطيع فعل ذلك.

لم أكن أحب ذلك، وقلت: وهل أنا جاسوس للشرطة؟ هل عليّ أن أجلب معلومات داخلية من صوفيا التي أحبها وتحبني وتثق بي؟

انفعل العجوز كثيراً وقال محتدّاً: أرجوك لا تنظر للأمر هكذا. أولاً: هل تظن أن فتاتك الشابة قد قتلت جدها؟

- كلا، هذه فكرة سخيفة بلا شك.

- حسناً، ونحن لا نظن ذلك أيضاً لأن صوفيا كانت في الخارج لبضع سنين، وكانت على علاقة ودية معه دائماً، وكانت تتقاضى راتباً سخياً منه، ولا شك أن خطوبتها كانت ستسره. إننا لا نشتبه فيها لكنني أريدك أن تعلم شيئاً واحداً: إذا لم يتم حل هذه القضية فلن تتزوجك الفتاة، أنا متأكد مما أقول بسبب ما أخبرتني به، وهذه جريمة لعلها لا تُحَلّ أبداً. ربما نكون -يا تشارلز- متأكدين أن الزوجة وصديقها الشاب تعاونا على هذا العمل، لكن إثباته مسألة أخرى. ليس بين أيدينا حتى الآن قضية واضحة نرفعها إلى المدعي العام، وما لم نحصل على دليل قطعي يدينهما فسيبقى شك بغيض دائم، هل تفهم؟

- نعم، لقد فهمت.

- لمَ لا تلجأ إليها؟

- هل تقصد أن أسأل صوفيا إن كنت...؟

ثم سكتُّ فيما أومأ أبي برأسه بقوة: نعم، نعم. لا أقصد أن تتحايل وتخادعها من غير أن تصارحها، بل صارحها وانظر ماذا تقول.

* * *

وهكذا حدث.

خرجت في اليوم التالي مع رئيس المفتشين تافيرنر والرقيب

لامب إلى سوينلي دين. انعطفنا إلى طريق ضيقة وراء ملعب الغولف عند واحدة من البوابات، وسرنا بالسيارة على طول طريق ملتوية غطت الأعشاب جنباتها، وانتهت هذه الطريق إلى كومة من الحصى عند باب البيت.

عجبت لذلك البيت وأحسست أنه مشوَّه غريب التصميم، ولعلي قد عرفت السبب؛ فالبيت كان على هيئة كوخ تضخَّمَ بصورة غير هندسية، كأنك تنظر إليه من خلال عدسة مكبرة... عوارضه الخشبية مائلة وأخشابه مسنَّدة، كان بيتاً صغيراً مائلاً كأنه نما كما ينمو الفطر في الليل!

وقد عرفت الفكرة. كانت فكرة صاحب مطعم يوناني فيها شيء من الإنكليزية، كان يريد أن يجعله بيت رجل إنكليزي مبنياً بحجم القلعة! ترى ماذا كان رأي السيدة ليونايدز حين رأته أول مرة؟ أظن أنها لم تُستشَر ولم ترَ مخطط البناء، بل الأرجح أنها كانت مفاجأة من زوجها الغريب... لكنني أظنها عاشت فيه راضية.

قال المفتش تافيرنر: إنه يحيّر الناظر قليلاً، أليس كذلك؟ كأن العجوز رأى في البيت -حين بناه- شيئاً كبيراً على شكل ثلاثة بيوت منفصلة مع مطابخها، ثم جهزه من الداخل بمثل الفنادق الفخمة.

وجاءت صوفيا من الباب الأمامي تلبس قميصاً أخضر وتنورة من الصوف الخشن. فوجئت برؤيتي وصاحت: أنت؟!

- لقد جئت لأتحدث معك يا صوفيا، أين يمكننا أن نذهب؟

في البداية اعتقدت أنها سترفض، لكنها التفتت وقالت: من هذه الطريق.

سرنا فوق المرجة، وكان المنظر جميلاً عبر ملعب الغولف في سوينلي دين؛ حيث كانت تبدو في الاتجاه المقابل مجموعة من أشجار الصنوبر فوق إحدى التلال والريف يمتد وراءها داكناً.

أخذتني صوفيا إلى حديقة صخرية فجلسنا على مقعد خشبي بسيط غير مريح. قالت: حسناً؟

لم يكن صوتها مشجعاً. أخبرتها عن دوري كله فاستمعت إليّ بإصغاء شديد، وكان وجهها يخبرك بما تفكر فيه، لكنها حين أتممتُ كلامي تنهدَتْ عميقاً وقالت: إن أباك رجل ذكي جداً.

- الرجل العجوز له أهدافه، أظن أنها فكرة حقيرة، لكن...

قاطعتني قائلة: لا؛ ليست فكرة حقيرة أبداً، بل هي الأمر الوحيد الذي قد يكون مفيداً. إن أباك -يا تشارلز- يعرف يقيناً ما يدور في رأسي... يعرفه أكثر مما تعرفه أنت.

ثم أطبقت كفيها بعنف يائس فجأة وقالت بحدة: يجب أن أصل إلى الحقيقة... يجب أن أعرف!

- هل هذا بسببنا؟ لكن يا عزيزتي...

- ليس بسببنا فحسب يا تشارلز؛ يجب أن أعرف حتى يطمئن بالي. أنا لم أخبرك في الليلة الماضية يا تشارلز، لكن الحقيقة هي... أنني خائفة!

- خائفة؟

- نعم؛ خائفة، خائفة. الشرطة يعتقدون، ووالدك يعتقد، وأنت تعتقد... الجميع يعتقدون أن بريندا هي القاتلة.

- هذه هي الاحتمالات.

- آه، إنها مجرد احتمالات. إنها ممكنة، لكنني حين أقول: "من المحتمَل أن بريندا فعلت ذلك" فإنني أدرك تماماً أن ذلك ما هو إلا أمنية أتمناها؛ لأنني لا أعتقد ذلك في الحقيقة.

قلت ببطء: لا تعتقدين ذلك؟

- لا أدري. لقد سمعتَ عن الجريمة من الخارج كما أردتُ لك، والآن سوف أريك إياها من الداخل. إنني -ببساطة- لا أشعر أن بريندا تفعل شيئاً يوقعها في الخطر... لأنها تحرص على نفسها كثيراً.

- وماذا عن ذلك الشاب... لورنس براون؟

- لورنس جبان كالأرنب، وليست لديه الشجاعة لفعل ذلك.

- عجيب!

- الناس يفاجئون بعضهم كثيراً، أحياناً تظن بإنسان شيئاً فيكون ظنك خاطئاً. ليس دائماً... أحياناً.

وهزت رأسها وقالت: بريندا كانت تتصرف دائماً تصرفات مناسبة للنساء؛ تحب الجلوس في البيت وأكل الحلوى ولبس

الثياب الجميلة والحلي... وكانت تقرأ الروايات الرخيصة وتذهب إلى السينما. ومن الغريب أن جدي كان في السابعة والثمانين لكنها كانت تحبه؛ كانت فيه قوة مؤثّرة تجعل المرأة تشعر وكأنها ملكة في قصرها! ولعله أقنع بريندا أنها امرأة متميزة، فقد كان ذكياً في معاملة النساء طول حياته.

وتركت مشكلة بريندا ورجعت إلى كلمة قالتها صوفيا أزعجتني. سألتُها: لماذا قلتِ إنك خائفة؟

ارتعشت صوفيا قليلاً وضغطت على يديها وقالت بصوت خافت: لأن هذه حقيقة يجب أن تفهمها يا تشارلز. نحن -كما ترى- عائلة غريبة جداً، وفي داخلنا الكثير من القسوة... أنواع كثيرة من القسوة.

لعلها رأت عدم الفهم بادياً على وجهي ولكنها مضت تتحدث بنشاط: سوف أحاول أن أوضّح ما أعنيه. جدي -مثلاً- كان يحدّثنا ذات مرة عن صباه في اليونان، وذكر عرضاً وبلا أي اهتمام أنه طعن رجلين بسبب شجار حدثت فيه مسبات وشتائم مقذعة لا يمكن التسامح فيها. حدث ذلك هناك بصورة طبيعية تماماً ونسي هذا الحادث، ولكن بدا غريباً الحديث عنه هنا في إنكلترا بهذه الطريقة العرضية غير المبالية.

أومأت برأسي موافقاً وأكملت صوفيا: كان ذلك نوعاً من القسوة. ثم كانت جدتي التي أكاد لا أتذكرها، لكني سمعت عنها كثيراً. أظن أنها كانت قاسية أيضاً، ولعل سبب قسوتها افتقارها إلى الحنكة. كل هؤلاء الأجداد من صائدي الثعالب والجنرالات العجائز

الذين كان القتل يسري في دمائهم... نفوسهم مليئة بالغرور والاعتزاز بالنفس، ولم يكونوا يخافون تحمل المسؤولية في المسائل التي تتعلق بالحياة أو الموت.

- أليس في ذلك بعض المبالغة؟

- بلى، أظن ذلك. ولكنني أخاف هذا النوع كثيراً، إنه معتد قاسي الفؤاد. ثم هناك والدتي. إنها ممثلة، أو كانت ممثلة. أنا أحبها لكنها مغرورة وغير واعية، ترى الشيء حسب تأثيره فيها ولا يهمها تأثيره في الناس. هذا مخيف! وهناك زوجة عمي روجر. اسمها كليمنسي، وهي عالمة باحثة تقوم بإعداد أبحاث مهمة جداً، وهي قاسية القلب أيضاً ذات دم بارد عديمة الإحساس. أما عمي روجر فهو عكسها تماماً، لعله ألطف وأحب امرئ في العالم لكن فيه حدة بغيضة، فإذا أصابه أمر جعل دمه يغلي ثم لم يعرف ما يفعله! وهناك أبي...

وتوقفت طويلاً، ثم قالت ببطء: أبي يضبط نفسه. لا تعلم فيمَ يفكر ولا يظهر عليه أي انفعال على الإطلاق. ربما يكون ذلك نوعاً من الدفاع اللاواعي عن النفس ضد والدتي المنغمسة في العاطفة، لكن ذلك يضايقني قليلاً في بعض الأحيان.

- أنت تثيرين نفسك بلا ضرورة يا طفلتي العزيزة. إن الذي نفهمه في النهاية هو أن كل شخص ربما كان قادراً على ارتكاب الجريمة.

- أجل، حتى أنا.

- ليس أنت!

- لا يا تشارلز؛ لا تستثنِني. أعتقد أن بإمكاني أن أقتل شخصاً، ولكن إن حدث ذلك فلا بد أن يكون من أجل شيء يستحق.

ضحكتُ؛ لم أملك إلا الضحك. وابتسمت صوفيا وقالت: ربما كنت حمقاء، ولكن كان يجب علينا اكتشاف الحقيقة حول وفاة جدي... يجب علينا. ليتها كانت بريندا!

وفجأة أحسست بالأسف على بريندا ليونايدز.

* * *

-٥-

أقبلت علينا امرأة طويلة تمشي بخفة. كانت تلبس قبعة بالية، وتنورة لا شكل لها، وكنزة ثقيلة. قالت صوفيا: إنها الخالة إيديث.

توقفت المرأة مرة أو مرتين لتنظر في أحواض الزهور، ثم جاءت إلينا فنهضتُ محيياً.

- هذا هو تشارلز هيوارد يا خالتي... خالتي الآنسة دي هافيلاند.

كانت إيديث دي هافيلاند امرأة في حدود السبعين من عمرها، ذات شعر رمادي غير مرتب ونظرة خارقة لاذعة. قالت: كيف حالك؟ لقد سمعت عنك وعلمت أنك عدت من الشرق. كيف حال أبيك؟

أجبتها وقد فوجئت: إنه بخير.

- إنني أعرفه منذ كان صبياً وأعرف أمه جيداً، أنت تشبهها. هل جئت لتساعدنا أم من أجل أمرٍ آخر؟

قلت متضايقاً: أرجو أن أساعدكم.

- لعل بعض المساعدة تنفعنا. إن المكان يعجّ بالشرطة الذين

يراقبوننا من كل صوب، وأنا لا أحب بعضاً منهم. لا ينبغي للولد الذي كان في مدرسة محترمة أن يعمل في الشرطة. لقد رأيت ابن مويرا كينول أمس يدير إشارة المرور في ماربل آرش، إنه يجعلك تشعر وكأنك في دوامة!

ثم التفتت إلى صوفيا وقالت: الخادمة تسأل عنك يا صوفيا. السمك...

قالت صوفيا: يا إلهي! سوف أذهب وأتصل بالهاتف بخصوص ذلك.

أسرعت إلى البيت بخفة وتبعتها الآنسة دي هافيلاند ببطء، وسرت إلى جانبها.

قالت: لا أعرف ماذا كنا سنفعل دون الخادمات؟ إنهن يغسلن ويكوين ويطبخن وينجزن الأعمال المنزلية، وهن مخلصات. لقد اخترت هذه الخادمة بنفسي منذ سنين.

توقفت واقتلعت نبتة من حوض زهور بقوة قائلة: نبتة كريهة! إنها اللبلاب... أسوأ نبتة؛ تلتفّ وتنعقد ولا نستطيع اقتلاعها بسهولة، فهي تمتد في الأرض.

وسحقت بعضاً من اللبلاب بقدمها ثم نظرت إلى البيت قائلة: ما أسوأ هذا العمل يا تشارلز هيوارد! ما هو رأي الشرطة؟ أخشى أنني تعديت حدودي... يبدو أنه من الغريب الاعتقاد أن أريستايد قد سُمِّم ومات! أنا لم أحبه قط، لكنني لا أستطيع الاعتياد على فكرة موته. إن هذا يجعل البيت يبدو فارغاً!

ومضيت أصغي إلى حديث إيديث دي هافيلاند وهي تروي ذكرياتها في البيت: لقد عشت دهراً طويلاً هنا... أكثر من أربعين عاماً. جئت إلى هذا البيت عندما توفيت أختي، هو طلب مني ذلك. سبعة أطفال أصغرهم له من العمر سنة واحدة فكيف أتركهم للمربية؟... كان زواجهما مستحيلاً، وكنت أشعر أن مارسيا قد سُحرت به؛ أجنبي قبيح وقزم خسيس! أعترف أنه أطلق يدي في البيت في إحضار المربيات والخادمات وشؤون المدارس...

همست: وهل عشت هنا منذ ذلك الوقت؟

- أجل، أمر عجيب. كنت أستطيع أن أغادر البيت عندما كبر الأطفال وتزوجوا. لكنني كنت مهتمة بالحديقة، ثم كان هناك فيليب... لو أن رجلاً تزوج ممثلة فلا يمكنه أن يتوقع أن يحيا حياة عائلية. لماذا تنجب الممثلة أطفالاً؟ فحالما يلدن أطفالهن يسرعن إلى التمثيل في أحد المسارح! لقد أحسن فيليب عندما جاء إلى هنا... مع كتبه.

- وماذا يفعل فيليب ليونايدز؟

- إنه يؤلف الكتب. لا أعرف لماذا؛ فلا أحد يريد أن يقرأها... ليس فيها غير أخبار تاريخية مجردة لم نسمع بها.

- ولماذا يكتب؟

- كان عنده مال كثير. يجب على الناس أن يخالفوا نزواتهم إن أرادوا أن يكسبوا عيشهم.

- أليست هذه الكتب مربحة؟

- ليست مربحة قطعاً. إن فيليب يستحق أن يكون مرجعاً عظيماً في عصور معينة، لكنه لم يكن مضطراً أن يجعل كتبه تدر عليه أرباحاً؛ فقد خصص له أريستايد ما يقارب مئة ألف جنيه! ومن أجل أن يجنّب أريستايد أبناءه ضرائب الإرث بعد موته جعل لكل واحد منهم نصيبه على حدة: روجر يدير مؤسسة للتجهيز الغذائي، وصوفيا تتلقى دخلاً كبيراً جداً، وأموال الأطفال تحت الوصاية.

- إذن فلا أحد يستفيد بشكل خاص من وفاته؟

نظرت إليّ نظرة غريبة ثم قالت: بلى، إنهم يستفيدون جميعاً؛ يأخذون مزيداً من المال كلهم... لكن لو أنهم طلبوه منه لأعطاهم على أية حال.

- هل عندك فكرة عمّن سمّمه يا آنسة دي هافيلاند؟

ردت بطريقة مميزة: لا. لقد أزعجني ذلك كثيراً؛ فليس جميلاً أن تفكر أن شخصاً كهذا يتجول في البيت طليقاً. أظن أن الشرطة سوف يلصقون التهمة بالمسكينة بريندا.

- أليسوا على صواب في ظنهم هذا؟

- لا أدري. لقد بدت لي دائماً شابة غبية تماماً ومبتذلة... شابة عادية لا أظنها يمكن أن تضع له السم. لكن إذا تزوج رجل قريب من الثمانين فتاة في الرابعة والعشرين فلا شك أنها قبلت به من أجل المال. كنا نتوقع -بحساب الأعمار- أن تصبح أرملة غنية في القريب

العاجل، لكن أريستايد كان عجوزاً قوياً بصورة متميزة ولم يكن مرض السكري يؤثر على صحته، وربما كان سيعيش عشرين عاماً أخرى! أعتقد أنها سئمت الانتظار.

قلت: في تلك الحالة...

قالت الآنسة دي هافيلاند بحدة: في تلك الحالة يكون الأمر طبيعياً. الأقاويل مزعجة طبعاً، لكنها ليست من العائلة على أية حال.

- أليست عندك أفكار أخرى؟

- وما هي الأفكار الأخرى التي يمكن أن تكون عندي؟

تساءلت. كان عندي شك بأن الكثير يدور في رأسها ممّا لا أعرفه، وفكرت أن وراء غرورها وكلامها غير المترابط عقلاً يعمل بدهاء شديد. وقلت في نفسي: هل تكون الآنسة دي هافيلاند نفسها قد سمّمت أريستايد ليونايدز؟!

لا تبدو الفكرة مستحيلة، وتذكّرت كيف سحقت نبات اللبلاب بقدمها بقسوة تدل على الحقد. وتذكرت كلمة قالتها صوفيا: «القسوة»... واختلست نظرة إلى الآنسة دي هافيلاند من طرف عيني. إنها تعطي سبباً مقنعاً، لكن ما الذي يبدو لإيديث دي هافيلاند سبباً مقنعاً؟

للإجابة عن ذلك كان ينبغي أن أعرفها أكثر.

* * *

-٦-

دخلنا إلى قاعة رحبة على نحو مدهش فيها طقم من خشب البلوط الداكن وعليها نحاسيات براقة. وقالت إيديث: هذا جناح زوج أختي من البيت، وفي الطابق الأرضي يعيش فيليب وماجدا.

دخلنا من جهة اليسار إلى غرفة استقبال كبيرة جدرانها مدهونة باللون الأزرق الفاتح وأثاثها مغطى بقماش مطرز، وعلى الجدران كانت صور ورسومات الممثلين والراقصين وصور من المسرحيات معلقة، وفوق رف الموقد صُفَّت مزهريات كبيرة فيها زهور الأقحوان والقرنفل.

قالت إيديث: أظنك تريد رؤية فيليب؟

هل أردت لقاءه حقاً؟ لا أدري. كنت فقط أريد رؤية صوفيا، وهذا ما فعلته. لقد ساهمت حتماً في خطة الرجل العجوز، أبي، لكن صوفيا انسحبت الآن ولا بد أنها في مكان ما تتصل هاتفياً لتطلب السمك.

ولم أعرف كيف أبدأ العمل. هل أتقرب من فيليب ليونايدز

كشاب يريد خطبة ابنته أم مجرد صديق عابر دخل البيت للزيارة أم كرجل مرتبط بالشرطة؟ لم تعطني الآنسة دي هافيلاند أي وقت لكي أفكر في سؤالها، والحقيقة أنه لم يكن سؤالاً بل كان إصراراً.

قالت: سنذهب إلى المكتبة.

قادتني خارج غرفة الاستقبال عبر ممر طويل، ثم دخلنا من باب آخر. كانت غرفة فسيحة تملؤها الكتب، ولم تكن الكتب في الخزائن التي وصلت إلى السقف بل كانت على الكراسي والطاولات، وحتى على الأرض... ومع ذلك لم تكن في حالة فوضى. وكانت الغرفة باردة كأن أحداً لم يدخلها، وكانت رائحة عفن الكتب العتيقة وشمع العسل تخرج منها. وبسرعة أدركت أن الغرفة تفتقر إلى رائحة التبغ، فلم يكن فيليب مدخناً.

وعندما دخلنا نهض فيليب من وراء طاولته، وكان رجلاً طويلاً أنيقاً في نحو الخمسين من عمره. تحدث الكل كثيراً عن قبح أريستايد ليونايدز فتوقعت أن يكون ابنه قبيحاً مثله ولم أكن مستعداً لرؤية رجل وسيم: الأنف المستقيم، والخط المتصدع في فكه، والشعر الأشقر الذي خالطه الشيب والمصفف إلى الخلف، والجبهة الجميلة.

قالت إيديث: هذا تشارلز هيوارد يا فيليب.

- أهلاً بك، كيف حالك؟

لا أدري إن كان فيليب قد سمع بي من قبل؛ فقد صافحني ببرود ولم يكن وجهه فضولياً ووقف بلا اهتمام. وسألته إيديث: أين رجال الشرطة البغيضون؟ هل جاؤوا إلى هنا؟

- أظن أن رئيس المفتشين... (ونظر في بطاقة على الطاولة) تافيرنر قادم ليتحدث معي في الحال.

- أين هو الآن؟

- لا أدري يا خالتي إيديث، أظن أنه في الطابق العلوي.

- مع بريندا؟

- لا أعرف.

عندما تنظر في وجه فيليب ليونايدز لن تصدق أن جريمة وقعت قريباً منه.

وسألته إيديث: أما تزال ماجدا فوق؟

- لا أعلم؛ في العادة لا تذهب هناك قبل الحادية عشرة.

قالت إيديث: هذا الصوت يشبه صوتها.

الصوت الذي كان يشبه صوت السيدة ماجدا كان صوتاً عالياً يتحدث بسرعة كبيرة ويقترب بسرعة. وانفتح الباب من خلفي بقوة ودخلت امرأة كأنها ثلاث نساء لا واحدة!

كانت تدخن لفافة في ممسك طويل وتلبس ثوباً فضفاضاً طويلاً من الساتان قرنفلي اللون، وكان شعرها الغزير المتموّج مسترسلاً على ظهرها ووجهها بلا مساحيق كأنه لوحة زيتية وعيناها زرقاوين جاحظتين، وكانت تتكلم بسرعة وينطلق لسانها بصوت جذاب قوي ونطق واضح.

قالت: حبيبي فيليب، لا أستطيع احتمال ذلك... ألم تفكر في البلاغات؟ إنها لم تظهر في الصحف بعد ولكنها ستنشر حتماً، ولا أعرف ماذا ألبس في التحقيق؟ لن ألبس ثوباً أسود... ربما ثوباً أرجوانياً. ولم تبقَ عندي كوبونات؛ لقد أضعت عنوان ذلك الرجل البغيض الذي يبيعها لي... إن الموقف قريب من شارع شيفتسبوري، ولو ذهبت هناك بالسيارة فإن الشرطة سيتبعونني، وربما يسألونني أسئلة سمجة، أليس كذلك؟ ماذا أقول لهم؟ ألا نستطيع أن نترك هذا البيت الكريه الآن؟ حرية... حرية! آه! إنه عمل غير لطيف، العجوز المسكين! نحن لم نتركه يوماً حين كان حياً، وكان يحبنا رغم كل المشكلات التي حاولت أن تثيرها تلك المرأة في الطابق الأعلى. أنا متأكدة أننا لو ذهبنا وتركناه لها لقطع عنا كل شيء... لو لم تكن امرأة مرعبة فظيعة لما وقفت كل العائلة في وجهها حين دخلت حياته وهو على باب التسعين! فيليب، أظن أن الفرصة رائعة الآن لنؤدي مسرحية «إيديث تومبسون»؛ فهذه الجريمة ستعطينا الكثير من الدعاية مقدماً... لقد قال بيلدين ستين إنه يستطيع أن يجعل هذه المسرحية الشعرية الحزينة عن عمال المناجم ناجحة في أي وقت. إنه دور رائع... رائع! أعرف أنهم يقولون إنني يجب أن أقوم دائماً بالأدوار الهزلية بسبب شكل أنفي، لكنك تعلم -يا فيليب- أن في مسرحية «إيديث تومبسون» كثيراً من المشاهد الكوميدية. لعل المؤلفة لم تدرك ذلك... الكوميديا تزيد عنصر التشويق. أنا أعرف كيف أقوم بهذا الدور من أوله إلى آخره، ومن ثم...

ومدت ذراعيها فسقطت اللفافة من الممسك على طاولة

فيليب المصنوعة من خشب الماهوغاني المصقول وجعلت تحرقه، فأمسكها فيليب بهدوء وألقاها في سلة المهملات.

همست ماجدا وقد اتسعت عيناها فجأة وتشنج وجهها: ثم يأتي الرعب!

بقيت علامات الخوف الشديد بادية على وجهها قليلاً، ثم انبسط وجهها وتجعّد وأصبحت مثل طفلة متحيرة توشك أن تبكي. وفجأة زالت كل الانفعالات وسألتني بنبرة رسمية وقد التفتت إلي: ألا تعتقد أن هذه هي طريقة عرض مسرحية «إيديث تومبسون»؟

وافقتها، وفي تلك اللحظة استطعت أن أتذكّر -بغموض شديد- إيديث تومبسون، لكنني كنت مهتماً أن أبدأ بداية جيدة مع والدة صوفيا.

قالت ماجدا: إيديث تشبه بريندا، أليس كذلك؟ هل تعرف أنني لم أفكر بذلك أبداً؟ إنه لأمر مشوّق جداً، هل يجب أن أوضح ذلك للمفتش؟

قطب الرجل الجالس وراء المكتب حاجبيه قليلاً، ثم قال: لا حاجة لأن تشاهديه أصلاً يا ماجدا؛ يمكنني أن أخبره بكل شيء يريد معرفته.

ارتفع صوتها: لا أراه؟! بل يجب أن أراه. إنك -يا حبيبي- ضيق الخيال ولا تفهم أهمية التفصيلات. سوف يرغب في معرفة كيف ومتى حدث كل شيء بالضبط وسائر التفصيلات الصغيرة التي رأيناها وتعجّبنا منها آنذاك.

قالت صوفيا وهي تدخل من الباب المفتوح: أمي، لا نريدك أن تخبري المفتش كثيراً من الأكاذيب.

- صوفيا، حبيبتي!

- أعرف أنك قد أعددت كل شيء وأنك تهيأت لأداء دور جميل جداً، لكن لعلك حفظتِه بطريقة خاطئة، خاطئة تماماً.

- هراء! أنت لا تعرفين.

- أنا أعرف. يجب أن تمثلي هذا الدور بشكل مختلف تماماً، عليك أن تكوني متحفظة قليلة الكلام وأن تكبحي جماح لسانك وتحرصي على حماية العائلة.

ظهرت على وجه ماجدا ليونايدز حيرة طفلة ساذجة، قالت: حبيبتي، هل تظنين ذلك حقاً؟

- نعم، أظن ذلك. احترزي في الكلام، هذه هي الفكرة.

ابتسمت الأم بسمة رضا عندما أضافت صوفيا قائلة: لقد صنعت لك بعض الحلوى، وهي في غرفة الاستقبال.

- عظيم، أكاد أموت جوعاً.

وقفت عند الباب وقالت: ما أجمل أن يكون لك ابنة!

ولم أدرِ أكانت تخاطبني أم تخاطب رفّ الكتب فوق رأسي؟ ثم خرجت من الغرفة، فقالت الآنسة دي هافيلاند تخاطب صوفيا: الله أعلم بما ستقوله أمك للشرطة.

- ستكون على ما يرام.

- قد تقول شيئاً.

- لا تقلقي، ستؤدي الدور كما يريد المنتج... وأنا المنتج.

وخرجت صوفيا وراء أمها ثم التفتت لتقول: ها هو رئيس المفتشين جاء يراك يا أبي. لن تمانع أن يبقى تشارلز هنا، أليس كذلك؟

أظن أنني لمحت بعض الحيرة على وجه فيليب ليونايدز، ربما... لكنه همس بصوت غامض: آه بالتأكيد، بالتأكيد.

دخل رئيس المفتشين تافيرنر وقد بدا الحزم على ملامحه، أما سلوكه فكأنه كان يقول: "نحتمل بعض المكاره ثم نخرج من البيت ولا نعود أبداً، ولن يكون أحد أكثر سروراً مني بذلك. أؤكد لك أننا لم نأتِ لنتسكع".

لا أدري كيف فهمنا ما فعله من غير كلمة واحدة سوى أنه سحب كرسياً إلى الطاولة، وجلست غير متطفل بعيداً قليلاً.

قال فيليب: نعم يا حضرة المفتش؟

قالت الآنسة دي هافيلاند فجأة: هل تريدني يا حضرة المفتش؟

- ليس الآن يا آنسة دي هافيلاند... ربما أتحدث معك قليلاً من بعد.

- بالطبع، سأكون في الطابق العلوي.

خرجت دي هافيلاند وأغلقت الباب وراءها، فقال فيليب مرة ثانية: حسناً يا حضرة المفتش؟

- أعلم أنك رجل أعمال منشغل جداً ولا أريد أن أعوقك كثيراً، لكنني أردت إبلاغك أن شكوكنا قد تأكدت: إن أباك لم يمت ميتة طبيعية بل مات من جرعة زائدة من مادة سامة اسمها فايسوستغماين، وهي المعروفة عادة بالإيسيرين. هل يوحي لك هذا شيئاً؟

- وماذا يوحي؟ رأيي أن أبي قد أخذ السم دون قصد.

- هل تعتقد ذلك حقيقة يا سيد ليونايدز؟

- نعم، هذا يبدو لي ممكناً تماماً لأنه كان قريباً من التسعين وكان بصره ضعيفاً.

- لذلك فرّغ محتويات زجاجة قطرة العين في زجاجة الأنسولين... هل يبدو هذا اقتراحاً معقولاً يا سيد ليونايدز؟

لم يجبه فيليب، حتى إن وجهه أصبح خالياً من التعبير. وأكمل تافيرنر: لقد وجدنا زجاجة القطرة فارغة في سلة المهملات وليس عليها بصمات، وهذا أمر غريب بحد ذاته؛ ففي الأحوال الطبيعية كان يجب أن تكون عليها بصمات أصابع... قد تكون بصمات أبيك أو بريندا زوجته أو الخادم...

رفع فيليب بصره: الخادم؟ ماذا عن جونسون؟

- هل ترى أن جونسون هو المجرم؟ إن لديه فرصة بالتأكيد، لكن عندما نصل إلى الدافع يكون الأمر مختلفاً. كان من عادة أبيك أن يدفع لجونسون مكافأة في كل عام، وفي كل سنة كانت المكافأة تزيد، وكان جونسون يعلم أن تلك المكافآت هي بدل من نصيبه في الوصية. والآن -بعد هذه السنوات- بلغت المكافأة مبلغاً كبيراً يأخذه كل عام وما زالت تزيد، ومن مصلحة جونسون أن يعيش أبوك طويلاً. كما أنهما كانا متحابين كثيراً، وسجلّ جونسون من خدمته السابقة لا يرقى إلى الاتهام؛ إنه خادم ماهر جداً ومخلص... إننا لا نشك فيه.

- فهمت.

- والآن يا سيدي، هل يمكن أن تعطيني وصفاً مفصلاً لتحركاتك في اليوم الذي حدثت فيه وفاة والدك؟

- نعم يا حضرة المفتش؛ كنت هنا في هذه الغرفة طوال اليوم باستثناء أوقات تناول وجبات الطعام.

- ألم ترَ والدك أبداً؟

- فقط قلت له بعد الإفطار: «صباح الخير»، وهي عادتي.

- هل كنتما وحدكما عندئذ؟

- كانت... كانت زوجة أبي في الغرفة.

- وهل كان طبيعياً كالعادة؟

أجاب فيليب بسخرية مبطنة: لم يُظهر أنه سيقتل ذلك اليوم.

- هل جناح أبيك منفصل عن هذا الجناح تماماً؟

- نعم؛ لا مدخل إليه إلا من باب القاعة.

- وباب القاعة هل يظل مغلقاً؟

- لا، لم أعلم أنه يغلق.

- هل يستطيع أي واحد أن يتنقل بحرية بين ذلك الجناح وهذا؟

- أجل، لقد كان مفصولاً من أجل راحة أهل المنزل.

- كيف بلغك نبأ موت أبيك أول مرة؟

- أخي روجر (الذي يسكن الجناح الغربي من الطابق الأعلى فوقنا) جاء هرولة ليخبرني أن أبي قد انتابته نوبة مفاجئة... وقال إنه يتنفس بصعوبة وإنه يبدو مريضاً جداً.

- فماذا فعلت؟

- اتصلت بالطبيب، حيث بدا أن أحداً لم يفكر في استدعائه. وكان الطبيب خارجاً فتركت له بلاغاً لكي يأتي من فوره ثم صعدت إلى الطابق الأعلى.

- وبعدها؟

- أبي كان في حال خطيرة؛ لقد مات قبل أن يصل الطبيب؟

لم يكن في صوته أي انفعال، كان بياناً بسيطاً عن الحقيقة!

- أين كان بقية أفراد العائلة؟

- زوجتي كانت في لندن وعادت بعد موته بوقت قصير، وأظن أن صوفيا كانت غائبة هي الأخرى. أما بوستيس وجوزفين فقد كانا في البيت.

- أرجو أن لا تخطئ فهمي -يا سيد ليونايدز- لو أنني سألتك: كيف يؤثر موت أبيك في وضعك المالي بالضبط؟

- أنا أقدّر تماماً أنك تريد الحقيقة. لقد جعلنا مستقلين مادياً منذ سنوات عدة؛ فقد جعل أخي رئيساً ومساهماً في شركة لتجهيز الأغذية، وهي أكبر شركة له، ووضع إدارتها تحت يده. كما خصّصَ لي ما اعتبره مبلغاً مساوياً، مئة وخمسين ألف جنيه على شكل سندات مالية مختلفة، وكان بإمكاني أن أستثمر رأس المال كيف أشاء. كما خصص نصيباً كبيراً أيضاً لشقيقتيَّ اللتين توفيتا بعد ذلك.

- ورغم ذلك ظل رجلاً غنياً جداً؟

ابتسم فيليب لأول مرة ابتسامة باهتة وقال: لا، فقد احتفظ لنفسه بدخل متواضع نسبياً، لكنه بدأ بمشاريع جديدة فصار أغنى من ذي قبل.

- لقد جئت أنت وأخوك للعيش هنا، هل كان ذلك بسبب صعوبات مالية؟

- كلا بالتأكيد، بل من أجل الراحة. كان أبي يرحب بنا دائماً لنعيش عنده، ولأسباب مختلفة رغبت في ذلك. كنت أحب أبي

كثيراً، ولذا جئت هنا مع أسرتي في عام ١٩٣٧ للعيش هنا. وأنا لا أدفع أجرة لكني أدفع نسبة من الضريبة.

- وأخوك؟

- أخي جاء هنا هرباً من الغارة الجوية التي دمرت بيته عام ١٩٤٣ في لندن.

- والآن يا سيد ليونايدز، هل لديك أية فكرة عن محتويات وصية والدك؟

- فكرة واضحة جداً؛ لقد أعاد أبي كتابة وصيته في عام ١٩٤٦. لم يكن والدي كتوماً وكان يهتم بأفراد العائلة، فعقد اجتماعاً خاصاً للأسرة حضره محاميه الذي شرح لنا بنود الوصية، وأظن أنك اطّلعت عليها؛ فلا شك أن السيد جيتسكيل قد أبلغك بها. لقد أوصى بمئة ألف جنيه خالية من الضرائب لزوجته، ناهيك عن هبة الزواج السخية التي حصلت عليها. ثم جعل أملاكه ثلاث حصص: واحدة لي، والثانية لأخي، والثالثة تحت الوصاية لأحفاده الثلاثة. إن البيت كبير لكن ضريبة الإرث ستكون كبيرة.

- وهل أوصى بشيء للخدم أو المؤسسات الخيرية؟

- لا، إن الرواتب التي كانت تدفع للخدم كانت تزاد سنوياً ما داموا في الخدمة.

- هل أنت (وعذراً لسؤالي هذا يا سيد ليونايدز) في حاجة ماسة إلى المال؟

- ضريبة الدخل -كما تعرف يا حضرة المفتش- كبيرة، لكن دخلي يكفي حاجتي وحاجة زوجتي أيضاً. أضف إليه أن والدي كان دائم العطايا، وإذا طرأت لنا حاجة كان يسدها فوراً. تأكد أن ليس عندي أي ضيق مالي يدفعني إلى الرغبة في موت أبي يا حضرة المفتش.

- أنا آسف جداً يا سيد ليونايدز... لا أعني ذلك لكن علينا أن نحصل على جميع الحقائق، وأخشى أنه يجب أن أسألك بعض الأسئلة الحرجة: هل كان والدك وزوجته سعيدين معاً؟

- حسب ظني كانا سعيدين تماماً.

- ألم تحدث بينهما مشاجرات أو خلافات؟

- لا أظن ذلك.

- ألم يكن بينهما فرق كبير في السن؟

- بلى.

- اسمح لي: هل وافقتَ على زواج أبيك الثاني؟

- لم يطلب موافقتي على ذلك.

- هذا ليس جواباً يا سيدي.

- ما دمت تصر فإنني أقول إن زواجه كان عملاً غير حكيم.

- وهل تنازعت معه من أجل ذلك؟

- عندما سمعت به كان الزواج قد تم وانقضى الأمر.

- هل صدمك الخبر؟

لم يجبه فيليب.

- هل غضبت من زواجه؟

- كان والدي حراً يفعل ما يشاء.

- كيف كانت علاقتك مع السيدة ليونايدز؟

- عادية.

- هل أنت على علاقة ودية معها؟

- إننا لا نكاد نلتقي.

غيّرَ تافيرنر موضوعه: هلاّ أخبرتني بشي عن السيد لورانس براون؟

- أخشى أنني لا أستطيع؛ فوالدي هو الذي وظفه.

- لكنه كان يعلّم أطفالك أنت يا سيد ليونايدز.

- صحيح. ابني كان مصاباً بشلل الأطفال إصابة بسيطة، وقد نصح الأطباء أن لا نرسله إلى مدرسة حكومية فأشار أبي أن نعيّن له معلّماً يعلمه هو وابنتي الصغيرة جوزفين، وكان الخيار في ذلك الوقت محدوداً لأن المعلم كان يجب أن لا يكون مطلوباً للخدمة العسكرية آنذاك. كانت أوراق هذا الشاب مُرْضِية، وكان أبي وخالتي التي تعتني بالأطفال راضيين عنه فأذعنت لهما. وأنا لم أجد عيباً في طريقة تعليمه، فقد كان مخلصاً ويفي بالمطلوب.

- كان يسكن في جناح أبيك وليس هنا، أليس كذلك؟

- في الطابق العلوي غرف كثيرة.

- أرجو أن لا يسوؤك هذا السؤال: هل لاحظت ما يدل على علاقة حب بين لورانس براون وزوجة أبيك؟

- لم تتهيأ لي فرصة حتى ألاحظ شيئاً مثل هذا.

- ألم تسمع كلاماً أو ثرثرة في هذا الأمر؟

- أنا لا أصغي إلى الثرثرة يا حضرة المفتش.

- هذا جدير بالإكبار. إذن فأنت لم تسمع سوءاً ولم تر سوءاً ولا تريد أن تنطق بسوء، أليس كذلك؟

- إن كنت تريد أن تفهمها كذلك فلك ما تريد يا حضرة المفتش.

نهض المفتش تافيرنر وقال: حسناً، شكراً لك يا سيد ليونايدز.

وتبعته دون فضول خارج الغرفة فسمعته يقول: إنه رجل فاتر.

* * *

-٧-

قال تافيرنر: والآن سنذهب لنتحدث مع السيدة فيليب... اسمها الفني هو ماجدا ويست.

- وهل تفيدنا؟ أعرف اسمها وقد رأيتها في مسرحيات عدة، لكني لا أذكر متى وأين.

- إنها واحدة من فرقة الأعمال الناجحة، مثلت دور البطولة مرة أو مرتين في غربي إنكلترا، وقد نجحت واشتهرت في المسارح في كسب الرزق. كانت تستطيع أن تختار المسرحية التي تعجبها وتذهب حيث تشاء، ومن وقت لآخر كانت تدفع المال من أجل عرض فيه دور أحبته، ولم تكن ترضى بأي دور... النتيجة أنها تراجعت قليلاً إلى مرتبة الهواة أكثر من كونها ممثلة محترفة. إنها ممثلة جيدة ولا سيما في الكوميديا، لكن المخرجين لا يحبونها كثيراً. إنهم يزعمون أنها لا تلتزم بالقيود وتثير المتاعب والمشاجرات وتستمتع بإثارة المنازعات بين الناس... لا أعرف مدى صحة هذا، لكنها غير محبوبة من قبل زملائها الفنانين.

خرجت صوفيا من غرفة الاستقبال وقالت: والدتي هنا يا حضرة المفتش.

تبعت تافيرنر إلى غرفة الاستقبال الكبيرة. في البداية لم أستطع معرفة المرأة التي جلست على الأريكة المطرزة؛ فقد كان شعرها يرتفع عالياً فوق رأسها بتسريحة من العهد الإدواردي، وكانت تلبس معطفاً أخضر أنيقاً وتنورة وقميصاً بنفسجياً باهت اللون مثبتاً عند الرقبة بدبوس صغير من الزمرّد.

ولم أصدق أن هذه المرأة كانت هي ذات المرأة العنيفة في الثوب المخملي الفضفاض!

قالت: المفتش تافيرنر؟ هلاّ دخلت وجلست؟ هل تدخن؟ هذا عمل فظيع جداً! أنا أشعر بالنفور من التدخين الآن.

كان صوتها خافتاً وخالياً من العاطفة، صوت امرئ عازم على ضبط النفس مهما يكن الثمن، وقالت: أرجو أن تخبرني، هل أستطيع مساعدتك بشيء؟

- شكراً لك سيدة ليونايدز، أين كنت يوم المأساة؟

- كنت قادمة في سيارتي من لندن حيث تناولت الغداء في ذلك اليوم في مطعم إيفي مع صديقة لي، ثم ذهبنا لنشاهد عرض أزياء وشربنا القهوة مع بعض الأصدقاء في بيركلي، وبعد ذلك انطلقت راجعة إلى البيت، وحين وصلت رأيت كل شيء مضطرباً.

وارتعش صوتها قليلاً وهي تقول: وجدت حماي قد أصابته نوبة فجأة، كان ميتاً!

- أكنت تحبين حماك؟

رفعت صوتها: كنت أحب...

ارتفع صوت ماجدا، وفي تلك اللحظة مدت صوفيا يدها بهدوء فعدّلت لوحة معلقة فوق الموقد، وفي الحال انخفض صوت ماجدا: كنت أحبه كثيراً، كنا جميعاً كذلك. لقد كان طيباً معنا جداً.

- هل كانت علاقتك جيدة مع السيدة ليونايدز؟

- لم نكن نرى بريندا كثيراً.

- ولماذا كان ذلك؟

- لم تكن بيننا أشياء كثيرة مشتركة، مسكينة بريندا! لا بد أن حياتها كانت صعبة في بعض الأحيان.

مرة أخرى عبثت صوفيا باللوحة فوق الموقد.

- حقاً؟ وكيف؟

- هزت ماجدا رأسها وابتسمت بسمة حزينة قصيرة: آه! لا أدري.

- هل كانت السيدة بريندا سعيدة مع زوجها؟

- أظن ذلك.

- ألم تحدث بينهما مشاجرات؟

مرة أخرى هزت رأسها وهي تبتسم ابتسامة لطيفة: الحق أنني لا أعرف يا حضرة المفتش، فجناحهما في البيت منفصل عنا تماماً.

- ألم تكن هي على صداقة حميمة مع السيد لورانس براون؟

عبست ماجدا ليونايدز وفتحت عينيها تنظران إلى تافيرنر نظرة توبيخ، وقالت بوقار: ما كان ينبغي لك أن تسألني أسئلة كهذه! كانت بريندا محبوبة عندنا جميعاً، إنها امرأة لطيفة جداً.

- هل أنت راضية عن السيد براون؟

- إنه رجل هادئ لطيف وتكاد لا تحس بوجوده. أنا لم أره كثيراً.

- أأنت راضية عن تدريسه؟

- أظن ذلك، لا أعرف... ولكن فيليب يبدو راضياً.

جرب تافيرنر أسلوب الصدمة: آسف لسؤالي هذا... برأيك هل كانت بين السيد براون والسيدة بريندا ليونايدز أي علاقة حب؟

نهضت ماجدا مثل سيدة من النبلاء وقالت: لم أرَ أي دليل على شيء من هذا، وأحسب -يا حضرة المفتش- أنه ليس من حقك أن تسألني مثل هذا السؤال؛ فبريندا كانت زوجة عمي.

استحسنت جوابها ذاك، أما تافيرنر فقد وقف قائلاً: هل أستطيع أن أسأل الخدم هذا السؤال؟

لم تجبه ماجدا، فتابع: شكراً لك يا سيدة ليونايدز.

وخرج المفتش فقالت صوفيا لأمها بحرارة: لقد أديت ذلك بشكل جميل يا حبيبتي.

فتلت ماجدا خصلة من الشعر وراء أذنها اليمنى ونظرت إلى وجهها في المرآة. قالت: نعم، نعم؛ أعتقد أنني أديت عملي بالطريقة الصحيحة.

نظرت صوفيا إليّ وسألت: أما كان يجب أن تخرج وراء المفتش؟

- اسمعي يا صوفيا، ما الذي ينبغي لي...؟

أمسكت لساني؛ فلم أستطع سؤالها صراحة أمام أمها عن دوري الذي يجب أن أقوم به لأن ماجدا لم تُبدِ -حتى الآن- أقلَّ اهتمام بي. لعلي كنت في نظرها صحفياً أو مستشاراً عند ابنتها! ربما أكون صحفياً أو عيناً للشرطة أو حتى حانوتياً... كل هذه الأشياء عند ماجدا واحدة؛ فالشرطي والصحفي والحانوتي كلهم عندها جمهور!

قالت ماجدا وهي تنظر إلى قدميها بسخط: هذا الحذاء تافه.

استجبت لحركة متعجرفة من صوفيا وأسرعت خارجاً وراء

تافيرنر. لحقت به في الصالة الخارجية وهو يلج الباب إلى الدرج، قال: سأصعد لأرى الأخ الأكبر.

أوضحت له مشكلتي دون ضجة مستفسراً: أرجوك اسمعني يا تافيرنر... ماذا يُفترض أن أكون؟

دُهِش: ماذا يفترض أن تكون؟

- نعم، ماذا أفعل هنا... في هذا البيت؟ إن سألني أحد فماذا أقول؟

فكر المفتش لحظة وقال: "آه، فهمت". ثم ابتسم وقال: وهل سألك أحد شيئاً؟

- لا.

- إذن فلماذا لا تترك الأمر هكذا؟ لا تشرح أبداً. هذا أسلوب جيد، لا سيما في بيت مضطرب كهذا البيت. كل منهم شغلته مشكلاته الخاصة ومخاوفه فلا أحسبه يفكر في أمرك، سوف يرضون بوجودك ما دمت تبدو واثقاً من نفسك. إن قول أي شيء خطأ عظيم ما دامت لا توجد ضرورة لذلك. والآن هيا إلى الدرج، لا شيء مغلقاً هنا. أنت تفهم -طبعاً- أن هذه الأسئلة التي أسألها كلها هراء... إن الأسئلة عمّن كان في البيت ومَن لم يكن أو أين كانوا جميعاً في ذلك اليوم غير مهمة.

- إذن فلماذا؟

- لأنها فرصة لأنظر إليهم جميعاً فأكوّن انطباعاتي وأسمع

ما يريدون قوله، وربما يعطيني أحدهم -بالمصادفة المحضة- مؤشّراً مفيداً.

وصمت قليلاً ثم همس: أقسم أن ماجدا ليونايدز يمكنها أن تكشف أشياء كثيرة لو أرادت ذلك.

- وهل تعتمد على كلامها هذا؟

- لا، لن أعتمد عليه، لكن لعله يرشدنا إلى وجهةٍ ما في التحقيق. كل أحد في هذا البيت الملعون له وسائله وفرصته، وما أسعى إليه هو الدافع.

* * *

عند رأس الدرج كان ثمة باب يسد الممر الأيمن وكان عليه مطرقة نحاسية. طرق المفتش الباب كما ينبغي ففتحه رجل بدت في وجهه علامات الدهشة والمفاجأة... لا بد أنه كان يقف وراء الباب.

كان رجلاً عملاقاً له كتفان قويان وشعر أسود جعد ووجهه قبيح إلى أبعد حد، غير أنه وجه لطيف.

نظر إلينا ثم ردّ بصره بسرعة بتلك الطريقة المتحيرة التي ينظر بها الرجل الصادق الحييّ، وقال: تفضلا. نعم، أرجوكما. لقد كنت أنوي الخروج لكن هذا لا يهم... تفضّلا إلى غرفة الجلوس، سأنادي كليمنسي. ها، أنت هنا يا حبيبتي؟ إنه رئيس المفتشين تافيرنر، هل عندنا تبغ؟ أرجوك انتظر لحظة.

ثم خرج من الغرفة كالنحلة الطنّانة التي تترك الهدوء وراءها.

كانت زوجته واقفة بجانب النافذة، وقد أسرتني شخصيتها الجذابة وشدت انتباهي الغرفة التي كنا نقف فيها. كانت الجدران مصبوغة باللون الأبيض، الأبيض الحقيقي غير العاجي ولا المائل إلى الصفرة، ولم يكن عليها من الصور سوى واحدة فوق رف الموقد كانت عملاً هندسياً غير تقليدي... مثلثات رمادية داكنة وسفينة زرقاء.

ولم يكن في الغرفة زخارف أو أثاث سوى ثلاثة كراسي أو أربعة وطاولة زجاجية ورف كتب صغير، وكان فيها ضوء وفسحة وهواء. لقد كانت على النقيض من غرفة الاستقبال الكبيرة في الطابق السفليّ الملأى بالمطرّزات والزهور.

وكانت السيدة روجر تختلف عن السيدة فيليب تماماً؛ ماجدا ليونايدز قد تكون في دور ست نساء مختلفات، لكن كليمنسي ليونايدز (وهو ما كنت متأكداً منه) لا يمكن أن تكون أبداً واحدة أخرى غير ذاتها: كليمنسي ليونايدز. كانت امرأة ذات شخصية حادة واضحة.

أظن أنها في الخمسين، شعرها رمادي قصير لكنه يزيد رأسها الصغير الجميل جمالاً. ووجهها رقيق يدل على الذكاء، وعيناها رماديتان تدلاّن على قوة غريبة حادة، وكانت تلبس ثوباً من الصوف يناسب قوامها النحيف تماماً.

وشعرت فوراً أنها امرأة غير عادية، وفهمت لماذا استخدمت

صوفيا تعبير «القسوة» حين وصفتها. ارتعشتُ قليلاً بسبب برودة الغرفة، وقالت كليمنسي بصوت هادئ ولسان مهذب: اجلس من فضلك يا حضرة المفتش. هل عندك أخبار جديدة؟

- **كان موته بسبب الإيسيرين يا سيدة ليونايدز.**

قالت متأملة: إذن فهذا يجعل الأمر جريمة قتل! ألا يمكن أن تكون حادثاً من أي نوع؟

- لا يمكن يا سيدتي.

- أرجوك أن تكون لطيفاً مع زوجي يا حضرة المفتش، فهذا الأمر يؤثر فيه كثيراً. لقد كان يحبّ أباه كثيراً وهو مرهف الإحساس وعاطفي إلى أبعد الحدود.

- هل كنت على علاقة حسنة مع حماك يا سيدة ليونايدز؟

- نعم، علاقة حسنة تماماً.

ثم أضافت بهدوء: ولكني لم أكن أحبه كثيراً.

- لماذا؟

- لا تعجبني أهدافه في الحياة ولا أسلوبه في تحقيقها.

- والسيدة بريندا؟

- بريندا؟ لم أكن أراها كثيراً.

- هل تظنين أن من الممكن وجود علاقة بينها وبين السيد لورانس براون؟

- تقصد علاقة حب؟ لا؛ لم أكن أعلم شيئاً من ذلك.

بدا من صوتها أنها غير مهتمة.

ورجع زوجها روجر مسرعاً بنفس حركته الطنّانة المزعجة وقال: لقد تأخرت... مكالمة هاتفية. حسناً يا حضرة المفتش: ماذا هناك؟ حسناً، هل لديك أية أخبار؟ ما الذي سبّبَ وفاة والدي؟

- كانت الوفاة بسبب التسمم بالإيسيرين.

- حقاً؟ يا إلهي! إذن لا بد أنها تلك المرأة... لم تستطع الانتظار! لقد أخرجها أبي من حياة الفقر... أهكذا جزاؤه؟ قتلته بدم بارد؟ يا إلهي! إن دمي يغلي عندما أفكر بهذا.

- هل لديك سبب محدد يجعلك تعتقد ذلك؟

كان روجر يراوح جيئة وذهاباً وهو بالغ الانفعال: سبب؟ لِمَ؟ مَن يمكنه أن يفعل ذلك غيرها؟ لم أثق بها يوماً... لم أحبها البتة... لا أحد منا يحبها. لقد فزعت أنا وفيليب حين دخل علينا والدي يوماً من الأيام وأخبرنا أنه تزوج! في مثل عمره؟ ذاك جنون... جنون! كان أبي رجلاً مدهشاً يعجبك يا حضرة المفتش؛ كان عقله مدبراً كأنه في سن الأربعين، إن كل ما أملكه هو من خيره وفضله... لقد فعل كل شيء من أجلي ولم يخذلني يوماً، بل أنا الذي خذلته. وكلما ذكرت ذلك...

وألقى بنفسه على الكرسي بقوة، فجاءت إليه زوجته: كفى يا روجر، لا تجهد نفسك.

أمسك بيدها وقال: أعرف يا عزيزتي... أعرف. ولكن كيف أقعد هادئاً؟ كيف أتمالك نفسي؟

- يجب أن نبقى هادئين كلنا. إن السيد المفتش يريد مساعدتنا.

- هذا صحيح يا سيدة ليونايدز.

صاح روجر: هل تعلم ما أود أن أفعل؟ وددت لو أنني أخنق تلك المرأة بيديّ! لقد ضنّت على ذلك العجوز ببضع سنين من الحياة... يا ليتني أمسك بها!

وقف روجر وهو يرتعش من الغيظ ومد يديه المرتعشتين: أجل، كنت سألوي عنقها... ألوي عنقها.

زجرته كليمنسي: روجر!

نظر إليها خَجِلاً وقال: أنا آسف يا عزيزتي.

ثم التفت إلينا قائلاً: أنا آسف فعلاً، لقد غلبتني مشاعري. إنني... اعذروني.

وخرج من الغرفة ثانية، فقالت زوجته بابتسامة باهتة: الحقيقة أنه لا يستطيع أن يؤذي ذبابة.

قَبِلَ تافيرنر كلمتها بأدب ثم شرع في أسئلته الروتينية: أين كنتما يوم مات السيد ليونايدز؟

- كان روجر في لندن، في بوكس هاوس، وهو مركز شركة

التجهيز الغذائي. ثم عاد في وقت مبكر من المساء وأمضى بعض الوقت مع أبيه، وهذه عادته. أما أنا فكنت -كالعادة- في معهد لامبرت في شارع غورو حيث مكان عملي، ورجعت إلى البيت قبل السادسة.

- أرأيتِ حماك؟

- لا؛ كنت قد رأيته آخر مرة في اليوم الذي سبق وفاته وشربنا القهوة معه بعد العشاء.

- ألم تريه يوم وفاته؟

- لم أفعل. في الحقيقة ذهبت إلى جناحه من البيت لأن روجر ظنّ أنه ترك غليونه عند والده في غرفة نومه... غليون ثمين جداً، لكنني وجدته على الطاولة في الصالة هناك فلم أرغب في أن أزعج العجوز. كان غالباً ينام نوماً خفيفاً في نحو السادسة.

- متى بلغك نبأ مرضه؟

- جاءت بريندا مسرعة، وكان ذلك بعد السادسة والنصف بدقيقة أو اثنتين.

لم تكن هذه الأسئلة مهمة كما علمت، لكنني أدركت كيف يحرص المفتش تافيرنر على أن يمعن النظر في المرأة التي كانت تجيب عن أسئلته. سألها بعض الأسئلة عن طبيعة عملها في لندن فقالت إنه يتعلق بالتأثير الإشعاعي للتفجير النووي.

- إذن فأنت تعملين في حقل القنبلة الذرية، أليس كذلك؟

- عملي لا يمس القدرة التدميرية للقنبلة الذرية، فالمعهد ينفّذ تجارب في التأثير العلاجي.

وعندما نهض تافيرنر أبدى رغبته في رؤية جناحهما الخاص من البيت، ففوجئَت قليلاً لكنها أظهرت له استعدادها الكامل.

ذكّرتني غرفة النوم بسريرها المزدوج ذي الأغطية البيضاء بالمستشفى أو بصومعة دير من الأديرة، أما الحمام فكان بسيطاً لا ترى فيه أي أداة رفاهية ولا مواد تجميل، وكان المطبخ خالياً من الأثاث نظيفاً ومجهزاً تجهيزاً جيداً بأدوات من النوع العملي. ثم جئنا إلى باب فتحته كليمنسي قائلة: هذه غرفة زوجي الخاصة.

قال روجر: ادخلوا، تفضلوا.

أحسست بالطمأنينة. ها هو شيء من البساطة في مكان آخر من هذا البيت المائل الذي يثير في نفسي الكآبة.

كان في غرفته الشخصية مكتب كبير تبعثرت عليه الصحف والغليونات القديمة ورماد التبغ، وكانت فيه كراسي كبيرة عتيقة والسجاد العجمي يغطي البلاط، وعلى الجدران صور باهتة لجماعات مدرسية وجماعة الكريكيت والفصائل العسكرية ورسومات بالألوان المائية للصحراء والمنارات والقوارب والبحر وغروب الشمس... كانت غرفته صافية، غرفة رجل محب حنون وحلو المعشر.

كان إبريق الشاي على الطاولة أمام روجر، فراح يملأ لنا فنجانين منه بطريقة غير بارعة وهو يبعد الكتب والصحف عن أحد

الكراسي. قال: الغرفة فوضى... كنت أرتبها وأتخلص من الصحف القديمة.

قدّم لنا الشاي ثم تابع كلامه ملتفتاً إلى تافيرنر: أرجو أن تسامحني... لقد فقدت السيطرة على مشاعري.

ونظر حوله كأنه يشعر بالذنب، ولم تكن كليمنسي معنا في الغرفة، ثم تابع: إنها رائعة... أعني زوجتي. رغم كل الذي جرى فهي رائعة. لا تدري كم أنا معجب بها؛ فقد عاشت وقتاً عصيباً مخيفاً قبل أن نتزوج أحب أن أخبرك عنه. لقد كان زوجها الأول رجلاً عظيماً... أقصد أنه كان ذا عقل عظيم، لكن جسمه كان ضعيفاً من مرض السل، وكان ينجز بحثاً قيّماً في علم البلوريات، وكان راتبه قليلاً مع أنه كان متفوقاً في عمله لكنه لم يستسلم، وقد كدحَت من أجله فلم تجعله يعلم أنه كان يموت ولم تشتكِ بتاتاً ولم تتذمّر، وكانت تبدو دائماً سعيدة.

وتوقف عن الكلام قليلاً وكأنه يفكّر، ثم مضى قائلاً: ثم مات فحزنَت عليه كثيراً، وأخيراً رضيت بالزواج بي، وكنت سعيداً جداً لأنني كنت قادراً على أن أمنحها السعادة والراحة. وقد رجوتها أن تترك العمل لكنها عرفت -بالطبع- أن العمل في الحرب كان واجباً عليها، وما تزال تشعر أنها يجب أن تستمر في عملها. إنها زوجة رائعة... لقد كنت محظوظاً. كنت سأفعل كل شيء من أجلها.

أجابه تافيرنر جواباً مناسباً ثم عاد إلى أسئلته السابقة من جديد: متى بلغك أن أباك مريض؟

- أسرعت بريندا تناديني؛ قالت إن نوبة مرضية ما أصابت أبي. وقد كنت أجلس مع العجوز العزيز قبل ذلك بنصف ساعة فقط وكان في صحة تامة. أسرعت إليه وكان يلهث ووجهه أزرق، فنزلت مسرعاً إلى فيليب فاتصل بالطبيب. إنني... إننا لم نستطع أن نفعل شيئاً! لم أتخيل قطعاً ولا لحظة واحدة بأن في الأمر عملاً غريباً. غريب؟ هل قلت: غريب؟ يا إلهي، يا لها من كلمة استخدمتها!

وببعض الصعوبة خلصنا أنفسنا أنا وتافيرنر من الجو العاطفي لغرفة روجر ليونايدز، ووجدنا أنفسنا خارج الباب مرة أخرى عند أعلى الدرج.

قال تافيرنر: إنه مختلف تماماً عن أخيه. أشياء غريبة وغرف غريبة... هذا يخبرك كثيراً عمّن يعيشون فيها.

- أجل.

- وغريبون هؤلاء الناس، وزواجهما غريب أيضاً، أليس كذلك؟

لم أعلم أكان يقصد كليمنسي وروجر أم فيليب وماجدا؟ كانت كلماته تنطبق على الزواجين، لكن الزواجين كلاهما سعيد؛ كان زواج كليمنسي وروجر سعيداً حتماً.

ثم سألني: هل يمكن أن يكون مجرماً يضع السم؟ هل تقول عنه ذلك؟ لا أحسبه رجلاً خشناً. أما زوجته فالاحتمال لديها أكبر... إنها من صنف النساء عديمات الرحمة، وربما كان فيها مس من جنون!

- لكنني أظن أنها لن تقتل أحداً من الناس لمجرد أن هدفه وأسلوب حياته غير مرضيين بالنسبة لها. ربما كانت تكره العجوز حقاً، ولكن هل تُرتكب جريمة بسبب الكراهية الخالصة؟

- قليلاً جداً، وأنا لم أصادف حالة كهذه. لا، أظن أننا في حال أكثر أماناً لو اشتبهنا في السيدة بريندا، لكن أين الدليل؟

* * *

-٨-

فتحت الخادمة باب الجناح المقابل وأصابها الخوف حين رأت تافيرنر، وإن كانت مسحة من الازدراء ظاهرة عليها. قالت: لعلك تريد أن ترى السيدة؟

- نعم، من فضلك.

تقدمتنا إلى غرفة الجلوس الكبيرة وخرجت.

كان أثاثها يشبه ذلك الموجود في غرفة الاستقبال في الطابق الأرضي؛ قماش الكريتون ملوناً بألوان زاهية، وستائر حريرية مخططة، ولوحة فوق رف الموقد لفتت انتباهي... ليس بسبب اليد البارعة التي رسمتها فحسب، بل أيضاً بسبب الوجه الآسر لصاحب الصورة.

كانت رسماً لرجل ضئيل عيناه داكنتان خارقتان، وعلى رأسه قلنسوة من المخمل الأسود، وقد التصق رأسه بكتفيه. لقد كانت حيوية الرجل وقوته تشع من اللوحة، وبدا أن العينين اللامعتين أذهلتاني!

قال تافيرنر: هذا هو... رسمها أوغسطس جون. إن شخصيته قوية، أليس كذلك؟

- بلى.

وفهمت معنى قول إيديث دي هافيلاند إذ قالت إن البيت يبدو بدونه خالياً. ما أغرب هذا الرجل الصغير الذي بنى البيت المائل، فلما غاب فقد البيت المائل معناه!

قال تافيرنر: وتلك زوجته الأولى هناك... رسمها سارجنت.

أمعنت النظر في الصورة المعلَّقة على الحائط بين النافذتين؛ كان فيها وحشية ما مثل كثير من رسوم سارجنت، وقد رسم الوجه بشكل مبالَغ فيه فظهر كأنه وجه فرس. كانت رسمة لسيدة إنكليزية تقليدية من الريف لا من طبقة النبلاء، أنيقة لكنك لا تلمح فيها معنى الحياة... سيدة لم تكن تبتسم، بل كانت مستبدة قوية!

فُتح الباب ودخل الرقيب لامب قائلاً: لقد عملت اللازم يا سيدي؛ استجوبت الخدم جميعاً ولكني لم أحصل على أي شيء.

تنهد تافيرنر في حين أخرج الرقيب لامب دفتره من جيبه ورجع بعيداً ثم جلس. وفُتح الباب مرة أخرى ودخلت زوجة أريستايد ليونايدز الثانية.

كانت تلبس ثوباً أسود فاخراً ستر بدنها كله، وكان وجهها معتدل الجمال وشعرها بنياً جميلاً مصففاً بإتقان، وعلى صدرها عقد

لآلئ كبيرة، وكان في إحدى يديها خاتم من الزمرد وفي الأخرى خاتم كبير من الياقوت.

نظرت إلى وجهها المزين فعرفت أنها كانت تبكي ولاحظت أنها خائفة، وخاطبها تافيرنر بلطف: صباح الخير يا سيدة ليونايدز، أنا آسف لإزعاجك مرة أخرى.

قالت بصوت فاتر: يبدو أنك مضطر لذلك.

- إن كنت ترغبين في دعوة محاميك يا سيدتي فهذا يوافق النظام تماماً، أليس كذلك؟

تساءلت إن كانت قد فهمت مدلول هذه الكلمات؟ من الواضح أنها لم تفهم. عبست وقالت: لا أحب السيد جيتسكيل ولا أريده.

- يمكنك أن تحضري محامياً خاصاً لك يا سيدة ليونايدز.

- هل يجب عليّ ذلك؟ أنا لا أحب المحامين، إنهم مزعجون.

تبسم تافيرنر وقال: الأمر إليك. إذن فهل نواصل؟

أمسك الرقيب لامب بقلمه وجلست بريندا ليونايدز على أريكة في مواجهة تافيرنر وسألته: هل وجدتم شيئاً؟

لاحظتُ أن أصابعها كانت تعبث باضطراب بعقدة في ثوبها. وقال تافيرنر: إننا نجزم بأن زوجك قد مات متسمّماً بالإيسيرين.

- أتقصد أن قطرة العين تلك قد قتلته؟

- من المؤكد أن السيد ليونايدز قد تسمم حين حقن تلك الإبرة الأخيرة؛ لأن ما فيها كان إيسيريناً لا أنسولينا.

- لم أكن أعلم ذلك. لا علاقة لي بهذا الأمر يا حضرة المفتش... حقيقة، لم تكن لي به أي علاقة.

- إذن فلا بد أن أحداً قد غيّر الأنسولين عمداً وعبّأ الزجاجة بالقطرة؟

- يا له من عمل شرير! هل تظن أن أحداً قد فعلها عمداً أم أنه قد أخطأ؟ لا ينبغي المزاح هنا، أليس كذلك؟

- لا أظن أنها كانت مزاحاً يا سيدتي.

- لعله أحد الخدم.

لم يرد تافيرنر عليها.

- لا بد... لا أرى شخصاً آخر يمكن أن يفعل ذلك.

- هل أنت متأكدة؟ فكري يا سيدة ليونايدز، أليست عندك فكرة تفسر ما حدث؟ ألم يكن في البيت مشاعر غير ودية؟ مشاجرات؟ أحقاد؟

حدقت إليه بعينين واسعتين جريئتين، ثم قالت: ليست عندي أية فكرة.

- هل قلتِ إنك كنت في السينما ذلك المساء؟

- نعم، وعدت في الساعة السادسة والنصف... وقت إبرة

الأنسولين، فحقنته... حقنته الإبرة بهدوء... وبعد ذلك أصابته حالة غريبة، فأحسست بالذعر وأسرعت إلى روجر.

وعلا صوتها وجعلت تتكلم وكأنها مصابة بالهستيريا: لقد قلت لك كل هذا من قبل... هل عليّ أن أعيد كل شيء مرة تلو الأخرى؟

- أنا آسف يا سيدتي. والآن، هل أستطيع أن أكلم السيد براون؟

- لورانس؟ لماذا؟ إنه لا يعرف شيئاً في هذا الشان.

- لكني أريد أن أكلمه.

حدّقَتْ إليه بارتياب وقالت: إنه يدرّس يوستيس اللغة اللاتينية في غرفة الدرس. أتريده أن يأتي هنا؟

- لا، سوف نذهب إليه.

خرج تافيرنر من الغرفة سريعاً وتبعته أنا والرقيب، قال الرقيب لامب: لقد أرعبتها يا سيدي.

وصعدنا بضع درجات ثم سرنا في ممر ودخلنا غرفة كبيرة تشرف على الحديقة وفيها طاولة، وقد جلس وراء الطاولة شاب أشقر الشعر وسيم في نحو الثلاثين من عمره وفتى أسمر في السادسة عشرة.

دخلنا عليهما فرفعا بصرهما إلينا. يوستيس، أخو صوفيا،

نظر إليّ، ونظر لورانس براون إلى رئيس المفتشين نظرة خوف. لم أرَ في حياتي رجلاً مشلولاً تماماً من الخوف مثله! وقف ثم جلس مرة أخرى، ثم قال بصوت كأنه صرير: آه! صباح الخير يا حضرة المفتش.

كان تافيرنر فظاً: صباح الخير. هل أستطيع التحدث إليك؟

- نعم، بالطبع، يسرني ذلك.

نهض يوستيس وقال بمرح: هل أمضي أنا يا حضرة المفتش؟

قال المعلم: سوف... سوف نواصل دروسنا فيما بعد.

خرج يوستيس مختالاً، وعندما وصل الباب وقعت عينه عليّ فتبسم ثم أغلق الباب وراءه.

قال تافيرنر: حسناً يا سيد براون، إن بيان المختبر جازم تماماً... الإيسيرين هو ما قتل السيد ليونايدز.

- إنني... هل تقصد... أن السيد ليونايدز قد تسمم؟ كنت آمل...

قال المفتش بغلظة: لقد سُمِّم. شخصٌ ما استبدل بالأنسولين قطرة الإيسيرين اللعين.

- لا أصدق... لا أصدق!

- مَن الذي أقدم على فعل ذلك؟

صرخ الشاب: لا أحد... لا أحد أبداً.

- هل تريد حضور محاميك؟

- ليس لي محامٍ. أنا لا أريد محامياً... لا شيء عندي أخفيه، لا شيء.

- ألا تعلم أن أقوالك تدوَّن؟

- أنا بريء... أقسم أنني بريء.

- لم أقل إنك مجرم.

سكت تافيرنر قليلاً ثم أضاف قائلاً: كانت السيدة ليونايدز أصغر من زوجها بستة عقود، أليس كذلك؟

- أظن ذلك، أقصد... بلى، هذا صحيح.

- لا بد أنها كانت تضجر من الوحدة أحياناً؟

ظل لورانس صامتاً ولم يجبه، فقط مرر لسانه على شفتيه الجافتين.

- إن وجود رفيق لها أصغر منها أو أكبر قليلاً يعيش هنا كان أمراً مناسباً، أليس كذلك؟

- إنني... لا، إطلاقاً. أقصد... لا أدري.

- يبدو لي أنه من الطبيعي أن تنشأ بينكما علاقة.

احتجّ الشاب بعنف: كلا، لم يكن؛ لا شيء من ذلك. أعرف

ما تفكر به، ولكنك واهم. كانت السيدة بريندا كريمة جداً معي وكنت أكِنّ احتراماً عظيماً لها، لا شيء أكثر من هذا. أؤكد لك ذلك... إنه أمر بشع أن تقول هذا، بشع! أنا لم أقتل أحداً ولم أعبث بالزجاجات... إن مجرد فكرة القتل عندي كابوس رهيب، ولو دخلت المحكمة فسوف يتفهمون أن لديّ دوافع دينية تمنعني من أن أقترف القتل. لقد كنت أشتغل في المستشفيات، وكنت قبلها أذكي النار في مراجل القطارات، وهو عمل شاق لم أحتمله فأذِنَ الجيش لي بالتعليم. لقد بذلت ما بوسعي من أجل يوستيس وجوزفين الطفلة الذكية والصعبة، وكان كل واحد لطيفاً معي إلى أبعد حد... السيد ليونايدز وزوجته والآنسة دي هافيلاند. والآن يقع هذا الأمر الرهيب وأنت تشك فيّ... فيّ أنا... أنني قتلته؟!

حملق المفتش تافيرنر إليه باهتمام وقال: أنا لم أقل هذا.

- لكنك تفكر به... أعلمُ أنك تفكر به... وهم جميعاً يفكرون به. إنهم ينظرون إليّ. إنني... إنني لا أستطيع مواصلة حديثي معك. أنا متعب ومتوتر الأعصاب.

وانطلق خارجاً من الغرفة، فالتفت تافيرنر إليّ وقال: حسناً، ماذا ترى فيه؟

- لقد خاف كثيراً.

- نعم، أعرف، لكن هل هو قاتل؟

قال الرقيب لامب: أتدري يا سيدي؟ أنا أراه جباناً لا يجرؤ على ذلك أبداً.

وافقه رئيس المفتشين: إنه لن يضرب أحداً على رأسه ولن يطلق رصاصة من مسدس، لكن ما عساه أن يفعل في هذه الجريمة السهلة؟ يعبث بزجاجتين فحسب؛ يعين رجلاً عجوزاً على الخلاص من هذه الدنيا بطريقة غير مؤلمة نسبياً.

- القتل الرحيم يا سيدي؟

- ثم بعد ذلك، ربما بعد زمن... يتم الزواج بامرأة ترث مئة ألف جنيه معفاة من الضريبة ولديها مئة ألف أخرى وكومة كبيرة من الياقوت والزمرد... لكن هذا كله ظنون وتخمين. لقد نجحت في إرهابه، ولكن هذا لا يثبت أي شيء لأنه كان سيخاف حتى لو كان بريئاً. وعلى أية حال فأنا لا أجزم أنه فعل ذلك... إنني أرى أن امرأة هي التي فعلتها، ولكن لماذا لم ترمِ قنينة الأنسولين بعيداً أو تغسلها؟

والتفت إلى الرقيب يخاطبه: ألا يوجد دليل من الخدم؟

- الخادمة زعمت أنهما كانا متحابّين.

- وماذا جعلها تزعم هذا؟

- نظراته إليها وهي تصب له القهوة.

- هذا أمر لا تستند إليه محكمة، ألا توجد أحداث واقعية؟

- لم يلحظ أحد شيئاً من ذلك.

- لو كان بينهما شيء لرآه الخدم. أتدري؟ لقد بدأت أعتقد أن لا شيء بينهما.

ونظر تافيرنر إليّ ثم قال: ارجع إليها وتحدث معها، أريد أن أعرف انطباعك عنها.

فذهبت وأنا شبه كاره، رغم أنني كنت متشوّقاً لذلك.

* * *

-٩-

وجدت بريندا ليونايدز تجلس حيث تركناها، ولدى دخولي رفعت بصرها بحدة وسألت: أين المفتش تافيرنر؟ هل سيعود؟

- لا؛ ليس الآن.

- مَن أنت؟

أخيراً سمعت السؤال الذي كنت أتوقعه طوال الصباح، وأجبتها بصراحة: أنا مرتبط بالشرطة، لكنني صديق للعائلة أيضاً.

- العائلة؟ إنني أكرههم جميعاً.

نظرت إليّ وبدت عابسة وخائفة وغاضبة. ومضت قائلة: كانوا دائماً يعاملونني بحقارة... منذ البداية. سألوا: لماذا تزوجت أباهم العزيز؟ وماذا يهمهم من ذلك؟ لقد أعطاهم المال... ولم تكن لديهم عقول لكي يجمعوا المال بأيديهم.

ونظرت إليّ بجرأة ثم سألتني: لماذا لا يتزوج الرجل ثانية حتى لو كان كبيراً؟ إنه لم يكن طاعناً في السن، وقد أحببته كثيراً.

- فهمت، فهمت.

- لعلك لا تصدقني، لكنها الحقيقة. كنت أرجو بيتاً وعائلة ورجلاً يحنو علي ويقول لي قولاً جميلاً، وأريستايد كان يؤنسني، كان مرحاً وذكياً وكان يبتدع كل أسلوب حتى يجتنب كل هذه القوانين السخيفة! لقد فجعت بموته.

أسندت ظهرها إلى الأريكة وابتسمت بسمة غريبة تدل على البلادة: كنت هنا سعيدة وآمنة، وأريستايد أعطاني أشياء جميلة...

ومدّت يدها وهي تنظر إلى الياقوت فيها، ثم قالت وهي ما زالت تبتسم: وكنت طيبة معه في المقابل. ما العيب في ذلك؟ لقد كنت لطيفة معه وجعلته سعيداً.

ثم مالت إلى الأمام قائلة: هل تعلم كيف التقينا؟

ولم تنتظر جوابي، بل مضت قائلة: كان لقاؤنا في مطعم شامروك. طلب بيضاً مقلياً على خبز توست، وعندما أحضرته له كنت أبكي. قال لي: "اجلسي وأخبريني، ما الذي يحزنك؟". فقلت له: "لا أستطيع محادثتك لأنهم سيفصلونني من العمل لو فعلت" فقال: "لا؛ لن يفصلك أحد فأنا صاحب هذا المكان".

نظرت إليه وفكّرت؛ إن الذي أمامي عجوز ضئيل الحجم غريب، لكن له شخصية جذابة. وقصصت عليه الأمر كله... وأظنك ستسمع التفصيلات منهم ليقولوا لك إنني سيئة، لكني لم أكن كذلك. لقد تربيت تربية حسنة وكان لنا دكان رائع فيه أشغال ومطرزات... لم أكن يوماً من الفتيات اللاتي يتخذن أصحاباً من الشبان أو يبعن

أنفسهن... لكن تيري كان مختلفاً، أيرلندي يسافر إلى ما وراء البحار، ولم يكن يكاتبني أبداً، كم كنت حمقاء!

وهكذا كان، وقعت في مشكلة تماماً مثلما يصيب خادمة بائسة! لكن أريستايد كان رائعاً؛ وعدني بأن أكون آمنة وقال إنه وحيد وإننا نستطيع أن نتزوج فوراً. وكان ذلك عندي كالحلم.

ثم عرفت أنه السيد ليونايدز العظيم الذي يمتلك أعداداً ضخمة من المحلات والمطاعم. كان ذلك مثل القصة الخيالية، أليس كذلك؟

قلت بتحفظ: نوع من القصص الخيالية.

- تزوجنا في كنيسة صغيرة في المدينة ثم سافرنا إلى الخارج. وعاهدتُ نفسي أن أكون زوجة صالحة، كنت أطلب له كل أصناف الطعام التي يشتهيها وألبس له الملابس التي يحبها وأسعى دوماً إلى رضاه. وكان هو سعيداً... لكننا لم ننجُ من عائلته. كانوا يأتون إليه فيعطيهم. العجوز دي هافيلاند كان يجب أن ترحل عندما تزوج، وأنا قلت هذا لكن أريستايد قال: "إنها تعيش هنا منذ زمن طويل، البيت بيتها الآن". كان زوجي يحبّ أن يكونوا حوله جميعاً، ورغم أنهم كانوا يسيئون إليّ فلم يكن يلحظ ذلك أو يهتم به. إن روجر يكرهني... هل رأيت روجر؟ كان دائماً يكرهني... إنه غيور. وفيليب كان متعجرفاً جداً ولم يكلمني البتة. والآن يزعمون أنني قتلته وأنا لم أفعل... لم أفعل! أرجوك صدقني، أنا لم أفعل.

أثارت شفقتي؛ في تلك اللحظة بدا ازدراؤهم لها وتمنيهم أن

تلصق بها الجريمة سلوكاً غير إنساني حتماً. كانت وحدها دون مدافع ولا حول لها ولا قوة.

قالت: وإن لم يكن القاتل أنا فهم يظنون أنه لورانس.

- وماذا عن لورانس؟

- أنا آسفة كثيراً لأجله. إنه رجل لطيف لا يستطيع أن يقاتل... ليس جباناً لكنه رقيق المشاعر. وقد اجتهدت أن أساعده وأجعله يشعر بالسعادة. عليه أن يعلّم هؤلاء الأطفال الفظيعين... بوستيس يهزأ به كثيراً، وجوزفين... هل رأيت جوزفين؟ لو رأيتها فستعرف حقيقتها.

- لم أرَ جوزفين بعد.

- أحياناً يكون عقلها غير طفولي. إن لها طرقاً حقيرة جداً، وهي تبدو غريبة الأطوار... إنها ترعبني أحياناً.

لم أكن أريد الحديث عن جوزفين فرجعت إلى موضوع لورانس براون وسألتها: من هو ومن أين جاء؟

قالت بخجل: إنه ليس شخصاً محدداً، إنه مثلي تماماً... أي حظ هذا الذي جعلهم يعادوننا؟

- ألا ترين أنك أصبحت في حالة هستيرية بعض الشيء؟

- لا أعتقد. هم يريدون أن يعلنوا أن الفاعل هو أنا أو لورانس، وقد كسبوا ذلك الشرطي إلى صفهم، فأية فرصة لي إذن؟

- اهدئي، إنك تثيرين نفسك كثيراً.

- لمَ لا يكون الفاعل واحداً منهم؟ أو يكون القاتل شخصاً من الخارج أو خادماً من الخدم؟

- ولكن أين الدافع؟

- آه! دافع؟ وأي دافع لديّ أو لدى لورانس؟

شعرت بعدم الارتياح وأنا أقول: أظنهم يعتقدون أنك أنت و... لورانس... تحبان بعضكما بعضاً وأنكما تريدان الزواج.

قفزت كالسهم وهي تقول: هذا قول فظيع! ليس صحيحاً! كنت فقط أشعر بالأسف لأجله وحاولت أن أساعده فحسب، هذا كل ما في الأمر. أنت تصدقني، أليس كذلك؟

أكدت لها أنني أصدقها حقاً، لكني كنت أشك أنها كانت تحبه فعلاً.

بعد ذلك نزلت إلى الطابق السفلي لأرى صوفيا وفي رأسي تلك الفكرة. وبينما أنا على وشك دخول غرفة الاستقبال أطلت صوفيا برأسها من أحد الأبواب في الممر وقالت: مرحباً، أنا أساعد ناني في إعداد الغداء.

كنت سأنضمّ إليها لكنها خرجت إلى الممر وأغلقت الباب وراءها وقادتني إلى غرفة الاستقبال وهي تمسك بذراعي، وكانت الغرفة خالية فقالت: هل رأيت بريندا؟ ما قولك فيها؟

- بصراحة؟ أنا مشفق عليها.

ضحكت صوفيا وقالت: فهمت؛ لقد كسبتك في صفها!

أحسست بالانفعال قليلاً وقلت: في الواقع أرى الأمر من جانبها، ومن الواضح أنك لا تستطيعين رؤية ذلك.

- ماذا عن جانبها؟

- قولي بأمانة يا صوفيا: هل كان أحد من العائلة لطيفاً معها أو يعاملها بالعدل منذ جاءت إلى هنا؟

- لا؛ لم نكن لطفاء معها. ولماذا نكون كذلك؟

- إن لم يكن من أجل شيء فمن أجل الوازع الأخلاقي.

- أنت تتحدث عن الأخلاق يا تشارلز؟ لا بد أن بريندا قد أحسنت دورها جيداً.

- ماذا أصابك يا صوفيا؟

- هذا هو الصحيح. لقد سمعتَ بريندا، والآن فلتسمعني: أنا أبغضُ المرأة الشابة التي تخترع قصة حظها العاثر وتتزوج عجوزاً ثرياً اعتماداً على هذه القصة. لا أحب هذا الصنف من النساء ولا أتظاهر بأنني أحبه بتاتاً، ولو قرأت أنت الحقائق مجردة في ورقة مكتوبة لما أحببت هذا الصنف أيضاً.

- وهل كانت قصة مخترَعة؟

- ربما، هذا ما أعتقده أنا على الأقل.

- وهل ساءك أن جدك قد انخدع بهذه الحقيقة؟

ضحكت صوفيا وقالت: جدي لم يكن مخدوعاً، لا أحد يستطيع خداع جدي العجوز! كان يريد بريندا، وأراد أن يظهر في دور المنقذ لهذه الخادمة المتسولة وهو يعلم تماماً ما يفعله... وقد تحقق ذلك على نحو جميل وفق خطة ما. إن الزواج -بالنسبة لجدي- قد نجح نجاحاً كاملاً مثل سائر أعماله الأخرى!

سألتها ساخراً: وهل كان توظيف لورانس براون معلّماً نجاحاً آخر من نجاحات جدك؟

قطبت صوفيا جبينها وقالت: لست متأكدة... لعله كذلك. أراد جدي أن يسعد بريندا ويسليها، ربما كان يظن أن الجواهر والثياب لم تكف، ولعله قدّر أن شاباً مثل لورانس براون (وهو رجل مروَّض في الحقيقة) سيقوم بعمل هذه الحيلة... الصداقة الجميلة المفعمة بالعاطفة المشوبة بالاكتئاب ستمنع بريندا من عشق رجل غريب. أظن أن جدي قد حقق شيئاً بهذا الفتى؛ لقد كان عجوزاً شيطاناً! لكنه لم يستطع التنبؤ بأن ذلك سيقتله!

ثم صار صوتها عنيفاً وهي تقول: لكنني -في الحقيقة- أستبعد أنها فعلت ذلك، فلو كانت قد خططت لقتله أو اتفقت مع لورانس لعرف جدي ذلك وكشفه. وأنت أيضاً تستبعده، أليس كذلك؟

- بلى، أعترف بذلك.

- أنت لم تعرف جدي حقاً؛ لم يكن ليتغاضى عن مسألة قتله.

- بريندا خائفة يا صوفيا، خائفة جداً.

- من رئيس المفتشين تافيرنر ورجاله العفاريت؟ نعم؛ إنهم مرعبون. ألا ترى لورانس في حالة هستيرية؟

- أمر طبيعي، لقد تصرف أمامنا بشكل سخيف. أتساءل ما الذي يعجب هذه المرأة فيه؟

- ألا تفهم يا تشارلز؟ إن لورانس -في الحقيقة- جذّاب.

قلت غير مصدّق: رجل ضعيف كهذا؟!

- عجباً للرجال! لماذا تظنون أن رجل الكهف وحده هو الذي يجذب النساء ليس غير؟ حسناً، أرى أن بريندا قد اصطادتك لا شك.

- لا تكوني سخيفة، إنها ليست جميلة.

- بريندا ليست جميلة ولا هي ذات ذكاء حقيقي، لكنها تتمتع بصفة واحدة هي القدرة على توليد المشكلات! وها هي قد ولّدت مشكلة بيني وبينك.

- صوفيا!

انصرفت صوفيا إلى الباب: انسَ الأمر يا تشارلز، لا بد أن أتم إعداد الغداء.

- سأذهب معك لأساعدك.

- لا، ابق هنا؛ إن وجود رجل في المطبخ سوف يزعج ناني.

وخرجت فناديت: صوفيا!

- ماذا؟

- أسألك عن الخدم: لماذا ينقص الطابق الأرضي هنا خادمة والطابق العلوي فيه خادمة تلبس المريلة وتفتح لنا الباب؟

- كان عند جدي طاهية ومدبرة منزل وخادمة استقبال وخادم. كان يحب الخدم ويعطي كثيراً لكي يجلبهم، أما كليمنسي وروجر فعندهما خادمة في النهار فقط لأعمال التنظيف فهما لا يحبان الخدم، أو أن كليمنسي لا تحبهم... ولو لم يكن روجر يأكل وجبة مشبعة في المدينة كل يوم لمات من الجوع لأن كليمنسي لا تعرف من الطعام إلا الخس والبندورة والجزر. أما نحن فأحياناً يكون عندنا خدم ثم تصيب أمي إحدى نوباتها العصبية فيتركون المنزل، وعندنا خدم يعملون في النهار فترات قصيرة ثم يذهبون. ناني هي الدائمة عندنا وهي تنسجم مع حالات الطوارئ... والآن ها قد عرفت كل شيء.

خرجت صوفيا، وجلست على مقعد أفكر: في الطابق العلوي رأيتُ جانب بريندا من المسألة، وهنا -في الطابق الأرضي- رأيت جانب صوفيا منها، فأدركت عدالة قول صوفيا (وهو ما أسميه نظرة أسرة ليونايدز) بأنهم يكرهون الغريبة التي دخلت البيت بوسيلة

خسيسة. كانوا على حق تماماً، فكما قالت صوفيا: «على الورق لا تبدو وجهة نظر حسنة».

لكن فيها الجانب الإنساني، الجانب الذي رأيته أنا ولم يروه؛ فقد كانوا أغنياء يعيشون في برج عاجي لم يذوقوا غصة المعاناة... بريندا كانت تريد الثروة والأمان، وقد زعمت أنها جعلت زوجها العجوز سعيداً بالمقابل. لقد تعاطفتُ معها وأنا أستمع إليها فهل أتعاطف معها الآن كذلك؟

للقضية جوانب وأبعاد مختلفة فأيها هو الصحيح؟

كنت قد نمت نوماً قليلاً جداً ليلة أمس لأنني استيقظت مبكراً لأرافق تافيرنر. والآن، في هذا الجو الدافئ الذي تعبق فيه رائحة الزهور في غرفة استقبال ماجدا ليونايدز، استرخى جسدي فوق المقعد الكبير وسقطت جفوني، وتبددت أفكاري وأنا أفكر في بريندا وصوفيا وصورة الرجل العجوز... ثم نمت.

* * *

-١٠-

أفقت تدريجياً فلم أدرك -في البداية- أنني كنت نائماً.

كان شذى الأزهار في أنفي ورأيت نقطة بيضاء تطير في الفضاء، ثم أدركت -بعد بضع ثوان- أنني كنت أنظر إلى وجه بشر؛ وجه معلق في الهواء على بعد قدم أو قدمين مني. وبعد أن استعدت إدراكي أصبحت رؤيتي أكثر دقة، لكن بقي الوجه يوحي بأنه وجه عفريت: وجه مدور فيه حاجبان منتفخان وشعر مرتد إلى الوراء وعينان سوداوان صغيرتان كأنهما خرزتان، لكنه كان حتماً وجه إنسان صغير نحيل... كانت فتاة تنظر إليّ نظرات حادة.

قالت: مرحباً.

أجبتها وعيناي تطرفان: مرحباً.

- أنا جوزفين.

كنت قد استنتجت ذلك أصلاً. كنت أعلم أن جوزفين أخت صوفيا في الحادية عشرة أو في الثانية عشرة من عمرها، وكانت طفلة قبيحة مع شبه واضح بجدها، ولعل فيها عقلاً مثل عقله أيضاً.

قالت جوزفين: أأنت رجل صوفيا؟

أقررت، فقالت: لكنك جئت هنا مع رئيس المفتشين تافيرنر، لماذا جئت معه؟

- إنه صديقي.

- حقاً؟ أنا لا أحبه ولن أقول له شيئاً.

- وما الأشياء التي لن تقوليها له؟

- الأشياء التي أعرفها. إنني أعرف أشياء كثيرة، فأنا أحب كثرة السؤال.

جلسَت على ذراع الكرسي وأمعنَت النظر في وجهي فتضايقت منها.

قالت: جدي قُتل، هل عرفت؟

- نعم، عرفت.

- لقد تسمم بالإي.. سير.. ين (نطقت تلك الكلمة بحذر شديد). ألا يثير ذلك الاهتمام؟

- بلى.

- أنا ويوستيس مهتمان كثيراً. إننا نحب القصص البوليسية، وقد تمنيت دائماً أن أكون فتاة تحر، والآن أنا أتحرى وأجمع الأدلة.

أحسست أنها بشعة كالغول، وعادت إلى الموضوع: وهل

صاحب رئيس المفتشين الذي جاء معه محقق أيضاً؟ تدل الروايات على أنك تستطيع كشف المحققين الذين يلبسون ثيابهم المدنية من أحذيتهم، لكن هذا المحقق يلبس حذاء سويدياً من القماش!

- لقد تغير الأمر القديم.

- نعم، فقد جدّت أشياء كثيرة الآن. سنذهب ونعيش في بيت في لندن عند الجسر. أمي كانت تريد ذلك منذ زمن... ستكون فرحة جداً، وأبي لن يمانع أن نحمل كتبه أيضاً. لم يكن يطيق ذلك من قبل، وكم خسر من المال من أجل جيزبيل!

- جيزبيل؟

- نعم، ألم ترها؟

- هل كانت مسرحية؟ لم أرها؛ لقد كنت مسافراً.

- إنها لم تعرض طويلاً، والحقيقة أنها عمل فاشل. أنا لا أرى أن أمي من الصنف الذي يناسب دور جيزبيل، أليس كذلك؟

فكرت في ماجدا: لا تناسبها شخصية جيزبيل، لا في الثوب القرنفلي ولا في بدلتها... لكنّ لماجدا صوراً أخرى لم أرها بعد.

قلت بحذر: ربما.

- جدي كان يقول دائماً إنها ستفشل في دور جيزبيل. قال إنه لن يدفع جنيهاً من أجل تمويل واحدة من هذه المسرحيات التاريخية القديمة... لقد تشاءم بها جميعاً، لكن أمي كانت متحمسة للمسرحية.

أما أنا فلم أحب المسرحية كثيراً... لم تكن مثل القصة التاريخية الأصلية، فجيزبيل لم تكن شريرة بل امرأة وطنية ولطيفة جداً، وهذا ما جعلها تبعث على السأم. لكن كان لا بأس في نهايتها؛ فقد ألقوها من النافذة... لكن الكلاب لم تنهشها! أظن أن ذلك مؤسف، أليس كذلك؟ كنت أحب أن أرى الكلاب وهي تأكلها، لكن أمي قالت إن سوق الكلاب إلى المسرح مستحيل... لكني لا أفهم لماذا؛ فأنت تستطيع أن تجعل الكلب يؤدّي دوراً ما...

ثم ردّدَت العبارة المقتبسة: «وقد أكلتها كلها سوى راحتيها»... لماذا لم تأكل الكلاب راحتيها؟

- لا أدري.

لعل الكلاب كانت مروَّضة؟ إن كلابنا ليست كذلك، وهي تأكل كل شيء.

فكرت جوزفين في هذا اللغز التاريخي بضع لحظات، وقلت لها: أنا آسف لأن المسرحية فشلت.

- نعم، كانت أمي مكتئبة؛ فالتعليقات كانت مخيفة وعندما قرأتها انفجرت بالبكاء. كانت تبكي طوال اليوم وألقت بطبق الإفطار على غليدز.

- أرى أنك تحبين الدراما يا جوزفين؟

- لقد شرّح الأطباء جثة جدي ليعلموا سبب موته.

- أأنت آسفة على موته؟

- ربما، ولكني لم أكن أحبه كثيراً لأنه منعني من تعلم رقص الباليه.

- هل كنت تريدين تعلم رقص الباليه؟

- نعم، وكانت أمي ترغب في أن أتعلمه ووالدي لم يمانع... لكن جدي زعم أن هذا لن ينفعني.

ثم سألتني بطريقة عارضة: هل تحب هذا البيت؟

- ربما، لست متأكداً تماماً.

- أظن أنه سوف يباع... إلا إذا قررت بريندا أن تمكث فيه، وأظن أن العم روجر وكليمنسي لن يرحلا الآن.

سألتها باهتمام كبير: أوَكانا سيرحلان؟

- نعم، كانا سيرحلان يوم الثلاثاء بالطائرة إلى مكان ما، وقد اشترت كليمنسي حقيبة خفيفة جديدة.

- لم أسمع أنهما كانا سيرحلان.

- نعم، فلا أحد كان يعرف وهما لم يخبرا أحداً بذلك. كانا ينويان أن يتركا رسالة لجدي من ورائهما... لم يكن سفرهما أكيداً. كان ذلك بالأسلوب الذي كانت الزوجات يفعلنه حين يتركن أزواجهن في الروايات القديمة، لكنه فعل سخيف في هذه الأيام.

- بالطبع. جوزفين، هل تعلمين لماذا كان عمك سيرحل؟

نظرَت إلي نظرة ماكرة من طرف عينها: أظنني أعلم... ربما من أجل شيء ذي علاقة بمكتب العم روجر في لندن، لعله اختلس شيئاً.

- ولماذا تظنين ذلك؟

اقتربت جوزفين مني أكثر وهمست في أذني: يوم تسمم جدي كان عمي روجر مع جدي في غرفته وأغلقا الباب فترة طويلة. كانا يتحدثان ويتحدثان، وقال عمي روجر إنه لم يعد يصلح للعمل وإنه سيتخلى عن جدي... ليس بسبب المال، لكن بسبب إحساسه بأنه غير جدير بالثقة... لقد كان في حالة سيئة.

- جوزفين، ألم يقل لك أحد أبداً أنه ليس جميلاً أن تتنصتي من وراء الأبواب؟

هزت جوزفين رأسها بقوة: لقد قالوا لي طبعاً... لكنك إذا أردت أن تكتشف شيئاً فعليك أن تتنصت وراء الباب. أنا واثقة من أن رئيس المفتشين تافيرنر يفعل مثلي، أليس كذلك؟

فكرت في هذه الكلمة وأردفت جوزفين: وعلى أية حال فإن كان تافيرنر لا يفعل ذلك فإن الرجل الآخر يفعله، ذلك الرجل الذي يلبس الحذاء السويدي... كما أنهم يفتشون أدراج الناس ويقرؤون رسائلهم جميعاً ويفضحون أسرارهم كلها... إنهم أغبياء لا يعرفون كيف يفتشون.

كانت جوزفين تتكلم بتفاخر، وكم كنت أحمق لأنني لم أدرك ما وراء ذلك! وجعلت الطفلة البغيضة تتكلم من جديد: أنا ويوستيس نعرف كثيراً من الأمور، وأنا أعرف أكثر منه ولكني لن أخبره به... إنه يزعم أن الفتيات لا يستطعن أن يتفوقن في أعمال التحري، لكني أقول إنهن يستطعن. سوف أدوّن كل شيء في دفتري، ثم... عندما يتحير الشرطة تماماً أتقدم إليهم فأقول لهم: "أنا أعلم مَن فعل ذلك".

- هل تقرئين قصصاً بوليسية كثيرة يا جوزفين؟

- كثيراً جداً.

- وأنت تعتقدين أنك تعرفين قاتل جدك؟

- نعم، لكن عليّ أن أكشف بعض الأدلة الأخرى.

وسكتت قليلاً ثم سألت: هل يظن رئيس المفتشين تافيرنر أن بريندا هي التي ارتكبت الجريمة أم أنها هي ولورانس ارتكباها معاً لأنهما متحابّان؟

- لا يجدر أن تقولي أشياء كهذه يا جوزفين.

- لمَ لا؟ إنهما يحبان بعضهما بعضاً.

- أنت لا تعلمين، فلا تحكمي عليها.

- إنهما يتبادلان رسائل الحب.

- جوزفين! كيف عرفت ذلك؟

- لأنني قرأتها... رسائل عاطفية. لورانس رجل عاطفي، وقد

كان خائفاً من القتال في الحرب فذهب إلى السراديب ليختبئ. كان يعمل في إيقاد النار في السفن، وحين كانت القنابل تسقط قريباً من هنا كان وجهه يشحب فأضحك منه كثيراً عندئذ... أنا ويوستيس.

لم أعرف ماذا أقول بعدها، وفي تلك اللحظة توقفت سيارة في الساحة فانطلقت جوزفين سريعاً إلى النافذة وألصقت أنفها الأفطس بزجاجها. سألتها: مَن هذا؟

- إنه السيد جيتسكيل، محامي جدي. أظن أنه جاء ليناقش الوصية.

وأسرعت إلى خارج الغرفة وهي منفعلة لكي تكمل أعمال التحري التي تنجزها.

ثم جاءت ماجدا ليونايدز إلى الغرفة، ولشدة دهشتي اقتربت مني وقالت: يا عزيزي، أشكر الله أنك ما تزال هنا.

ثم ذهبت إلى كرسي ذي ظهر عال وزحزحته قليلاً عن مكانه ونظرت إلى نفسها في المرآة، ثم رفعت علبة مزخرفة على طاولة ووقفت حزينة تفتحها وتغلقها. في تلك اللحظة أدخلت صوفيا رأسها من الباب وقالت همساً تذكّر ماجدا: جيتسكيل.

- أعرف.

دخلت صوفيا الغرفة بعد بضع لحظات يتبعها رجل عجوز ضئيل الحجم، ووضعت ماجدا علبتها المزخرفة وجاءت لمقابلته.

- صباح الخير يا سيدة فيليب. أنا ذاهب إلى الأعلى، فالظاهر

أنه يوجد سوء فهم بخصوص الوصية. لقد كتب زوجك إليّ موحياً أن الوصية عندي، في حين كنت قد فهمت من السيد ليونايدز نفسه أن الوصية كانت في حوزته. لا أظنكم تعلمون شيئاً عنها، أليس كذلك؟

فتحت ماجدا عينيها بذهول: في شأن وصية الرجل المسكين؟ نعم، نحن لا نعرف قطعاً. لا تقل لي إن تلك المرأة الشريرة في الطابق العلوي قد أتلفتها.

هز المحامي إصبعه موبخاً: لا حاجة للظن السيئ يا سيدة فيليب، بل هو سؤال عن مكان الوصية.

- لكنه أرسلها إليك... أجل، أرسلها إليك حتماً بعد أن وقعها، هو أخبرنا بذلك!

- أعتقد أن الشرطة قد قلبوا أوراق أريستايد الخاصة، سوف أتناقش مع رئيس المفتشين تافيرنر في هذا.

وغادر الغرفة، فصرخت ماجدا تخاطب صوفيا: لقد مزقتها يا حبيبتي... أنا على حق.

- هذا هراء يا أمي، إنها لم تكن لتفعل شيئاً غبياً كهذا.

- إنه ليس غبياً أبداً... إذا لم تكن ثمة وصية فسوف ترث كل شيء!

- صه، ها هو جيتسكيل قد عاد مرة أخرى.

دخل المحامي الغرفة ثانية، وجاء معه رئيس المفتشين يتبعه

فيليب، وقال جيتسكيل: لقد فهمت من السيد ليونايدز أنه وضع وصيته في المصرف لتكون في مأمن هناك.

هزّ تافيرنر رأسه نافياً: لقد اتصلت بالمصرف فعلمت أنه ليس عندهم أي أوراق تخص السيد ليونايدز ما عدا بعض السندات المالية.

قال فيليب: أتساءل إن كان روجر... أو خالتي إيديث، وربما صوفيا... هل تستطيع دعوتهم ليأتوا هنا؟

لم يكن روجر ذا فائدة حين دُعي إلى الاجتماع. قال: هذا هراء... هراء بلا شك. والدي وقّع الوصية وأعلن أنه سوف يرسلها بالبريد إلى السيد جيتسكيل في اليوم التالي.

قال السيد جيتسكيل وهو يستند إلى الكرسي مغمضاً عينيه نصف إغماض: إن لم تخنّي ذاكرتي فقد أرسلت إلى السيد ليونايدز مسوَّدة وصية في الرابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) من العام الماضي صغتها حسب إرشاداته، وقد وافق على المسوّدة وأعادها إليّ، ثم أرسلت إليه بعد ذلك الوصية ليوقعها، وبعد أسبوع ذكّرته بأنني لم أستلم منه الوصية بعد توقيعها وتصديقها وسألته إن كان يرغب في تعديلها، فردّ قائلاً بأنه راض تماماً وسوف يرسل الوصية بعد توقيعها إلى المصرف الذي يتعامل معه.

قال روجر متلهّفاً: هذا صحيح تماماً... كان ذلك في نهاية شهر تشرين الثاني من العام الماضي، أتذكر -يا فيليب- حين جمعنا والدي ذات مساء جميعاً وقرأ الوصية علينا؟

التفت تافيرنر إلى فيليب ليونايدز: أتذكره يا سيد فيليب؟

- نعم.

- آنسة صوفيا؟

- نعم، أتذكر ذلك تماماً.

سأل تافيرنر: وما هي بنود تلك الوصية؟

أوشك جيتسكيل أن يجيب المفتش بطريقته الدقيقة، لكن روجر سبقه قائلاً: كانت وصية بسيطة تماماً، فقد ماتت إلكترا وجويس فعادت حصتهما من التسوية لوالدي، وقُتل وليام ابن جويس في معركة في بورما فذهب المال الذي تركه لأبيه. وقد بقي فيليب وأنا والأطفال الأقرباء وحدنا عنده ليس سوانا. وقد فصل والدي وصيته: خمسون ألف جنيه بلا ضرائب إلى الخالة إيديث، ومئة ألف بلا ضريبة إلى بريندا، وهذا البيت لبريندا أو نشتري لها بيتاً مناسباً في لندن حسب رغبتها هي. أما البقية فتقسم ثلاث حصص: واحدة لي، وواحدة لفيليب، والثالثة تقسم بين صوفيا ويوستيس وجوزفين، وحصة الاثنين الآخرين تبقى تحت الوصاية حتى يبلغا السن القانونية. أظن هذا صحيحاً، أليس كذلك يا سيد جيتسكيل؟

- بلى، إنها بنود الوصية التي صغتها بالضبط.

- لقد قرأها الوالد علينا وسألَنا إن كانت لنا أي ملاحظة عليها، فلم تكن لنا أي ملاحظة.

قالت الآنسة دي هافيلاند: بريندا قدّمت ملاحظة.

قالت ماجدا بتلذذ: نعم، قالت إنها لا تطيق احتمال حبيبها العجوز أريستايد وهو يذكر الموت لأن ذلك يوقع في نفسها الشعور بالذعر... وهي لا تريد شيئاً من ماله إن هو مات!

وعلقت إيديث دي هافيلاند فوراً: كان ذلك اعتراضاً تقليدياً يتناسب مع طبقتها الاجتماعية.

كانت تلك كلمة قاسية وعنيفة، وأدركت فجأة كم تكره إيديث دي هافيلاند بريندا.

قال المحامي جيتسكيل: إنه توزيع عادل ومعقول جداً لأملاكه.

- وماذا حدث بعد قراءة الوصية؟

روجر: بعد أن قرأها وقّعها.

مال تافيرنر إلى الأمام سائلاً: كيف وقعها ومتى؟

نظر روجر إلى زوجته كأنما يستنجدها، فتكلمت كليمنسي وقد بدا بقية العائلة راضين: تريد أن تعرف ما الذي حدث تماماً؟

- أرجوكِ يا سيدة روجر.

- وضع العجوز الوصية على درج مكتبه ودعا أحدنا (أظنه روجر) ليقرع الجرس، ففعل. وحين جاء جونسون ليجيب الجرس طلب منه أن يذهب ويدعو خادمة الاستقبال جانيت ولمر، وعندما

جاء الاثنان وقّع الوصية وأمرهما أن يشهدا ويوقّعا عليها باسميهما الحقيقين.

قال السيد جيتسكيل: ذاك هو الصواب، يجب أن يوقع الموصي الوصية في حضور شاهدين يوقعان في الزمان والمكان نفسه.

- وبعد ذلك؟

- شكرهما فخرجا، وأخذ الوصية فوضعها في مغلّف طويل وأعلن أنه سوف يرسلها إلى السيد جيتسكيل في اليوم التالي.

نظر رئيس المفتشين تافيرنر حوله وقال: هل توافقون جميعاً على أن هذا سرد دقيق لما حدث؟

سمعنا همسات موافقة، ثم سأل تافيرنر كليمنسي: كانت الوصية على المكتب كما قلتِ. كم كانت المسافة بين أي منكم وذلك المكتب؟

- لم تكن المسافة قصيرة جداً، ربما كان يبعد عنه أقربنا أربعة أمتار أو خمسة.

- أكان السيد ليونايدز يجلس خلف المكتب و بو يقرأ الوصية عليكم؟

- نعم.

- وهل نهض من مكانه أو ترك المكتب بعد قراءة الوصية وقبل توقيعها؟

- لا.

- هل كان بإمكان الخادمين قراءة الوصية حين وقعها كلاهما؟

- لا؛ فقد وضع العجوز ورقة بيضاء على الجزء العلوي من الوثيقة.

فيليب: نعم، فما كتب في الوصية لم يكن يهم الخدم.

- فهمت.

وبحركة سريعة أخرج تافيرنر ظرفاً طويلاً وانحنى ليسلمه للمحامي قائلاً: انظر إلى هذا وأخبرني ما هو؟

أخرج السيد جيتسكيل وثيقة مطوية من الظرف، ونظر فيها مذهولاً وقلبها بين يديه مرة تلو الأخرى ثم قال: إنها مفاجأة لا أفهمها بتاتاً! هل لي أن أسألك أين كانت هذه؟

- في الخزنة الحديدية بين أوراق السيد ليونايدز الأخرى.

سأل روجر: ولكن ما هذه؟ لِمَ كل هذه الضجة من أجلها؟

- هذه هي الوصية التي أعددتها لوالدك ليوقعها يا روجر، ولكنها ليست موقعة!

- ماذا؟ أظنها مسوّدة.

- لا، لقد أعاد السيد ليونايدز المسودة لي، ثم صغت الوصية... هذه الوصية.

ونقرها بأصبعه وهو يقول: ثم أرسلتها له لكي يوقعها، وحسب شهادتكم فقد وقع الوصية أمامكم أجمعين وشهدها شاهدان، لكن هذه الوصية لم توقع!

صاح فيليب ليونايدز بقوة وجعل فمه يهدر: هذا مستحيل!

سأله تافيرنر: كيف كان بصر أبيك؟

- كان مصاباً بالغلوكوما وكان يضع نظارة سميكة عند القراءة.

- هل كان يضع تلك النظارة في ذلك المساء؟

- نعم، طبعاً؛ إنه لم ينزع نظارته إلا بعد أن وقع الوصية، أليس كذلك يا كليمنسي؟

- هذا صحيح تماماً.

- هل أنتم متأكدون من أن أحداً لم يقترب من مكتبه قبل توقيع الوصية؟

قالت ماجدا وهي تغمض عينيها قليلاً: إن أحداً لا يستطيع تصور ذلك مرة أخرى.

قالت صوفيا: لم يقترب أحد من المكتب، وجدّي جلس وراءه طول الوقت.

- هل كان المكتب في نفس الموضع الذي هو فيه الآن؟ ألم يكن قريباً من الباب أو الشبّاك أو أية ستارة؟

- بل حيث هو الآن.

قال تافيرنر: أنا أجتهد أن أرى كيف تتغير أمكنة الأشياء، فلا بد أن شيئاً قد تغير مكانه. لقد كان السيد ليونايدز عازماً على أن يوقّع الوثيقة التي قرأها لتوه عليكم...

روجر: ألا يمكن أن تكون التواقيع قد مُحيت؟

- لا يا سيد روجر؛ لا بد أن تترك أثراً على ذلك. لعل هذه ليست الوثيقة التي أرسلها السيد جيتسكيل إلى السيد ليونايدز والتي وقعها في حضوركم.

قال السيد جيتسكيل: بل إن هذه هي الوثيقة الأصلية. في الورقة شق صغير في أعلاها إلى اليسار على شكل طائرة، لقد لاحظته آنذاك.

نظر الحاضرون بعضهم إلى بعض بذهول وأكمل جيتسكيل: إنها ظروف غريبة جداً لم يسبق لها مثيل خلال عملي من قبل.

قال روجر: الأمر كله غريب... كنا جميعاً هناك فكيف يحدث ذلك؟

سعلت الآنسة دي هافيلاند سعلة جافة وقالت: هذا كلام لا يجدي أبداً. كيف تقول في شيء قد حدث إنه لم يحدث؟ وما هو الموقف الآن؟ هذا ما أود معرفته.

انقلب جيتسكيل محامياً حذراً في الحال، قال: لا بد من دراسة الموقف بحرص؛ إن هذه الوثيقة تُبطل كل الوصايا التي قبلها قطعاً،

وثمة عدد كبير من الشهود الذين رأوا السيد ليونايدز يوقع بحسن نية ما كان يظنه يقيناً أنه هذه الوصية. هذا عجيب! إنها مشكلة قانونية صغيرة... لا بأس.

نظر تافيرنر إلى ساعته وقال: أخشى أنني أؤخركم عن غدائكم.

سأله فيليب: ألا تبقى وتتناول الغداء معنا يا حضرة المفتش؟

- شكراً لك يا سيد ليونايدز، ولكني سأقابل الدكتور غراي في سوينلي دين.

التفت فيليب إلى المحامي: هل تتغدى معنا يا جيتسكيل؟

- شكراً لك يا فيليب.

نهضنا جميعاً، وتقدمتُ إلى صوفيا وهمست: هل أمكث أم أغادر؟

- أرى من الأفضل أن تغادر.

انسللت بهدوء خارج الغرفة على إثر تافيرنر، وكانت جوزفين تمشي جيئة وذهاباً قرب باب أخضر يؤدي إلى الساحة الخلفية وقد بدت مسرورة جداً من شيء ما. قالت: الشرطة أغبياء!

خرجت صوفيا من غرفة الاستقبال وسألت: ماذا كنت تفعلين يا جوزفين؟

- كنت أساعد ناني.

- بل كنت وراء الباب تتنصتين.

نظرت جوزفين إليها باشمئزاز ثم انسحبت، وقالت صوفيا: هذه الطفلة جزء من المشكلة!

* * *

-١١-

وصلتُ إلى غرفة مساعد المفوض في سكوتلانديارد لأجد تافيرنر ينهي سرده لتفصيلات التحقيق قائلاً: والنتيجة أنني غادرتهم ولم أحصل منهم على شيء! لا دوافع... لا أحد منهم كان معسراً... كل ما علمناه ضد بريندا وصديقها الشاب هو أنه كان يرمقها بنظراته عندما كانت تسكب له القهوة.

قلت: لا عليك يا تافيرنر؛ يمكنني أن أضيف شيئاً أفضل من ذلك.

- حقاً؟ حسناً يا سيد تشارلز، ماذا عندك؟

جلست أتحدث وقد أسندت ظهري إلى المقعد: كان روجر وزوجته يخططان للرحيل يوم الثلاثاء القادم، وقد التقى روجر مع والده لقاء عاصفاً في اليوم الذي توفي فيه العجوز. يبدو أن العجوز ليونايدز اكتشف شيئاً غير طبيعي وكان روجر يعترف أنه يستحق اللوم.

احمر وجه تافيرنر وقال: من أين حصلت على كل هذه المعلومات؟ إن كنت حصلت عليها من الخدم...

- لم أحصل عليها من الخدم، بل من عميل خاص!

- ماذا تقصد بقولك؟

- وإني أعترف، حسب القواعد المقررة في القصص البوليسية، بأنه... أو بالأصح بأنها قد تفوقت على الشرطة. ثم إن هذا العميل لديه أشياء خاصة ما زال يحتفظ بها لنفسه.

فتح تافيرنر فمه ثم سكت مرة أخرى، أراد أن يسأل أسئلة كثيرة لكنه أدرك أن من الصعب أن يبدأ. أما أنا فقد كرهت أن أفضي بهذا السر، فقد كنت أحب روجر ليونايدز. وكرهت -وأنا أتذكر غرفته المريحة الجميلة وسحر الرجل الودود- أن ينطلق رجال العدالة على إثره فيعتقلوه. ربما تكون أخبار جوزفين كلها غير موثوقة، لكنني لم أظن ذلك في الحقيقة.

قال تافيرنر: إذن فالطفلة أخبرتك بذلك؟ إنها تبدو طفلة واعية لما يدور في ذلك البيت.

قال والدي معلقاً: الأطفال هكذا في العادة. لو كان هذا الخبر يقيناً فسوف يتغير الموقف كله. لو كان روجر كما زعمت جوزفين: «يختلس» أموال شركة تجهيز الغذاء، ولو كان الرجل العجوز قد كشف أمره فيلزم روجر وزوجته إسكات العجوز ليونايدز ومغادرة إنكلترا قبل اكتشاف الحقيقة... ربما يكون روجر قد ارتكب هذه الجريمة.

تم الاتفاق على إجراء التحقيق في شؤون شركة التجهيز الغذائي فوراً دون تأخير. وقال والدي: لو أن ذلك الرجل غادر لكانت كارثة

شاملة... إنها مسألة تهم كثيراً من الناس من حملة الأسهم؛ فهي تتعلق بالملايين.

- لو كانت الشركة في أزمة مالية أو ورطة فسوف تتضح الفرضية: الأب يستدعي روجر، فينهار روجر ويعترف. بريندا ليونايدز كانت خارجاً في السينما، فما كان على روجر إلا أن يغادر غرفة أبيه إلى الحمام ويفرغ زجاجة الأنسولين ويضع فيها محلولاً خالصاً من الإيسيرين، ثم يكون ما كان. أو أن زوجته فعلتها: صعدت إلى الجناح الآخر -بعد أن عادت إلى البيت في ذلك اليوم- مدعيةً أنها ذاهبة لتحضر غليون روجر الذي تركه هناك. كان بإمكانها أن تصعد هناك لتغير المحلول قبل أن تعود بريندا إلى البيت لتعطيه الحقنة... إنها رابطة الجأش وتقدر على فعل ذلك.

أومأت برأسي وقلت: نعم، كأني أراها هي مَن فعل الجريمة؛ فإن لديها قدرة عجيبة على ضبط نفسها ولجم انفعالاتها، ولا أظن أن روجر سيخطر بباله السم وسيلة لأن حيلة الأنسولين فيها رائحة أنثوية.

قال والدي بغلظة: كثير من الرجال يستعملون السم في القتل.

تافيرنر: أعرف يا سيدي، أتراني جاهلاً؟ لكني لا أظن روجر من هذا الصنف.

- وهل تذكر بريتشارد يا تافيرنر؟ لقد كان بريتشارد مازجاً ماهراً للسم.

- إذن لنفترض أنهما كانا مشتركَين فيها معاً.

قال تافيرنر ذلك وانصرف. وقال والدي: أيخطر ببالك -يا تشارلز- أنها تشبه الليدي «ماكبث» في رواية شيكسبير؟

تخيلت المشهد: المرأة الجميلة تقف قرب النافذة في غرفة متقشفة... وقلت: ليس تماماً؛ فقد كانت الليدي ماكبث امرأة جشعة جداً، وكليمنسي ليونايدز غير جشعة؛ أظن أنها لا تهتم بالمال ولا تحرص أن تحوزه وتملكه.

- ولكن ألا يهمها نجاة زوجها وسلامته؟

- بلى، وربما تكون قاسية القلب.

هذا ما قالته صوفيا: «قسوة القَلب». ورفعتُ بصري لأرى الرجل العجوز يرقبني، وقال: فيمَ تفكر يا تشارلز؟

ولكني لم أخبره حينئذ.

* * *

في اليوم التالي دُعيت فوجدت والدي وتافيرنر معاً. كان تافيرنر مسروراً قليلاً، وقال والدي: إن شركة التجهيز الغذائي على شفير الهاوية.

قال تافيرنر: نعم، إنها عرضة للانهيار في أية لحظة.

قلت: علمت أن الأسهم نزلت في الليلة الماضية نزولاً حاداً، لكنها عادت وارتفعت هذا الصباح.

قال تافيرنر: يجب أن نحقق بحذر شديد. لا نريد تحقيقات مباشرة تسبب الذعر أو تروع صاحبنا الذي يريد الفرار، فلدينا مصادر خاصة والأخبار أكيدة تماماً؛ شركة التجهيز الغذائي على شفير الهاوية وقد تعجز عن الوفاء بالتزاماتها، هي تعاني من فساد الإدارة منذ عدة سنوات.

- إدارة روجر ليونايدز؟

- نعم، إن سلطته قوية كما تعلم.

- وقد اختلس مالاً؟

- لا، لا أظن أنه فعلها. قد يكون روجر قاتلاً ولكننا لا نعتقد أنه محتال، وبصراحة لقد كان أبله لا يمتلك أدنى حد من الحكمة؛ كان ينطلق حين يلزمه أن يتوقف ويتردد ويتراجع حيث يجدر به الانطلاق والتقدم، وكان يعتمد على رجال ويوكل إليهم أعمالاً هم آخر من توكَل إليهم أمثالها. إنه يثق بالناس الذين لا يستحقون الثقة، وفي كل مرة وكل مناسبة كان يعمل العمل الخطأ!

قال والدي: رأيت رجالاً من صنفه، لكنهم ليسوا أغبياء في الحقيقة. إنهم يخطئون في الحكم على الرجال فحسب ويتحمسون في وقت لا ينبغي فيه الحماسة.

قال تافيرنر: إن رجلاً مثل روجر لا يجدر أن يُسند إليه عمل من الأعمال بتاتاً.

- لعله لم يكن ليصبح ذلك لولا أنه ابن أريستايد ليونايدز.

- كانت الشركة شركة ناجحة حين عهد العجوز إليه بها، وكان ينبغي أن تصبح «منجم ذهب». لكنني أراه جلس مستريحاً وترك الشركة تدير نفسها!

هزّ أبي رأسه وقال: لا، لا شركة تدير نفسها بنفسها. في كل شركة قرارات يجب اتخاذها: فصل هذا وتوظيف ذاك... وأسئلة حول سياسة الشركة. أما روجر فيبدو أن أجوبته كانت خطأً دائماً.

قال تافيرنر: هذا صحيح. إنه رجل مخلص، أبقى على الموظفين الفاشلين لأنه يميل إليهم أو لأنهم كانوا يعملون في الشركة منذ دهر بعيد! ثم كانت له أحياناً أفكار طائشة غير عملية وكان يصر على تجربتها رغم نفقاتها الباهظة.

ألحّ والدي قائلاً: ولكن ألا توجد مخالفة جنائية؟

- لا مخالفة جنائية.

سألته: إذن فلماذا يقترف جريمة القتل؟

- ربما كان أحمق لا محتالاً، لكن النتيجة واحدة. كان الشيء الذي ينقذ هذه الشركة من الإفلاس مبلغاً ضخماً يتم تدبيره قبل...

وفتح دفتره وقرأ: قبل الأربعاء القادم على أبعد تقدير.

- مبلغ كالذي يرثه حسب وصية والده، أليس كذلك؟

- بالضبط.

- لكنه لم يكن ليستطيع الحصول على ذلك المبلغ نقداً.

- ولكنه سيسهّل له الحصول على اعتماد أو قرض مصرفي.

أومأ الرجل العجوز برأسه موافقاً، قال: ألم يكن أسهل عليه أن يذهب إلى العجوز ليونايدز فيطلب منه مالاً؟

قال تافيرنر: لقد فعل ذلك... هذا ما سمعته الطفلة. فلعل العجوز رفض صراحة أن يدفع خشية من الخسارة ثانية. لقد ذهب روجر إليه.

أظن أن تافيرنر كان على حق؛ فقد رفض أريستايد ليونايدز دعم مسرحية ماجدا وقال إنها لن تجني أرباحاً في شبّاك التذاكر، ثم تبين أنه على حق. كان ليونايدز رجلاً كريماً مع عائلته لكنه لا يضيع المال في مشروعات غير رابحة، كما أن الشركة يساهم فيها الآلاف وربما مئات الآلاف... لقد رفض صراحة، وليس أمام روجر -لكي يتجنب الإفلاس- إلا وفاة والده. نعم، لا بد من دافع بالتأكيد.

نظر والدي في ساعته وقال: طلبت منه أن يحضر، سيكون هنا في أية لحظة.

- روجر؟

- نعم.

همست: قالت العنكبوت للذبابة: «هلاّ أتيت إلى بيتي؟».

نظر تافيرنر إلي دَهِشاً وقال بقسوة: سنأخذ منه حذرنا ونحترس.

بدأ العمل وحضر الكاتب، وفي الحال قُرع جرس المكتب ثم

دخل روجر ليونايدز الغرفة متلهفاً مرتبكاً بعد بضع دقائق. وتعثرت قدمه بأحد الكراسي فتذكرت كلباً ضخماً ودوداً، وفي الوقت نفسه قررت جازماً أنه ليس هو الذي نفذ العمل وبدّل زجاجة الإيسيرين بالأنسولين، إذن لكان يكسرها أو يسكبها أو ترجف يده ويفشل في الحيلة بطريقة أو بأخرى، نعم؛ لا شك أن كليمنسي هي الفاعلة وإن كان روجر متهماً بعلمه هذا العمل.

تدفقت الكلمات من فمه: هل أردت رؤيتي؟ هل وجدت شيئاً؟ مرحباً يا تشارلز... لم أرك. جميل منك أن تأتي هنا، ولكني أرجوك أن تخبرني يا سيد آرثر...

إنه رجل لطيف، ولكن كثيراً من القتلة كانوا رجالاً لطافاً، وذلك ما كان يؤكده أصدقاؤهم المذهولون بعد جرائمهم. وابتسمت محيّياً.

كان أبي رجلاً حازماً هادئاً يحترس في حديثه، فخرجت كلماته عفوية: الشهادة... سوف تدوَّن... لا إكراه... محامٍ...

أزاح روجر ليونايدز كل هذه الأشياء جانباً غير صابر، ورأيت ابتسامة المفتش تافيرنر الساخرة على وجهه فعرفت ما يخطر بباله، كان يقول في نفسه: "إنهم واثقون من أنفسهم، هؤلاء الأشخاص لا يخطئون، إنهم أذكياء". وجلست في زاوية من الزوايا وأصغيت.

قال والدي: لقد دعوتك هنا -يا سيد روجر- لا من أجل أن أعطيك معلومات جديدة ولكن لأطلب منك بعض المعلومات التي كتمتها من قبل.

بدا روجر ليونايدز متحيراً وقال: كتمتها؟ لكني أخبرتك بكل شيء... كل شيء بلا كتمان.

- لا، لقد جرى بينك وبين الفقيد حديث في مساء يوم مقتله، أليس كذلك؟

- بلى، بلى. شربت معه الشاي... لقد أخبرتكم بذلك.

- أجل، أخبرتنا بذلك، لكنك لم تخبرنا ماذا دار بينكما.

- لقد كان... حديثاً ليس غير.

- فيمَ تحدثتما؟

- في الأمور اليومية. البيت... صوفيا...

- فماذا عن شركة التجهيز الغذائي؟ هل ذكرتماها؟

تمنيت ساعتئذ أن تكون جوزفين قد اخترعت القصة كلها، لكن هذا الأمل سرعان ما تلاشى؛ فقد تغير وجه روجر... تغير في لحظة واحدة إلى شيء قريب من اليأس وقال: "يا إلهي!"... وجلس على كرسي وغطى وجهه بيديه.

ابتسم تافيرنر كالقطة المطمئنة وقال: أتعترف أنك لم تكن صريحاً معنا يا سيد روجر؟

- كيف عرفتم بذلك؟ كنت أظن أن لا أحد كان يعرفه... لا أفهم كيف علمه غيري.

- لدينا وسائلنا الخاصة في معرفة هذه الأمور يا سيد ليونايدز.

وسكت المفتش سكتة مهيبة ثم قال: أظن أنك تفهم الآن. من الأفضل لك أن تخبرنا بالحقيقة.

- نعم، نعم، بالطبع سأخبركم. ماذا تريدون أن تعرفوا؟

- هل صحيح أن شركة التجهيز الغذائي توشك أن تنهار؟

- نعم، لقد فات الأوان فلا أستطيع إنقاذها الآن. إن الانهيار آتٍ لا محالة... ليت أبي مات دون أن يعرف ذلك! إنني أشعر بالعار والخزي الشديد.

- وهل ثمة احتمال لحدوث مقاضاة جنائية؟

انتصب روجر في مكانه محتداً: لا؛ سيكون إفلاسٌ شريفٌ. سوف ندفع للمساهمين عشرين شلناً لكل جنيه ناهيك عن موجوداتي الشخصية. إن الخزي الذي أصابني سببه أنني خذلت والدي. لقد كان يثق بي وعهد بهذا العمل إليّ وهو أكبر اهتماماته... كان العمل المفضل لديه. إنه لم يتدخل يوماً ولا سألني عمّا كنت أفعله... كان يثق بي لكنني خذلته.

قال أبي بجفاء: هل قلت إنه لن توجد مقاضاة جنائية؟ إذن فلماذا خططت أنت وزوجتك للسفر دون إعلان أو خبر؟

- وتعرف هذا أيضاً؟

- أجل يا سيد ليونايدز.

انحنى روجر إلى الأمام وقال: لم أكن أستطيع مواجهته بالحقيقة... خشيت أن يفهم أنني أطلب منه مالاً أو أنني أستنجد به ليوقفني على قدميّ مرة أخرى. لقد... لقد كان يحبني كثيراً، وكان سيساعدني. لكني لم أستطع... لم أستطع المواصلة. كانت المواصلة تعني ورطة مرة أخرى. إنني لا أصلح لهذا العمل، فليست عندي القدرة عليه. أنا لست مثل أبي... كنت أعلم بنفسي منه، لقد حاولت فلم أنفع. كنت تعِساً جداً... يا إلهي! إنك لا تعرف تعاستي التي ذقتها وأنا أحاول الخروج من المشكلة وأرجو رضاه وآمل أن لا أضطر للبوح بالأمر للرجل العجوز! ولكن لم يبقَ أي أمل في تجنب الكارثة. زوجتي كليمنسي تفهّمت الأمر ووافقتني الرأي، وفكرنا في هذه الخطة معاً. لم نقل شيئاً لأحد... نهرب وندع العاصفة تثور. كنت سأترك لأبي رسالة أفصّل الأمر له فيها وكيف أنني كنت أشعر بالخزي وأتوسل إليه أن يسامحني... لقد كان طيباً معي دائماً. لكن الوقت كان متأخراً إن هو أراد أن يفعل شيئاً. ما كنت أريد منه المساعدة، كنت أريد أن أبدأ من جديد في مكان آخر... أعيش حياة بسيطة متواضعة، أزرع البن والفواكه لتكون عندي ضرورات الحياة فقط. وكان ذلك صعباً على زوجتي لكنها أقسمت أن لا تمانع. إنها رائعة... رائعة بلا ريب.

قال أبي بجفاء: وما الذي جعلك تغير رأيك؟

- أغير رأيي؟!

- نعم، لماذا عزمت أن تذهب إلى أبيك وتطلب منه المساعدة المالية بعد كل هذا؟

حدق روجر إلى أبي وقال بدهشة: لكني لم أفعل ذلك.

- هيا يا سيد ليونايدز.

- لقد أخطأ مَن أبلغكم بذلك. أنا لم أذهب إليه بل هو أرسل في طلبي... كأنه سمع -بطريقة ما- من أهل المدينة. لعلها كانت إشاعة، لكنه كان يعلم ما يجري حوله دائماً. صارحني أبي فأخبرته بكل شيء وقلت له إن رحيلي ليس بسبب المال وإنما لإحساسي بأني خذلته بعد أن وثق بي.

ثم تغير صوت روجر وجعل يتكلم بانفعال: لا يمكنك أن تتخيل كم كان الرجل العجوز طيباً معي! لم يوبخني، بل كان لطيفاً. أخبرته أنني لا أريد المساعدة وأفضّل أن لا يساعدني وأنه من الخير أن أرحل كما كنت أخطط... لكنه ما كان ليصغي إليّ. لقد أصر على إنقاذي وعلى دعم شركة التجهيزات الغذائية لتستأنف عملها من جديد.

قال تافيرنر بحدة: أتريدنا أن نصدق أن والدك كان ينوي مساعدتك مادياً؟

- كان ينوي ذلك يقيناً، وقد أوصى سماسرته هنا وهناك من أجل مساعدتي.

قرأ روجر الشك في عيون الرجلين، فاحمرّ وجهه وقال:

ما زلت أحتفظ بالرسالة... كنت سأرسلها بالبريد لكني نسيتها من... من الصدمة والفوضى! ربما أحضرتها ولعلها في جيبي الآن.

أخرج محفظته وبدأ يبحث فيها، وأخيراً وجد ما كان يريده. أخرج ظرفاً مجعداً عليه طابع، وكان عنوانه: «شركة غريتو ريكس وهانبري». قال: فلتقرأها بنفسك إن كنت لا تصدقني.

فتح والدي الرسالة وذهب تافيرنر وراءه، ولم أرَ الرسالة وقتئذ لكني رأيتها من بعد؛ كانت تطلب من شركة غريتو ريكس وهانبري أن تسيّل استثمارات معينة وترسل في اليوم التالي أحد أعضاء الشركة من أجل شروط معينة تتعلق بشؤون شركة التجهيز الغذائي. كان بعضها غير واضح لي لكن غرضها كان لا يخفى؛ فقد كان أريستايد ليونايدز يتخذ الإجراءات اللازمة لإيقاف الشركة على قدميها مرة أخرى.

احتفظ تافيرنر بالرسالة قائلاً: سنعطيك وصلاً بهذه الرسالة يا سيد ليونايدز.

أخذ روجر الإيصال ونهض قائلاً: هل من شيء آخر؟ هل فهمتم الأمر كيف كان؟

قال تافيرنر: هل أعطاك السيد ليونايدز هذه الرسالة ثم غادرته؟ ماذا فعلت بعد ذلك؟

- رجعت سريعاً إلى جناحي الخاص في المنزل. كانت زوجتي قد دخلت لتوها فأخبرتُها بنية والدي وكيف كان رائعاً... في الحقيقة لم أعلم ماذا كنت أفعل!

- ثم مرض والدك، بعد كم من الوقت حدث ذلك؟

- دعني أتذكر... ربما نصف ساعة، أو ساعة. جاءت بريندا مسرعة خائفة وقالت إنه يبدو غريباً، وقد... وقد انطلقت معها، لكني أخبرتكم بكل ذلك من قبل.

- خلال زيارتك الأولى لجناح والدك هل ذهبت إلى الحمام المجاور لغرفته؟

- لا أظن. لا، لا؛ لم أفعل ذلك قطعاً. لماذا؟ لا، لا يمكن أن تظنوا أنني...

هدأ والدي مشاعر السخط المفاجئة، ثم نهض وصافحه قائلاً: شكراً لك يا سيد ليونايدز. لقد ساعدتنا كثيراً، لكن كان يجب أن تخبرنا بهذا من قبل.

أغلق الباب وراء روجر، ونهضت لأنظر إلى الرسالة فوق طاولة والدي فيما ردد تافيرنر متمنياً: يمكن أن تكون مزورة؟

قال والدي: ربما، لكني لا أظن ذلك. علينا أن نقبل بها كما هي تماماً. كان العجوز ليونايدز مستعداً ليُخرج ابنه من هذه الورطة بطريقة فعالة وهو ما زال حياً بأفضل مما يستطيع روجر عمله بعد موته، لا سيما بعد أن أصبح معروفاً الآن أن أحداً لم يجد الوصية فغدا نصيب روجر -إثر ذلك- مشكوكاً فيه، وهذا يعني التأخير والعقبات، وحسبما هي الحالة عليه الآن فإن الكارثة قادمة. لا يا تافيرنر؛ ليس لدى روجر ليونايدز أو زوجته أي دافع لقتل العجوز... بل على العكس من ذلك.

سكت أبي وكرر الكلمة الأخيرة متأملاً وكأن فكرة خطرت له فجأة. سأله تافيرنر: ما الذي يدور في ذهنك يا سيدي؟

- لو أن أريستايد ليونايدز عاش أربعاً وعشرين ساعة أخرى لكان روجر بخير! لكنه لم يعش أربعاً وعشرين ساعة... **لقد مات فجأة بصورة مثيرة خلال ساعة أو أكثر قليلاً.**

- هل تظن أن أحداً في البيت كان يسعى لإفلاس روجر؟ شخصاً له مصلحة مضادة، هل هذا ما تراه؟

سأل والدي: ما هي حقيقة الوصية؟ مَن الذي يرث أموال ليونايدز في الواقع؟

تنهد تافيرنر عميقاً وقال: أنت تعلم مهنة المحاماة... المحامون لا تسمع منهم جواباً صريحاً. توجد وصية سابقة كتبها حين تزوج بريندا، ثم هذه الوصية تقسم لبريندا النصيب نفسه وأقل منه للآنسة دي هافيلاند والباقي بين فيليب وروجر. لو لم تكن هذه الوصية موقَّعة فإن الوصية القديمة ستكون معتمَدة. لكن الأمر يبدو صعباً، أولاً: إن كتابة الوصية الجديدة قد أبطلت السابقة، وعندنا شهود على إمضائها. ثم هناك «نية الموصي»، ولو تبين أنه مات ولم يوصِ إذن تفوز الأرملة بحصة مدى الحياة.

- إذن فلو اختفت الوصية فإن بريندا ليونايدز هي أكثر الأشخاص انتفاعاً، أليس كذلك؟

- بلى، لو كان في المسألة خداع فلعلها تكون متورطة فيه، ومن الواضح أن في الأمر خدعة، لكنني لا أعلم كيف هي؟

لم أعرف أنا الآخر. أظن أننا كنا حمقى، لأننا كنا ننظر إلى الأمر من الزاوية الخطأ.

* * *

-١٢-

خرج تافيرنر فبقينا صامتين، ثم قلت بعد برهة: كيف يكون شكل القتلة يا أبي؟

نظر الرجل العجوز متأملاً. كان كل واحد منا يفهم الآخر جيداً، ففهم ما كنت أفكر فيه حين سألته، وأجابني بجدية تامة: نعم، هذا مهم جداً لك؛ فقد أصبح القتل قريباً منك وما عاد ممكناً أن تنظر إليه بعين المراقب البعيد.

كنت أهتم ببعض القضايا المثيرة في المباحث الجنائية، لكني كنت -كما قال أبي- أطل عليها من بعيد، أما الآن فقد صار الأمر قريباً مني للغاية، ولا بد أن صوفيا قد أدركت ذلك بسرعة أكثر مما فعلتُ.

قال أبي: لا أدري إن كنتُ أنا الذي ينبغي أن تسأله. أستطيع أن أوصلك باثنين من أطباء النفس الذين يؤدّون أعمالاً لنا وتافيرنر يمكن أن يقدّم لك بعض المعلومات الداخلية، لكن لعلك تريد أن تسمع رأيي أنا بسبب خبرتي في المجرمين، أليس كذلك؟

قلت بامتنان: بلى، هذا ما أريده.

رسم والدي بإصبعه دائرة صغيرة على الطاولة وهو يردد: "ما هو شكل القتلة؟"، ثم ابتسم بسمة باهتة كئيبة وهو يضيف: بعضهم كان لطيفاً جداً.

لعلي جفلت قليلاً، واستمر والدي قائلاً: نعم، كانوا لطافاً مثلك ومثلي ومثل الرجل الذي خرج الآن، روجر ليونايدز. القتل جريمة غير محترفة... وأنا أتحدث في نوع الجرائم التي تفكر فيها وليس جرائم العصابات. أشعر أحياناً كثيرة أن هؤلاء المجرمين اللطاف فوجئوا بجريمة القتل فاضطروا أن يرتكبوها بطريقة عارضة تقريباً، كأن يُحصروا -مثلاً- في زاوية ضيقة أو أنهم يريدون شيئاً بإلحاح شديد كالمال أو المرأة... فيقتلون من أجلهما. إن الضمير يتعطل لديهم ساعتئذٍ. الطفل يترجم رغبته في العمل دون وخز الضمير، والطفل الذي يغضب من قطته قد يقول: "سوف أقتلك"، وربما يضرب رأسها بمطرقة ثم يحزن لأن القطة ماتت. كم من الأطفال يحاولون أخذ رضيع من عربته ليغرقوه لأنه يلفت الانتباه أو يعكر ملذاتهم؟ إن الأطفال يعرفون -في مرحلة مبكرة جداً- أن هذا «خطأ»، فإن فعلوه عوقبوا... لكن فريقاً من الناس لا ينضجون انفعالياً بالقدر الكافي. إنهم يدركون أن القتل عمل خاطئ لكنهم لا يحسون به. لا أعتقد -حسب تجربتي- أنني رأيت قاتلاً أصابه الندم حقاً، بل هو يبحث عن تعليل لما ارتكبه متجاوزاً نفسه: "كان ذلك هو الطريق الوحيد"، أو: "هو، الضحية، الذي سعى إلى حتفه"...

- لو كان أحد يكره العجوز منذ زمن بعيد، فهل يكون الكره سبباً لقتله؟

- كراهية فحسب؟ هذا بعيد جداً حسب ظني.

ونظر إليّ بفضول قائلاً: حين تقول «كراهية» فإنني أظنك تقصد أن الحب قد انقضى. أما كراهية الغيرة فأمر مختلف؛ لأنها تنشأ من التعلق والإحباط. الناس يقولون إن كونستانس كِنْت كانت تحب أخاها الرضيع الذي قتلته حباً كبيراً، لكننا نظن أنها كانت تريد نزع انتباه الآخرين ومحبتهم له. الناس في الغالب يقتلون من يحبون أكثر من قتلهم من يكرهون، لأن الذين تحبهم هم وحدهم الذين يستطيعون أن يجعلوا حياتك لا تطاق! لكن هذا لا يساعدك كثيراً، أليس كذلك؟ كأن الذي تريده -يا تشارلز- هو علامة ما أو إشارة تساعدك في كشف القاتل من بين أهل البيت الذين يبدون أناساً عاديين يبعثون على السرور، أليس كذلك؟

- بلى، هذا ما أريده.

- وهل ترى بينهم صفة مشتركة؟

وسكت قليلاً وهو يفكر ثم قال: لو كان كذلك فإنني أميل إلى القول بأنها الغرور.

- الغرور؟

- أجل؛ فأنا لم أرَ قاتلاً غير مغرور. إن الغرور هو الذي يؤدّي إلى كشفهم غالباً... ربما يخافون القبض عليهم لكنهم لا يستطيعون

كف نفوسهم عن التباهي والاختيال، وهم عادة متأكدون أنهم أذكياء لا يمكن أن يمسك بهم أحد. وهنا شيء آخر: إن القاتل يريد أن يتحدث.

- يتحدث؟

- أجل، القاتل حين يقتل يصير في عزلة شديدة، فهو يحب أن يصارح أحداً بكل شيء. لكنه لا يستطيع، وهذا يجعله يريد أن يخبر بالمزيد، وهكذا... إن كان لا يستطيع أن يقول كيف فعل هذا فإنه يستطيع أن يتحدث عن القتل نفسه ويناقشه ويطرح نظريات لتدرسها. لو كنت مكانك لانتبهت لهذا الأمر يا تشارلز. اذهب هناك مرة أخرى واقعد بينهم واختلط بهم جميعاً واجعلهم يتحدثون... لن يكون عملاً سهلاً، وسواء كانوا مذنبين أو أبرياء فسيكونون سعداء بفرصة محادثة رجل غريب؛ لأنهم سيقولون لك أشياء لا يقولها بعضهم لبعض. ولعلك تستطيع أن تتبين الاختلاف، فالذي يريد أن يكتم شيئاً في نفسه لا يطيق الحديث معك بالطبع، وقد كان رجال الاستخبارات يدركون ذلك في أثناء الحرب. لو أنك أُسرت ستفشي اسمك ورتبتك ورقمك العسكري ولا شيء غيرها، أما الذين يحاولون إعطاء معلومات مزيفة فإن ألسنتهم تزلّ دائماً. فلتجعل أهل البيت يتحدثون يا تشارلز، وراقب فيهم زلة اللسان أو لمحات من الكشف عن الذات.

أخبرته عندها أن صوفيا تحدثت عن القسوة في العائلة وذكرت أنواعاً مختلفة منها، فاهتم بذلك اهتماماً كبيراً وقال: أجل، إن لدى فتاتك شيئاً في هذا الأمر؛ إن الصفات الوراثية شيء يثير الاهتمام.

خذ قسوة دي هافيلاند على سبيل المثال، وما يمكن أن نسميه «انعدام الضمير» عند ليونايدز... إن عائلة هافيلاند طبيعيون لأنهم ليسو عديمي الضمير أما عائلة ليونايدز فهم رغم تجردهم من الضمير إلا أنهم عطوفون، ولكن أحدهم ورث هاتين الصفتين مجتمعتين... هل تفهم ما أعنيه؟

لم أفكر بتلك الطريقة تماماً، وقال والدي: لن أرهقك بالصفات الموروثة فهذا أمر دقيق ومعقد جداً. اذهب يا ولدي ودعهم يحدثونك... إن فتاتك صوفيا محقة تماماً في شيء واحد، لن ينفعك ولا ينفعها سوى الحقيقة.

ثم أضاف فيما كنت أغادر الغرفة: واحذر الطفلة!

- جوزفين؟ أتعني أن لا أبوح لها بما أنوي أن أفعله؟

- لا، لم أقصد ذلك. بل أقصد أن تعتني بها، فلا نريد أن يصيبها شيء.

حدقت إليه فقال: هيا يا تشارلز، إن وسط أهل البيت قاتلاً يقتل بدم بارد، ويظهر أن الطفلة جوزفين تعرف معظم ما يجري.

- إنها تعرف كل شيء عن روجر، وربما أخطأت بالقفز إلى استنتاجٍ بأنه محتال ولكن معلوماتها تبدو صحيحة.

- نعم، نعم. إن شهادة الطفل هي أفضل الشهادات وأنا أصدقها كل مرة، لكنها لا تفيد في المحكمة قطعاً لأن الأطفال لا يطيقون توجيه الأسئلة المباشرة، بل تراهم يهمهمون ويَبدون بُلَهاء ويقولون

إنهم لا يعرفون... لكنهم يكونون في أفضل أحوالهم عندما يتباهون. سوف تسمع منها مزيداً بالطريقة نفسها. لا تسألها أسئلة، بل اجعلها تشعر أنك لا تعلم شيئاً لتثيرها، ولكن عليك أن تهتم بأمرها، فلعلها تعرف ما يكفي ليجعلها في خطر!

* * *

-١٣-

تركت أبي وذهبت إلى البيت المائل وشعور قليل بالذنب يلازمني. لقد كررت على مسمع تافيرنر أسرار جوزفين التي تتصل بروجر، لكنني لم أقل شيئاً حول مسألة بريندا ولورانس براون ورسائل الحب.

أنا معذور، فقد حسبت ما بينهم رومنسية مجردة ولم أعلم سبباً يثبت صحة ذلك، لكني كرهت أن أجمع أدلة أخرى على بريندا ليونايدز؛ كنت أشفق عليها من عائلة تكنّ لها العداء وهي مجتمعة عليها بقوة.

لو كان مثل هذه الرسائل بينهما فلا شك أن تافيرنر وأعوانه سيجدونها. كنت أكره أن أكون سبباً في طرح تهمة جديدة على امرأة تعيش وضعاً صعباً! ثم إنها أكدت لي أنه لم يكن بينها وبين لورانس أية علاقة، وشعرت أنني أميل إلى أن أصدقها أكثر من تلك «القزم الحقودة» جوزفين! ألم تقل بريندا بلسانها إن جوزفين لم تكن هناك؟

كتمت قناعتي بأن جوزفين كانت هناك، وتذكرت الذكاء في عينيها السوداوين الصغيرتين.

وكلمت صوفيا بالهاتف وسألتها إن كانت تأذن لي بالقدوم ثانية، فقالت: أرجوك أن تأتي يا تشارلز.

- كيف تسير الأمور؟

- لا بأس، ما زالوا يفتشون البيت، عمَّ يبحثون؟

- لا أدري.

- نحن جميعاً غاضبون جداً. تعال بأسرع وقت، سوف أجن إذا لم أتكلم مع شخص ما.

قلت لها بأني سآتي إليها فوراً.

ولم أر أحداً وأنا قادم في السيارة إلى الباب الأمامي، فأعطيت السائق أجره ونزلت. وترددت، هل أقرع الجرس أم أدخل، فقد كان الباب مفتوحاً. وبينما أنا كذلك سمعت صوتاً خفيفاً من خلفي فأدرت رأسي بحدة. كانت جوزفين عند فتحة سياج من الشجر تنظر إليّ وقد حجبت وجهها تفاحة كبيرة. وذهبت تجاهها وقلت: مرحباً يا جوزفين.

لم تجبني، بل اختفت خلف السياج، فعبرت الطريق وتبعتها. كانت تجلس على مقعد خشبي صدئ غير مريح عند بركة السمك وتحرك ساقيها وهي تقضم التفاحة. وكانت تنظر إليّ باكتئاب وشيءٍ لا أحسبه إلا العداء.

قلت: ها قد جئت ثانية يا جوزفين.

كانت بداية ضعيفة، لكن كان صمت جوزفين وعيناها الجاحظتان يثيران الأعصاب. بقيت صامتة تفكر تفكيراً عميقاً فسألتها: هل هذه تفاحة جيدة؟

عندئذ تعطّفت جوزفين وأجابت بكلمة واحدة: غامضة.

- أمر مؤسف! لا أحب التفاح الغامض.

ردّت جوزفين بازدراء: لا أحد يحب ذلك.

- لماذا لم تكلّميني حين قلت «مرحباً»؟

- لا أريد.

- لماذا؟

أبعدت جوزفين التفاحة عن وجهها لتساعد في توضيح شجبها وقالت: لأنك ذهبت وأبلغت الشرطة.

فوجئت وقلت: أتقصدين بخصوص...

- بخصوص العم روجر.

- لكن لا بأس يا جوزفين، لا بأس. إنهم يعرفون أنه لم يقترف ذنباً... لم يختلس مالاً أو شيئاً كهذا.

نظرت جوزفين إليّ نظرة ساخطة: كم أنت غبي!

- أنا آسف.

- لست قلقة على العم روجر، لكن هذا ليس أسلوب العمل البوليسي. ألا تعرف أنه ينبغي أن لا تخبر الشرطة حتى النهاية؟

- ها! فهمت. أنا آسف يا جوزفين، آسف حقاً.

- يجب أن تشعر بالأسف، لقد كنت أثق بك.

قلت لها مرة ثالثة إنني آسف. بدت جوزفين هادئة وقضمت التفاحة مرتين، فقلت لها: لكن الشرطة سيكتشفون كل شيء. إنك... نحن لا نستطيع أن نكتم الأمر طويلاً.

- أتقصد لأنه كاد يفلس؟

كانت جوزفين عالمة بالأمر كعادتها. قلت: ربما. أظن أن الأمر سيصل إلى ذلك الحد.

- سيتحدثون هذه الليلة... والدي ووالدتي والعم روجر والخالة إيديث. سوف تعطيه الخالة إيديث مالها... لكنها لم تأخذه بعد. أما والدي فلا أظنه يعطيه؛ إنه يقول: "إن كان روجر قد وقع في مأزق فعليه أن يلوم نفسه، وما فائدة تبذير المال في مشروع خاسر؟". كما أن أمي لن ترضى أن تعطيه جنيهاً واحداً لأنها تريد من والدي أن ينفق المال على مسرحية «إيديث تومبسون». هل تعرف شخصية إيديث تومبسون؟ كانت متزوجة برجل لم تحبه وكانت تحب شاباً يدعى بيواترز، وقد نزل من السفينة وسار في شارع مهجور فطُعن في ظهره.

تعجبت -مرة أخرى- من نضج معلومات جوزفين والفهم الدرامي الذي قدّم كل الحقائق البارزة بإيجاز.

قالت جوزفين: لكني لا أظن أن المسرحية ستنجح بأي حال... سوف تكون مثل «جيزبيل» مرة أخرى.

وتنهدت ثم عادت إلى القول: كنت أتمنى أن أعرف لمَ لَمْ تأكل الكلاب راحتيها؟

- جوزفين، هل قلت إنك متأكدة من هوية القاتل؟

- حسناً...

- من هو؟

نظرت إليّ نظرة ازدراء فقلت: فهمت؛ لن تخبريني إلا عند الفصل الأخير. وإذا وعدتك بأن لا أخبر المفتش تافيرنر؟

- بل أريد بعض الأدلة الأخرى.

ألقت لبّ التفاحة في حوض أسماك الزينة، ثم أضافت قائلة: على أية حال ما كنت سأخبرك بذلك لأنك تشبه واطسون في قصص شيرلوك هولمز.

تحملت هذه الإهانة وقلت: حسناً... أنا واطسون، لكن واطسون عرف أسراراً.

- ماذا عرف؟

- الحقائق، ثم بعد ذلك اجتهد فأخطأ. ألن يكون أمراً مسلياً لك أن أسمع منك ثم تريني أقوم باستنتاجات خاطئة؟

أغريت جوزفين للحظة، لكنها ما لبثت أن هزتْ رأسها وقالت:

لا... وعلى كل حال فأنا لا أحب قصص شيرلوك هولمز؛ إن أسلوبها قديم وأبطالها يركبون عربات تجرها الكلاب.

- وماذا عن تلك الرسائل؟

- أي رسائل؟

- رسائل لورانس براون وبريندا.

- لقد اخترعتها.

- لا أصدقك.

- نعم، إنها كذبة اخترعتها... إنني أخترع أشياء كثيرة من هذا النوع، فهذا يسليني.

حدقت إليها وحدقت إليّ. ثم قلت: اسمعي يا جوزفين، أعرف رجلاً في المتحف البريطاني مطّلعاً على القصص التاريخية، فلو سألته: لِمَ لم تأكل الكلاب راحتَي جيزبيل فهل تخبرينني عن هذه الرسائل؟

هذه المرة ترددت جوزفين حقاً، ثم -في مكان ما ليس بعيداً- انكسر غصن شجرة وأحدث صوتاً حاداً. قالت جوزفين ببرود: لا، لن أخبرك.

رضيت بالهزيمة، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم تذكرت نصيحة والدي. أما في تلك اللحظة فقد كررت المحاولة: حسناً، إنما هي لعبة... أنت لا تعلمين شيئاً.

قدحت عينا جوزفين لكنها قاومت الإغراء. نهضتُ وقلت: هيا، يجب أن أدخل الآن لأبحث عن صوفيا.

- سأقف هنا.

- لا، لن تفعلي؛ سوف تدخلين معي.

شددتها بغلظة حتى تقف على قدميها ففوجئت، واحتجت لكنها استسلمت عن طيب خاطر منها... ربما لأنها كانت ترغب في ملاحظة ردود فعل أهل البيت عند حضوري.

ولم أدرك في تلك اللحظة سر حرصي على اصطحابها معي إلى البيت، ولكن السبب ما لبث أن خطر ببالي ونحن ندخل من الباب الأمامي. كان السبب هو انكسار الغصن المفاجئ!

* * *

-١٤-

كانت همسات تُسمع من قاعة الجلوس الكبيرة. ترددت ولكني لم أدخل، بل تمشيت في الممر، وبدافع الغريزة دفعت باباً أخضر. كان الممر من خلفي مظلماً لكن باباً انفتح فجأة مُظهراً لي مطبخاً كبيراً مضيئاً. وعند الباب وقفت امرأة كبيرة في السن، عجوز ضخمة تضع مريلة بيضاء نظيفة حول خصرها السمين، وحين رأيتها عرفت أن كل شيء كان على ما يرام... إنه الشعور الذي يسكن في قلبك حين ترى مدبرة المنزل ناني الطيبة.

أنا في الخامسة والثلاثين، لكنني أحسست أنني ولد صغير مطمئن في الرابعة من عمره! وقد عرفت أن مدبرة المنزل ناني لم تكن قد رأتني من قبل، لكنها قالت في الحال: أنت السيد تشارلز، أليس كذلك؟ ادخل إلى المطبخ ودعني أقدم لك كوباً من الشاي.

كان مطبخاً كبيراً وجميلاً. وجلست إلى الطاولة الوسطى فيما أحضرت ناني لي فنجاناً من القهوة وقطعتين من البسكويت على طبق، وأحسست أنني في الحضانة مرة أخرى... كل شيء كما يرام ولم تعد المخاوف من الظلمة والمجهول تنتابني!

قالت ناني: "ستكون الآنسة صوفيا مسرورة جداً لمجيئك، فهي متضايقة". ثم أضافت وقد تغير لون وجهها: عجباً! إنهم جميعاً في ضيق.

نظرت ورائي وقلت: أين جوزفين؟ لقد دخلت معي!

طقطقت ناني بلسانها استهجاناً: إنها تتنصت وراء الأبواب وتدوّن ما تسمع في ذلك الدفتر الصغير السخيف الذي تحمله حيثما ذهبت. كان يجب أن تذهب إلى المدرسة وتلعب مع أترابها من الأطفال... لقد قلت ذلك للآنسة إيديث ووافقتني، لكن السيد رأى أن تبقى هنا في البيت.

- أظن أنه كان يحبها كثيراً؟

- نعم؛ كان كذلك يا سيدي... كان يحبهم جميعاً.

بدا الذهول على وجهي قليلاً وأنا أتعجب: لماذا كان حب فيليب لذريته يُعبَّر عنه بصيغة الماضي؟ ولاحظت ناني ملامح الدهشة فاحمرّ وجهها قليلاً وقالت: عندما قلت «السيد» فإنما كنت أعني السيد ليونايدز العجوز.

وأردت أن أجيبها لكن الباب فُتح بقوة ودخلت صوفيا مندفعة. قالت: تشارلز!

ثم أضافت بسرعة تخاطب ناني: أنا سعيدة لأنه جاء يا ناني.

- أعلم أنك سعيدة يا حبيبتي.

جمعت ناني الآنية والأوعية وحملتها إلى حجرة الغسيل وأغلقت الباب وراءها، فنهضت وجئت إلى صوفيا وأمسكت بيدها قائلاً: عزيزتي، إنك ترتجفين! ما الأمر؟

- أنا خائفة يا تشارلز... خائفة!

- يا ليتني أستطيع أن آخذك بعيداً.

ابتعدت عني قليلاً وهزّت رأسها: لا؛ هذا مستحيل، يجب علينا أن نواصل حتى النهاية. لكنك تعرف -يا تشارلز- أنني لا أحب الإحساس بأن أحداً في هذا البيت أراه وأكلّمه كل يوم هو قاتل ماكر عديم الإحساس.

لم أعرف كيف أجيبها. إن المرء لا يستطيع أن يقدّم تطمينات لا معنى لها لفتاة مثل صوفيا. قالت: فقط لو نعرف من هو القاتل!

- هذا أسوأ ما في الأمر.

همست: أتدري ما الذي يخيفني؟ أننا قد لا نعرف أبداً.

كان يمكنني أن أتخيل هذا الكابوس... ربما يظل قاتل العجوز ليونايدز مجهولاً. ثم تذكرت سؤالاً تعمدت أن أسأله صوفيا؛ قلت لها: أخبريني يا صوفيا، كم واحداً في هذا البيت كان يعلم بأمر قطرة الإيسرين الخاصة بالعين؟ أقصد أن يعرف أنها عند جدك وأنها كانت قطرة سامة أو قاتلة؟

- فهمت مرادك يا تشارلز... لكن هذا لن يفيد؛ فكلنا كنا نعرف. كنا جميعاً نجلس ذات يوم مع جدي نحتسي القهوة في الدور

العلوي بعد تناول الغداء، وكان جدي يحب أن نجتمع حوله. وكانت عيناه تؤلمانه كثيراً فأحضرت بريندا الإيسرين لتنقط في كل عين قطرة. وقالت جوزفين التي تحب كثرة الأسئلة: "لماذا كُتب عليها «قطرة عين»؟". فابتسم جدي وقال: "لو أن بريندا أخطأت وحقنتني إبرة من قطرة العين في يوم ما بدلاً من الأنسولين فسينقطع نفَسي ويزرقّ وجهي ثم أموت، لأنَّ قلبي ليس قوياً". وعلّقت جوفين بشيء ما، ثم أكمل جدي حديثه فقال: "فعلينا أن نكون على حذر لكيلا تعطيني بريندا حقنة إيسيرين بدلاً من أنسولين، أليس كذلك؟".

وسكتت صوفيا قليلاً، ثم قالت: كنا جميعاً نصغي. هل عرفت؟ سمعنا ذلك جميعاً.

لقد فهمت حقاً... العجوز ليونايدز زودهم -صراحةً- بمسوَّدة خطة لقتله، فلم يكن على القاتل أن يرسم خطة أو يخترع شيئاً. لقد قدم الضحية نفسه أسلوباً سهلاً وبسيطاً يتسبب في موته!

تنهدت عميقاً، وأدركت صوفيا ما أفكّر فيه فقالت: نعم، إنه أمر مرعب، أليس كذلك؟

قلت ببطء: أتعرفين يا صوفيا؟ إنني أفكر في شيء واحد لا غير.

- وما هو؟

- لقد كنت على صواب لأن بريندا يستحيل أن تفعلها، لم تكن تستطيع فعل ذلك بتلك الطريقة تماماً، حيث كنتم جميعاً تستمعون وكلكم يتذكر ذلك الموقف.

- لا أدري، أحياناً تكون صامتة.

- كيف تكون صامتة إزاء ذلك كله؟ لا، لا يمكن أن يكون الفاعل بريندا.

ابتعدت صوفيا، ثم سألتني: ألا تريد أن تكون بريندا هي القاتلة؟

ماذا يمكنني أن أقول؟ لم أستطع... لم أستطع أن أقول صراحة: بلى، أرجو أن يكون القاتل هو بريندا! أشفقت عليها؛ فقد كانت وحدها في جانب وعداء عائلة ليونايدز القوية كان ضدها صفاً في الجانب الآخر. أهي الشهامة؟ نصرة الضعيف الذي لا يقوى على الدفاع عن نفسه؟ تذكّرتها وهي تجلس على الأريكة في ثوب الحداد الغالي واليأس تسمعه في صوتها والخوف تراه في عينيها...

ورجعت ناني في الوقت المناسب من حجرة الغسيل، ولعلها أحست توتراً بيني وبين صوفيا، فقد قالت باستنكار: تتحدثان في القتل؟ أنصحكما أن تكفّا عن ذلك وتتركاه للشرطة، إنه عمل بغيض من شأنهم هم وليس من شأنكما.

- ناني، ألا تدركين أن أحداً من أهل البيت هو القاتل؟

- هذا هراء يا آنسة صوفيا... لم أعد أطيق سماع ذلك. أليس الباب الأمامي مفتوحاً طول الوقت؟ كل الأبواب مفتوحة وكأنها تقول للّصوص: «ادخلوا»!

- لكن الفاعل لا يمكن أن يكون لصاً؛ فلم يُسرق من البيت شيء. ثم لماذا يدخل لص إلى البيت ويسمّم إنساناً؟

- لم أقل إنه لص يا آنسة صوفيا، إنما قلت إن الأبواب كلها كانت مفتوحة، ولذلك فأي واحد كان يمكن أن يدخل. ولو سألتِني عن القاتل لقلت إنهم الشيوعيون.

أومأت ناني برأسها علامة الارتياح، فسألتها صوفيا: ولماذا يريد الشيوعيون قتل جدي المسكين؟

- الناس يقولون إنهم وراء كل مصيبة... وإذا لم يكونوا الشيوعيين فإنهم الكاثوليك؛ إنهم جميعاً في الخبث سواء.

ذهبت ناني مرة أخرى إلى حجرة الغسيل. وضحكت أنا وصوفيا وقلت لها: إنها عجوز بروتستنتية متعصبة!

- نعم، إنها كذلك. هيا يا تشارلز، تعال إلى غرفة الاستقبال. هناك اجتماع عائلي منعقد... كان موعده هذا المساء لكنه بدأ مبكراً.

- إذن فالأفضل أن لا أتدخل يا صوفيا.

- إن كنت ستتزوج فتاة من العائلة فالأحسن أن ترى ما يكون عليه الأمر حين يُنزَع القفاز من اليد.

- وما هو موضوع الاجتماع؟

- شؤون روجر... لعلك تعرفها. لكن من الخبل أن تظنه قد قتل جدي؛ فقد كان روجر يحبه حباً شديداً.

- في الواقع لم أظن أن روجر هو الذي فعلها... كنت أرجّح أنها كليمنسي.

– ذلك فقط لأنني أقنعتك بهذه الفكرة... لكنك مخطئ أيضاً. لا أظن أن كليمنسي ستهتم ولو قليلاً لو أن روجر خسر كل أمواله. أظنها ستكون سعيدة بذلك... إن لديها رغبة عجيبة أن لا تملك شيئاً! هيا، ادخل.

دخلتُ مع صوفيا إلى غرفة الاستقبال فسكتت الأصوات التي كانت تتحدث فجأة، ونظر الجميع إلينا.

كانوا جميعاً هناك: فيليب على كرسي كبير قرمزي بين النافذتين ووجهه الجميل متجهّم حزين كأنه قاضٍ يوشك أن يقطع حكماً، وروجر على مقعد قرب الموقد يجلس منفرج الساقين وينفش شعره بأصابعه، وساق بنطاله اليسرى مثنية وربطة عنقه مائلة ووجهه محمرٌّ ثائر.

وجلست كليمنسي خلفه وقد بدت نحيلة على كرسي كبير. كانت تنظر بعيداً عن الآخرين كأنما تتفحص صور الحائط بنظرات هادئة. وجلست إيديث على كرسي الجد أريستايد منتصبة وهي تغزل الصوف بحركة سريعة وشفتاها مزمومتان.

وكان أجمل الحاضرين في الغرفة ماجدا ويوستيس. كانا كأنهما لوحة رسمها فنان، جلسا معاً على الأريكة، الولد الأنيق أسود الشعر متجهماً وإلى جانبه ماجدا وذراعها ممدودة خلف ظهره... دوقة البيت المائل في ثوب جميل.

قطب فيليب جبينه وقال: أنا آسف يا صوفيا... نحن نناقش شؤوناً عائلية ذات خصوصية.

قرقعت صنارتا الآنسة دي هافيلاند، وهممت أن أعتذر وأخرج لكن صوفيا سبقتني وقالت بوضوح وتصميم: أنا وتشارلز سنتزوج... وأريده أن يكون هنا.

قفز روجر عن مقعده فجأة وصاح: ولِمَ لا؟ كنت أقول لك يا فيليب إنه لا يوجد شيء خاص في هذا الأمر، لسوف يعلمه الناس جميعاً غداً أو بعد غد.

وجاء ووضع يده على كتفي بتودد وهو يقول: يا ولدي العزيز، أنت تعلم كل شيء عن الأمر... كنت هناك هذا الصباح.

صاحت ماجدا وهي تنحني: أخبرني، كيف هي سكوتلانديارد؟ إن المرء يتساءل عن ذلك كثيراً... طاولة؟ مكتب؟ كراسي؟ كيف ستائرها؟ أظن أنه لا يوجد زهور فيها أو مسجّل؟

سألني فيليب محتداً: هل كنت هناك هذا الصباح؟ لماذا؟ آه! والدك.

قطب جبينه ففهمت -أكثر من ذي قبل- أن حضوري لم يكن مرغوباً، لكن يد صوفيا كانت تقبض على ذراعي.

حركت كليمنسي كرسياً إلى الأمام وقالت: اجلس من فضلك.

نظرت إليها نظرة امتنان ووافقت على دعوتها. وقالت الآنسة دي هافيلاند قولاً عرفت منه أنها كانت تواصل الحديث الذي كانوا

فيه: قل ما تشاء، لكن علينا أن نحترم رغبة أريستايد. حين يتم تسوية أمر الوصية هذه فنصيبي كله تحت تصرفك يا روجر.

شد روجر شعره بقوة وصاح: لا يا خالتي إيديث... لا!

فيليب: يا ليتني أستطيع أن أقول الشيء نفسه، لكن على المرء أن يحسب لكل شيء حسابه.

- ألا تفهم يا عزيزي فيل؟ لن آخذ بنساً واحداً من أحد منكم.

صاحت كليمنسي فجأة: إنه لا يستطيع بالطبع.

ماجدا: على أية حال يا إيديث، إذا تم تقسيم الوصية فسوف يأخذ نصيبه.

يوستيس: ولكن ربما لا يتم تقسيمها الآن، أليس كذلك؟

فيليب: أنت لا تعلم شيئاً عنها يا يوستيس.

صاح روجر: الولد على صواب... لقد وضع إصبعه على الجرح! لا شيء سوف ينقذني من الكارثة... لا شيء!

كليمنسي: لا أرى شيئاً يستحق النقاش في الحقيقة.

روجر: على أية حال فلا شيء يهمني.

ضم فيليب شفتيه وقال: كنت أظن أنه يهمك كثيراً يا روجر.

- لا، لا. وماذا يهمني بعد أن مات أبي؟ وها نحن نجلس هنا نناقش فقط شؤون المال!

احمرّت وجنتا فيليب الشاحبتان قليلاً وقال بثبات: إننا نحاول المساعدة فقط.

- أعرف يا فيل... أعرف، ولكننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً. دعنا نقل إنه لم يبقَ سوى يوم واحد.

- أظن أنني أستطيع جمع مقدار من المال. لقد تدهورت السندات المالية كثيراً وبعض من رأس المال مشتغل في استثمارات معينة فلا أستطيع أخذها، فهي سداد لديون ماجدا، ولكن...

أدركته ماجدا بسرعة: إنك لن تستطيع جمع المال يا عزيزي. سيكون سخيفاً أن تحاول، كما أنه ظلم للأطفال.

فصاح روجر: لقد أخبرتكم أنني لا أطلب شيئاً من أحد منكم... لقد بُحّ صوتي وأنا أقول لكم ذلك. إنني راضٍ تماماً أن تأخذ الأمور مجراها.

- إنها مسألة سمعة اجتماعية... سمعة والدي وسمعتنا.

- لم يكن هذا من شأن العائلة بل كان شأني أنا وحدي.

قال فيليب وهو ينظر إليه: أجل، كان شأنك وحدك.

نهضت إيديث دي هافيلاند وقالت وفي صوتها نبرة هيمنة تؤثر في الحاضرين: أظن أننا ناقشنا هذا الأمر بما فيه الكفاية.

ونهض فيليب وماجدا، وخرج يوستيس من الغرفة في كسل فلاحظت الغرور في مشيته، لم يكن أعرج لكن مشيته مشية عرجاء.

وتأبط روجر ذراع فيليب وقال: إنك حلو المعشر يا فيل وإن يكن تفكيرك هكذا.

ثم خرج الأخوان معاً فيما همست ماجدا وهي تتبعهما: يا لها من جلبة!

وانصرفت صوفيا قائلة إنها ستتدبر أمر غرفتي، أما إيديث دي هافيلاند فوقفت تجمع صوفها، ونظرت إليّ فظننت أنها تريد محادثتي، كانت نظرتها توحي أنها تستغيث، لكنها غيرت رأيها وتنهدت وخرجت في عقب الذين قبلها.

وقفت كليمنسي عند النافذة تطل على الحديقة، فذهبت إليها فالتفتت وقالت: "الحمد لله، اللقاء انتهى". ثم أضاف بنفور: إنها غرفة عجيبة.

- ألا تحبينها؟

- لا أستطيع أن أتنفس وأنا فيها، فرائحة الزهور الميتة والغبار دائماً فيها.

لا أظن أنها كانت عادلة في وصف الغرفة، لكني فهمت ماذا قصدت؛ كانت تقصد ما بداخل الغرفة حتماً. كانت غرفة غريبة مريحة للنظر، مغلقة لا يعتريها تقلب الجو السيئ في الخارج. ولم تكن غرفة يكون الرجل فيها سعيداً لو مكث فترة طويلة، فأنت

لا تستطيع أن تستريح فيها أو تقرأ صحيفة وتمد قدميك، ومع ذلك كنت أفضّلها على غرفة كليمنسي البسيطة المجردة من الأثاث في الطابق العلوي.

نظرت كليمنسي حولها وقالت: إنها خشبة مسرح... لوحة خلفية من أجل ماجدا لتمثل عليها المشاهد. تشارلز، هل عرفت ما كنا نؤديه قبل قليل؟ المشهد الثاني... الاجتماع السري العائلي. لقد رتبته ماجدا، ولم يكن يعني شيئاً إذ لم يكن ثمة شيء نتحدث فيه أو نناقشه... كل شيء تمت تسويته. انتهى.

لم يظهر الحزن في صوتها، بل الرضا. ورأتني أنا أنظر إليها فسألتني بعجلة: ألا تفهم؟ أخيراً أصبحنا أحراراً! ألا تفهم أن روجر كان بائساً، بائساً تماماً... منذ سنوات عدة؟ لم يكن يرغب بهذا العمل. إنه يحب أشياء مثل الخيول والأبقار ويحب التسكع في الأرياف، لكنه كان يعشق والده... وكلهم كانوا مثله. ولم يكن العجوز طاغية ولم يؤذهم أبداً، وهم بقوا مخلصين له. هذا هو الأمر الطبيعي في هذا البيت... عائلة كبيرة جداً.

- أهذا أمر غير طبيعي؟

- أعتقد ذلك... أعتقد أنه عندما يكبر أطفالك فيجب أن تبتعد عنهم وتطلق سراحهم وتجبرهم على نسيانك.

- أجبرهم؟! هذه قسوة، أليس كذلك؟ أليس الإكراه عملاً سيئاً؟

- لو لم يصنع من نفسه تلك الشخصية!

- لا أحد يملك أن يصنع من نفسه شخصية... لقد كان قوي الشخصية بطبيعته.

- كانت شخصيته مؤثرة في روجر حتى النخاع! كان روجر يفعل كل ما يأمره به أبوه، وكان يسعى أن يكون الولد الذي يريده والده... ولم يستطع. نقل إليه ملكية شركة التجهيز الغذائي التي كانت سبب متعة العجوز وفخره، واجتهد روجر أن يتبع خطى أبيه لكنه لم يفلح. لم يكن يمتلك تلك القدرة، فهو غبي في الإدارة. أجل... أقولها صراحة وقد أوشكت أن أجرحه. إنه بائس! مكث سنوات يكافح ويرى المصلحة كلها تنهار وتخطر بباله أفكار «رائعة» فجأة وخطط كانت تزيد أمره سوءاً في كل يوم! كم هو مفزع أن تشعر أنك لا تجني غير الفشل سنة بعد أخرى! أنت لا تعلم كيف كان روجر بائساً، أما أنا فأعرف.

والتفتت مرة أخرى وواجهتني: خمّنتُ أنك اقترحت على الشرطة أن روجر ربما قتل والده من أجل المال... كم يبدو هذا سخيفاً!

قلت بتواضع: لقد أدركت الآن أنه سخيف.

- حين علم روجر أنه لا يستطيع أن يدرأ عن نفسه الكارثة وأنها متحققة الوقوع أحس بالارتياح. نعم، أحس بذلك. كان منزعجاً لأن والده عرف الأمر وليس لأي سببٍ آخر، وكان يتطلع إلى الحياة الجديدة التي كنا سنعيشها.

ارتعش وجهها وسكن صوتها. سألت: أين كنتما سترحلان؟

- إلى جزر الباربادوس. مات ابن عم لي بعيد قبل زمن قصير

وترك لي عقاراً صغيراً هناك... ليس بالشيء الكثير لكنه مكان كنا سنذهب إليه. كنا سنصبح فقراء بائسين لكننا سنكدّ في طلب العيش، وتكلفة العيش هناك زهيدة جداً. كنا سنعيش معاً دون قلق بعيداً عنهم جميعاً.

تنهدت ثم مضت قائلة: إن روجر رجل عجيب. كان سيقلق عليّ من الفقر، ففي ذهنه موقف عائلة ليونايدز نفسها من المال. عندما كان زوجي الأول حياً كنا فقيرَين جداً، ورأى روجر أن زواجه بي كان إنقاذاً، لكنه لم يدرك أنني كنت سعيدة وفقدت السعادة منذ ذلك الوقت!

وأغمضت جفنيها قليلاً ثم نظرت إليّ، وأدركت حدة شعورها حين أضافت قائلة: لم أحب ريتشارد أبداً كما أحب روجر... ولذلك فأنت ترى: ما كنت لأقتل أحداً من أجل المال، فالمال لا يغريني أبداً.

كنت متأكداً من أنها تعني ما تقول. كانت كليمنسي ليونايدز من القلة الذي لا يهمهم المال؛ إنها تكره الرفاهية وتحب الزهد والتقشف وتنظر إلى الأملاك نظرة ارتياب، ومع ذلك فهناك الكثير من الناس الذين لا يجذبهم المال ولكن القوة التي يمنحها المال لهم تغريهم.

قلت لها: لعلك لم تكوني تطلبين المال لنفسك... لكن المال إن صُرف بحكمة فَعَلَ الأعاجيب. ماذا لو وُضع في الأبحاث مثلاً؟

كنت أشك في أن كليمنسي كانت ذات طريقة غريبة في التفكير بالنسبة لعملها، لكنها قالت: أشك أن وقف الأموال على الأبحاث ينفع كثيراً. إن الأموال تُصرف في الطريق الخطأ، فالأشياء المهمة

ينجزها -عادة- أناس متحمسون ذوو رؤية واقعية. إن المعدات الغالية والتدريب والتجارب ليست أساساً في الإنجاز كما تظن، لأن الأيدي التي تستعملها غير أمينةِ غالباً.

- وهل تتركين عملك إذا سافرت إلى الباربادوس؟ أظنك ترغبين في الرحيل.

- آه، نعم؛ ساعة يأذن لنا الشرطة بذلك. لا، لن يزعجني ترك عملي بتاتاً، ولماذا أهتم؟ لم أكن أحب أن أكون عاطلة عن العمل، لكني لن أكون عاطلة عنه وأنا في الباربادوس. يا ليت هذا الأمر يتم كله بسرعة فنرحل قريباً!

- كليمنسي، أليست لديك أية فكرة عمّن يمكن أن يكون قد ارتكب الجريمة؟ إذا كنت وروجر غير متورطَين (وأنا لا أرى سبباً يدعوني لأظن ذلك في الحقيقة) فإنك بذكائك تعلمين شيئاً عمّن فعلها بالتأكيد، أليس كذلك؟

نظرت إليّ نظرة غريبة حادة من طرف عينها، وحين نطقت كان صوتها قد فقد عفويته، ولعلها كانت مرتبكةً بعض الشيء. قالت: المرء لا يستطيع أن يخمّن... هذا أمر غير علمي. فقط أقول إن بريندا ولورانس هما المشبوهان كما يبدو، ولا أزيد.

- إذن فأنت تشكّين فيهما؟

هزت كتفيها استهجاناً ووقفت لحظة كأنها تستمع، ثم خرجت من الغرفة مارةِ بإيديث دي هافيلاند عند الباب. وجاءت إليّ إيديث وقالت: أريد أن أتحدث إليك.

وثبت كلمات والدي إلى ذهني؛ هل كان هذا...

لكن إيديث دي هافيلاند كانت مستمرة في حديثها. قالت: أرجو أن لا تكون قد أخذت الانطباع الخاطئ... أقصد عن فيليب؛ فهو رجل يصعب فهمه. قد يبدو لك متحفظاً وفاتراً لكن الأمر ليس كذلك أبداً. إنها -فقط- عادة لا يمكنه التخلي عنها.

قلت: أنا في الحقيقة لم أفكر...

لكنها اندفعت تقاطعني قائلة: بشأن روجر... إنه لم يضنّ على أخيه بالمال، لم يكن أبداً بخيلاً بالمال، وهو -في الحقيقة- رجل محبوب... كان دائماً رجلاً محبوباً، لكنه لا يجد من يفهمه.

نظرت إليها نظرة مَن يرغب في أن يفهم، فأكملت: لعل سبب ذلك أن فيليب هو الولد الثاني في العائلة، وهناك شيء يتعلق بالطفل الثاني في الغالب. لقد أعطاهما أبوهما فرصة متساوية، وكان روجر يحب والده كثيراً... كل أفراد العائلة كانوا يحبون أريستايد وهو أحبهم كذلك... أما روجر فكان مصدر فخره وفرحه الخاصين لأنه الأكبر والأول، وأعتقد أن فيليب أحسّ بذلك فعكف على نفسه وجعل يبحث في الكتب والماضي وأشياء لا تتصل بالحياة اليومية. أظن أنه عانى... وكم يعاني الأطفال!

سكتت قليلاً ثم أضافت: الذي أعنيه -في الحقيقة- أنه كان يغار من روجر دائماً، وربما لم يكن يدرك ذلك في نفسه لكني أظن أن موقفه بخصوص فشل روجر في عمله... أنا متأكدة أنه لم يكن يدرك ذلك، لكن الذي أريد قوله أن فيليب ربما لم يأسف على أخيه كما كان يجب.

- أي أنه كان مسروراً لأن روجر قد أخفق في عمله؟

قالت: "نعم، أعني هذا تماماً". وعبست قليلاً ثم أضافت: لقد آلمني أنه لم يعرض على أخيه المساعدة فوراً.

- ولماذا يفعل؟ إن روجر قد أفسد الأمور، وهو رجل ناضج وليس له أطفال كي يفكر في مستقبلهم. ولو كان مريضاً أو كان في عوز حقيقي لكانت عائلته ستساعده بالطبع، لكني أجزم أن روجر يفضّل أن يبدأ حياة جديدة تماماً على عاتقه هو.

- آه، لقد كاد يفعل ذلك! لا يهمه إلا كليمنسي، وكليمنسي مخلوقة غير طبيعية... تحب كثرة التنقل وأن يكون لها كوب شاي واحد تشرب به! لعلها امرأة عصرية لا تفهم الماضي ولا الجمال.

أحسست بأن عينيها الداهيتين تمعنان النظر إليّ. قالت: هذه محنة قاسية لصوفيا... إنني آسفة جداً لأن شبابها سيذبل بسبب هذا الأمر. أنا أحبهم جميعاً: روجر وفيليب، والآن صوفيا ويوستيس وجوزفين... أحب الأطفال كلهم. نعم، إنني أحبهم كثيراً.

وسكتت قليلاً ثم أضافت بحدة: لكنني أذكّرك بأن الحب أعمى.

ثم استدارت فجأة وذهبت. لا بد أنها عنت بكلمتها الأخيرة شيئاً محدداً، لكني لم أفهمه تماماً.

* * *

-١٥-

قالت صوفيا: غرفتك جاهزة.

وقفت بجانبي تنظر من النافذة إلى الحديقة التي ظهرت كئيبة وجرداء -في هذا الوقت من السنة- بالأشجار نصف العارية التي كانت تتمايل مع الريح، ونظرت ملياً ثم قالت: تبدو مقفرة.

وبينما كنا ننظر هناك إذ خرج من خلال سياج الحديقة شخص يتبعه آخر، بدا الاثنان شبحين في الضوء الخافت، وكانت بريندا ليونايدز هي الشخص الأول. كانت بريندا تتلفع بمعطف رمادي صوفيّ وكانت تتحرك خلسة كالقطة، فقد انسلّت تحت ستر الشفق برشاقة غريبة. ورأيت وجهها عندما مرت أمام النافذة، كانت شبه مبتسمة تلك الابتسامة الخادعة التي لاحظتها في الطابق العلوي. وبعد ذلك ببضع دقائق أطلّ لورانس براون نحيلاً مذعوراً يتسلل خلال الشفق أيضاً.

لم يكونا مثل اثنين يتمشيان أو كشخصين خرجا للتنزه معاً، كان في حركتهما أمر مريب وغامض. هل كان الغصن المقصوف قد

انقصف تحت قدم بريندا أو لورانس؟ وبربط منطقي للأفكار سألت: أين جوزفين؟

- ربما في قاعة الدرس مع يوستيس.

وقطبت جبينها وقالت: أنا قلقة على يوستيس يا تشارلز.

- لماذا؟

- إنه غريب الأطوار متقلب المزاج، وقد تغيرت حاله منذ ذلك الشلل الفاجع. لا أستطيع أن أعرف تماماً ماذا يدور في ذهنه... يبدو أحياناً وكأنه يكرهنا جميعاً.

- سيكبر وتتغير حاله... إنها مجرد مرحلة عابرة.

- ربما، لكنني قلقة جداً يا تشارلز.

- لماذا يا حبيبتي؟

- لأن أمي وأبي لا يقلقان أبداً، إنهما ليسا كأي أم وأب آخرين.

- ربما كان ذلك أفضل؛ لأن أكثر الأطفال يعانون من تدخّل الوالدين.

- أجل، أنا لم أفكر في هذا حتى رجعت من الخارج. لكنهما زوجان غريبان في الحقيقة؛ والدي يعيش في عالم تاريخي غامض مجهول، ووالدتي تعيش وقتاً ممتعاً في خلق المشاهد... وما تلك السخافة التي شاهدتها هذا المساء من غير حاجة ولا ضرورة إلا من

اختلاق والدتي. لقد أرادت أن تمثل مشهداً لاجتماع عائلي سري... إنها تشعر بالملل هنا فتحاول أن تصنع تمثيلية!

في تلك اللحظة تخيلت ماجدا وهي تسمم حماها العجوز دون اهتمام لكي تشاهد تمثيلية في جريمة قتل تقوم هي بلعب الدور الرئيسي فيها... كانت فكرة مسلية! وصرفت التفكير عنها لكنها لبثت تخيفني بعض الشيء.

وقالت صوفيا: كان ينبغي أن تلقى أمي العناية طول الوقت، فلا أحد يعرف أبداً ماذا تنوي أن تفعل.

قلت لها بقوة: انسي أمر عائلتك يا صوفيا.

- سأكون مسرورة لو فعلت ذلك، لكن هذا صعب نوعاً ما في الوقت الحالي. لقد كنت سعيدة في القاهرة عندما نسيتهم جميعاً.

تذكرت كيف أن صوفيا لم تذكر أبداً أي شيء عن بيتها أو أهلها وهي هناك. وسألتها: هل كان هذا هو السبب الذي جعلك لا تتحدثين عنهم؟ ألأنك كنت تريدين نسيانهم؟

- نعم، كنا نعيش جميعاً متعاونين يحب بعضنا بعضاً كثيراً ولم نكن كبعض العائلات التي يتبادل أفرادها الكراهية. لا بد أن الكراهية أمر سيء جداً، لكن الأسوأ منه أن تعيش في ظل مشاعر متضاربة ومتشابكة.

ثم أضافت بعد سكوت قصير: أعتقد أن هذا ما عنيته عندما قلت إننا كنا جميعاً نعيش معاً في بيت صغير مائل... لم أكن أقصد

بذلك أنه كان مائلاً بالمعنى الخادع للكلمة، أعتقد أن ما كنت أعنيه هو أننا لم نكن قادرين على أن نكبر مستقلين ونعتمد على أنفسنا بطريقة مستقلة وكأننا كنا نعاني من التواء أو انحراف.

وتخيلت إيديث دي هافيلاند تطحن بكعب حذائها تلك الأعشاب حينما كانت صوفيا تضيف قائلة: إننا مثل اللبلاب!

وفجأة فتحت ماجدا الباب بعنف ودخلت وهي تصيح: حبيبيّ، ألا تنيران الأضواء؟ إن المكان مظلم.

ثم ضغطت الأزرار فأنارت مصابيح الجدران والطاولات، وأسدلنا الستائر الوردية الثقيلة فأصبحنا في جو يوحي بالأزهار. صاحت ماجدا وهي تلقي بنفسها فوق الأريكة: يا له من مشهد! كم كان يوستيس غاضباً... لقد ساءه المشهد كثيراً، كم هم غرباء هؤلاء الأولاد!

وتنهدت ثم مضت تقول: روجر رجل محبوب... أنا أحبه عندما ينكش شعره ويبدأ بإلقاء أشيائه على الأرض! ألم يكن لطفاً من إيديث أن عرضت عليه نصيبها من التركة؟... وقد كانت صادقة فعلاً فلم يكن عرضها حركة تمثيلية... لكنه عرض أحمق؛ فلعلها جعلت فيليب يظن أن عليه أن يفعل مثلها هو الآخر. إن إيديث تفعل أي شيء من أجل العائلة... إن في حب العانس لأولاد أختها شيئاً محزناً... في يوم من الأيام سأمثل دور واحدة من الخالات العوانس المخلصات، إنهن فضوليات وعنيدات ومخلصات.

قلت محاولاً أن أغير حديث ماجدا عن أدوارها: لا بد أن

وفاة أختها كانت قاسية عليها، أقصد إن كانت تكره العجوز ليونايدز كثيراً...

قاطعتني ماجدا: تكرهه؟! من أخبرك بهذا؟ هراء، بل كانت تعشقه.

قالت صوفيا: أمي!

- لا تحاولي أن تعارضيني يا صوفيا. من الطبيعي أنك في مثل سنك تعتقدين أن الحب يقع فقط بين شابين جميلين.

- لقد أخبرتني أنها كانت تكرهه يا سيدتي.

- ربما كانت تكرهه عندما جاءت هنا أول مرة. في البداية كانت غاضبة من أختها لأنها تزوجته، لكنها أحبته بعد ذلك بلا ريب. إنني أعلم ما أقول يا عزيزتي... أريستايد لم يستطع بالطبع الزواج بها لأنها أخت زوجته الميتة، وأعتقد أنه لم يفكر بهذا الأمر أبداً... ولا هي فكرت فيه حسب ظني. لقد كانت سعيدة برعاية الأطفال والشجار معهم لكنها لم تكن سعيدة عندما تزوج بريندا... لم تحب ذلك أبداً.

قالت صوفيا: ولا أنت أحببت ذلك ولا أبي.

- كرهنا ذلك جميعاً، وهذا أمر طبيعي. لكن إيديث كرهت زواجه أكثر منا كلنا... يا ليتك رأيتها وهي تنظر إلى بريندا!

- أمي!

نظرت ماجدا إلى ابنتها نظرة تودد فيها شعور بالإثم، ثم أكملت

حديثها بلا ترابط: لقد قررت أن أرسل جوزفين إلى المدرسة.

- جوزفين؟ إلى المدرسة؟

- نعم، إلى سويسرا. سأبحث الأمر غداً... كنت أحسب أننا نستطيع أن نبعثها فوراً، فمن السيئ أن تعيش في جو فظيع كهذا، لقد أصبحت كئيبة جداً بسببه. إنها تحتاج لمصاحبة أطفال في مثل سنها... حياة مدرسية، كنت أفكر فيها كثيراً.

قالت صوفيا ببطء: لم يُرد جدي لها أن تدخل المدرسة، كان ضد هذه الفكرة.

- كان عزيزنا العجوز يحب أن نكون حوله جميعاً، وهذه من أنانية الشيوخ غالباً؛ فالطفلة تحبّ أن تكون بين أطفال، كما أن في سويسرا رياضات الشتاء وهي مكان صحي تماماً وفيها هواء عليل، والطعام هناك أفضل من الطعام عندنا بكثير.

- أليس سفرها إلى سويسرا صعباً مع القيود المفروضة على تحويل العملة هذه الأيام؟

- هذا غير مهم يا تشارلز؛ فللنفقات التعليمية استثناء خاص، أو يمكن أن نبادل نفقتها بنفقة طفلة سويسرية هنا... توجد طرق كثيرة لذلك. إن رودلف أليستير في لوزان، وسوف أبرق له غداً ليهيئ كل شيء ونبعثها في نهاية هذا الأسبوع.

ضربت ماجدا وسادة وابتسمت لنا، ثم قامت نحو الباب حيث وقفت لحظة وهي تنظر إلينا بطريقة ساحرة ثم ذهبت.

تنهدت صوفيا: أمي تغيظ بهذه الأفكار المفاجئة... تبعث آلاف البرقيات وتريد أن يتم كل شيء في لحظات! لِمَ هذه العجلة في إرسال جوزفين إلى سويسرا؟

- ربما يكون في فكرة المدرسة صلاح لجوزفين وهي بين أترابها من الأطفال.

- جدي لم يكن يعتقد ذلك.

شعرت ببعض الغيظ: عزيزتي صوفيا، هل تصدقين حقاً أن رجلاً عجوزاً أربى على الثمانين هو أفضل من يحكم بمصلحة طفل؟

- كان أفضل حكم تقريباً لأي شخص في هذا البيت.

- أكان خيراً من خالتك إيديث؟

- ربما لا، فقد كانت خالتي تفضل المدرسة لجوزفين. إن جوزفين ذات خصال صعبة أحياناً؛ لقد اكتسبت صفة التطفل القبيحة، لكنني أظن هذا بسبب قيامها بتمثيل أدوار رجال التحري.

تساءلت: ترى لماذا رأت ماجدا فجأة إرسال جوزفين؟ أهو اهتمام بصالح جوزفين؟ جوزفين كانت على علم تام بكل ما جرى قبل الجريمة ولم يكن ذلك من شأنها حتماً، وربما تفيدها الحياة الصحية في المدرسة مع وجود الكثير من الألعاب فائدة كبيرة...

لكنني تعجبت فعلاً من المفاجأة والإصرار في قرار ماجدا، فقد كانت سويسرا بلداً بعيداً.

* * *

-١٦-

كان أبي قد أوصاني فقال: دعهم يتحدثون إليك.

وبينما كنت أحلق لحيتي في صباح اليوم التالي جعلت أفكر فيما وصلت إليه في هذا الأمر. تحدثت إيديث دي هافيلاند معي، وتحدثت معي كليمنسي، وتحدثت معي ماجدا -بشكل أو بآخر- لأنني كنت واحداً من مشاهد مسرحياتها. ومن الطبيعي أن صوفيا قد تحدثت معي، وحتى ناني فعلت ذلك. فهل كنت مدركاً ما علمته منهم جميعاً؟ هل كانت كلمة أو جملة ذات دلالة ما؟ وهل رأيت دليلاً على ذلك الغرور الشاذ الذي ألحّ عليه والدي؟ لا، لم أرَ مثل ذلك الدليل.

كان الرجل الوحيد الذي لم يرغب في الحديث معي بأي طريقة وفي أي شأن هو فيليب، أفلم يكن ذلك شذوذاً؟ لا بد أنه عرف أنني أريد الزواج بابنته، ومع ذلك مضى في تصرفه كأنني لم أكن موجوداً أصلاً! أظنه كان مستاءاً من حضوري هناك، وقد اعتذرت لي إيديث عنه وقالت إن تلك هي «عادته»... أرادت أن تظهر أنها معنية بفيليب، لماذا؟

فكرت في والد صوفيا: رجل مكبوت حقاً، وكان في طفولته بائساً غيوراً، فلما صار رجلاً انطوى واعتزل وغاب في عالم الكتب، في التاريخ الماضي؟ الفتور والتحفظ ربما يخفيان عنده إحساساً كبيراً بالسخط. إن دافع كسب المال من موت والده لم يقنعني... لا أظن أبداً أن فيليب ليونايدز يقتل أباه لأجل المال.

ولكن هل كان يوجد دافع نفسي خفي؟ عاد فيليب ليعيش في بيت والده، ثم جاء روجر إثر الغارة الجوية فنشأ في نفس فيليب حسد لأخيه أن يكون هو المحبوب عند والده. هل خطر في ذهنه المعذب أن الراحة والخلاص هما في موت العجوز وأن هذا الموت سوف يجرّم أخاه الأكبر لأن روجر كان يعوزه المال؟ هل يكون فيليب قد اعتقد (وهو لا يعلم شيئاً عن آخر لقاء بين روجر وأبيه حين عرض الوالد المساعدة على روجر) أن الدافع يبدو قوياً جداً ويجعل روجر مشبوهاً على الفور؟ هل كان اضطراب فيليب النفسي يدفعه للجريمة؟

جرحت الشفرة ذقني!

ما الذي كنت أحاول عمله؟ هل أردت أن أوقع والد صوفيا في جريمة القتل؟ هل كان هذا شيئاً حسناً لأفعله؟ كلا، لم ترد صوفيا أن آتي لأجل هذا. أم أن ذلك هو ما أرادته؟ لقد كان في مناشدة صوفيا كي أجيء شيء ما. لو بقي في رأسها بقية اشتباه في والدها أنه هو القاتل إذن فلن ترضى بالزواج بي أبداً، ولأنها صوفيا الجريئة الحصيفة فقد أرادت كشف الحقيقة لكيلا يكون الغموض سوراً منيعاً بيننا.

ألم يبدُ أن صوفيا تقول لي: "أثبت أن هذا الشيء المفزع الذي أتخيله ليس صحيحاً، وإن كان صحيحاً فاكشف لي حقيقته حتى أعلم الأسوأ وأواجهه"؟

هل تعرف إيديث دي هافيلاند أن فيليب مذنب أم تشك فيه؟ ما الذي عنته بعبارة «الحب الأعمى»؟ وكليمنسي، ماذا كانت تعني بنظراتها الغريبة إليّ حين سألتها فيمَن تشتبه فقالت: "أقول إن لورانس و بريندا هما المشبوهان و لا أزيد"؟

كانت العائلة كلها تتوق لأن يكون القاتل لورانس و بريندا، لكنهم -في الحقيقة- يكادون يعلمون يقيناً أن هذا غير صحيح. وقد تكون العائلة كلها مخطئة، وربما يكون الفاعل هو بريندا ولورانس... أو ربما يكون لورانس من دون بريندا، وهذا حل أفضل كثيراً.

ضمّدت جرح ذقني ونزلت إلى الإفطار وأنا عازم على أن أقابل لورانس براونس في أسرع وقت، وقد تبيّن لي وأنا أشرب فنجان القهوة الثاني أن البيت المائل قد أثّر فيّ أنا الآخر؛ فأنا أيضاً كنت أسعى وراء الحل المناسب أكثر من الحل الحقيقي.

ذهبت بعد الإفطار عبر القاعة وصعدت الدرج حيث يعلّم لورانس يوستيس وجوزفين في قاعة الدرس. وترددت وأنا عند مصطبة الدرج عند باب جناح بريندا: هل أقرع الجرس وأطرق الباب أم أدخل مباشرة؟ ثم قررت أن أتعامل مع البيت كبيت لينونايدز المتكامل وليس كمسكن بريندا الخاص، ففتحت الباب ودخلت.

كان كل شيء هادئاً ولا أحد هناك. عن يساري كان باب قاعة الاستقبال الكبيرة مغلقاً وعن يميني رأيت بابين مفتوحين يؤديان إلى

غرفة نوم وحمام، وعرفت أن هذا الحمام هو حمام غرفة أريستايد ليونايدز حيث يحفظ الإيسيرين والأنسولين.

الشرطة كانوا قد أنجزوا عملهم هناك، وفتحت الباب ودخلت فأدركت كم هو سهل أن يصعد أي واحد في البيت أو من خارجه إلى هنا ويدخل الحمام ولا يراه أحد.

وقفت في الحمام أنظر حولي. كان مجهزاً تجهيزاً مترفاً برقائق الفلين البراق وحوض عميق وأجهزة كهربائية مختلفة، وطبق حار من تحته سخان وغلاية وطنجرة كهربائية صغيرة ومحمصة كهربائية... وكل شيء قد يحتاج إليه عجوز.

وكان على الحائط خزانة بيضاء مزخرفة، فتحتها فرأيت فيها أجهزة طبية وكأسين للأدوية وغاسل عين وقطرة عين وقوارير مكتوباً عليها إرشادات، ورأيت أسبريناً ومسحوق البوريك ويوداً وضمادات لاصقة وغيرها. وعلى رف آخر كان مخزون الأنسولين المكدس وإبرتان للحقن وزجاجة مطهر، وعلى رف ثالث رأيت زجاجة مكتوباً عليها «أقراص، حبة أو حبتان في الليل عند اللزوم».

لا شك أن قطرة العين كانت على هذا الرف الثالث. كان كل شيء واضحاً منظماً يسهل على أي واحد الوصول إليه إذا أراد الإعداد لجريمة قتل!

كنت أستطيع أن أفعل ما أشاء في الزجاجات ثم أخرج بهدوء وأنزل إلى الطابق السفلي مرة أخرى من غير أن يشعر بي أحد... ما أصعب مهمة الشرطة!

تافيرنر كان قد قال لي: ضايقهم، اجعلهم في نشاط دائم، أوحِ إليهم أننا على وشك كشف الحقيقة، أعلن ما تفعله بينهم... فإن فعلنا ذلك فإن مجرمنا سوف يمل انزواءه ويحاول أن يكون أشد ذكاء، وعندئذ نمسك به.

لكن المجرم لم يستجب حتى الآن بأي شيء لهذا العلاج!

خرجت من الحمام فوجدت المكان ما يزال خالياً، ومشيت عبر الممر فمررت بغرفة الطعام عن يساري وغرفة نوم بريندا وحمامها عن يميني. وكانت إحدى الخادمات تتحرك في هذا الحمام وكان باب غرفة الطعام مغلقاً، ثم من غرفة وراءها سمعت صوت إيديث تتصل ببائع السمك بالهاتف.

كان هناك درج لولبي يؤدي إلى الطابق الأعلى، فصعدته وأنا أعلم أن غرفة نوم إيديث ومجلسها وحمامين آخرين وغرفة لورانس براون كلها هنا، ثم رأيت درجاً قصيراً ينزل إلى غرفة كبيرة مبنية فوق جناح الخدم في آخر البيت، وكانت الغرفة هي قاعة التدريس.

وقفت بالباب، وكنت أسمع صوت لورانس براون يعلو قليلاً من داخل القاعة. لقد وجدت عادة جوزفين، التطفل، مغرية؛ فاستندت على حافة الباب وجعلت أتنصت بلا خجل. كان لورانس يلقي درساً في التاريخ الفرنسي، ودُهشت كثيراً وأنا أصغي؛ فقد اكتشفت أنه مدرس رائع!

ولماذا أدهشني ذلك كثيراً؟ لقد كان أريستايد ليونايدز يختار الرجال بشكل جيد دائماً، ولعل قدرة لورانس على إثارة حماسة

تلامذته وخيالهم جاءت بسبب مظهره الخارجي الذي يشبه الفأر! إن دراما ثيرميدور ومرسوم الحرمان ضد الروبسبيرست وروعة باراس وبراعة فوشي الملازم الشاب في مدفعية نابليون الذي عانى الحرمان... كل هذه كانت حقيقية وحية.

وسكت لورانس فجأة وسأل يوستيس وجوزفين سؤالاً جعلهما يضعان نفسيهما مكان شخصية في الدراما، فلم يحصل على إجابة جيدة من جوزفين التي كان صوتها كمن أصابه نزلة برد. أما يوستيس فظهر مختلفاً تماماً عن مزاجه النفسي المعتاد، فقد أجاب بذكاء وعقل وفهم بارع للتاريخ ورثه عن والده بلا ريب.

ثم سمعت صرير كراسي تدفع إلى الوراء فرجعت وصعدت الدرج حتى أبدو وكأني قد نزلت لتوي عندما يُفتح الباب. خرج يوستيس وجوزفين من قاعة الدرس، فقلت: مرحباً.

دُهش يوستيس وسأل بأدب: هل تريد شيئاً؟

وانسلّت جوزفين من ورائي بلا اكتراث. قلت ببرود: كنت أريد أن أرى قاعة الدرس.

- ألم ترَها أمس؟ إنها مكان للأطفال فقط، وقد كانت حضانة وما زال فيها كثير من لعب الأطفال.

فتح لي الباب فدخلت. كان لورانس براون يقف عند الطاولة فلما رفع بصره احمرّ وجهه وهمس شيئاً رداً على تحيتي وخرج مسرعاً. قال يوستيس: لقد أخفته؛ إنه يخاف بسرعة.

- هل تحبه يا يوستيس؟

- لا بأس به... إنه رجل ممتلئ رهبة.

- لكنه ليس مدرّساً سيئاً.

- نعم؛ إنه ذو أسلوب مشوّق وهو واسع المعرفة، يجعلك ترى الأشياء من زاوية مختلفة. لم أكن أعرف أن هنري الثامن كان يكتب الشعر إلى آن بوليس... وكان شعراً جيداً.

تحدثنا قليلاً في أمور شتى مثل قصيدة «البحار القديم» والأهداف السياسية للحروب الصليبية وحياة القرون الوسطى والحقيقة التي أدهشت يوستيس عن أوليفر كرومويل الذي منع حفلات عيد الميلاد؛ فأدركت أن في أسلوب يوستيس عقلاً قادراً وباحثاً رغم غروره والتواء نفسيته.

وفي الحال بدأتُ أدرك سبب سخريته؛ فلم يكن مرضه محنة مخيفة فقط، بل جعله فتى محبطاً وسبّبَ له الانتكاس وهو في مطلع حياته. وقال يخاطبني: كان يجب أن أدخل الصف الحادي عشر في العام القادم. لا أطيق أن أقعد في البيت وأدرس مع طفلة فاسدة مثل جوزفين... إنها في الثانية عشرة من عمرها!

- نعم، لكنك لا تأخذ الدروس نفسها، أليس كذلك؟

- بالطبع؛ إنها لا تدرس الرياضيات المعاصرة ولا اللغة اللاتينية، لكنك لا تحب أن تتقاسم معلماً مع فتاة.

حاولت أن أهدئ غروره الرجوليّ المجروح، فقلت له إن جوزفين فتاة ذكية جداً وإن كانت في الثانية عشرة.

- هل تظن ذلك؟ أنا أراها فتاة حمقاء جداً لكنها بارعة حاذقة في أعمال التحري، تدور وتدس أنفها في كل مكان وتكتب أشياء في دفتر أسود صغير وتتظاهر بأنها تكتشف الكثير... طفلة سخيفة ليس غير. وعلى كل حال فالفتيات يعجزن عن أعمال التحري، لقد أخبرتها هذا. أظن أن أمي كانت على صواب تماماً، فأفضل شيء أن ترحل إلى سويسرا بسرعة.

- ألن تفتقدها؟

رد يوستيس بغطرسة: أفتقد طفلة في هذا العمر؟ طبعاً لن أفعل. يا إلهي!

وسكت قليلاً ثم أكمل قائلاً: في هذا البيت تكمن النهاية الأبدية؛ أمي تسافر إلى لندن وتجبر كتّاب الروايات على أن يكتبوا لها مسرحيات، وأبي يوصد باب المكتب على نفسه ويقبع مع كتبه وأحياناً لا يسمعك إذا حدثته... لا أدري كيف أحتمل الإرهاق مع والدين غريبين مثلهما؟ والعم روجر عنيف يجعلك ترتعد، أما زوجته كليمنسي فلا بأس بها؛ لا تزعجني لكني أظنها معتوهة قليلاً. والخالة إيديث ليست سيئة كثيراً لكنها طاعنة في السن وتغضب كثيراً... لكن الأمور تحسنت قليلاً منذ عودة صوفيا. ألا ترى أن أهل البيت غريبو الأطوار؟ فلدينا زوجة جد شابة لتكون عمتنا أو أختنا الكبيرة... أعني أن هذا يجعلك تشعر بالكراهية!

كنت أدرك بعضاً من أحاسيسه هذه؛ كأني تذكرت حالي وأنا في مثل عمره وكيف كنت أخشى أي شيء قد يعرّضني للسخرية أو الشفقة. قلت له: وماذا عن جدك؟ أكنت تحبه؟

ظهرت على وجه يوستيس تعبيرات غريبة وهو يقول: كان جدي ضد الاشتراكية.

- كيف؟

- لم يكن يفكر إلا في الأرباح، ولورانس يقول إن هذا خطأ كبير. وكان جدي مستبداً لا يحب إلا أن يأمر فيُطاع، ألا تظن ذلك؟

قلت بقسوة: على كل حال لقد مات.

- لا أريد أن أكون غليظ القلب، لكنك لا تستمتع بالحياة عند الشيخوخة.

- ألم يستمتع بالحياة؟

- لم يكن يستطيع ذلك، وعلى كل حال فقد مضى وقت على رحيله. إنه...

سكت يوستيس وقد عاد لورانس براون إلى القاعة، وبدأ لورانس يثير جلبة وهو يتصفح كتبه لكني أحسست أنه كان يراقبني بطرف عينه، نظر إلى ساعته وقال: أرجو أن تحضر في الساعة الحادية عشرة تماماً يا يوستيس؛ لقد ضيّعنا وقتاً كثيراً في الأيام الأخيرة الماضية.

- حسناً يا أستاذي.

مشى يوستيس نحو الباب متكاسلاً وخرج وهو يصفر، في حين رمقني لورانس براون بنظرة أخرى حادة وبلل ريقه مرة أو مرتين. كنت

مقتنعاً أنه ما رجع إلى قاعة الدرس إلاّ ليتحدث معي.

جمع الكتب ثم بعثرها دون غرض ليتظاهر أنه كان يبحث عن كتاب مفقود، ثم قال: كيف يسير عملهم؟

- عملهم؟

- الشرطة.

ارتعش أنفه، وقلت في نفسي: "وقع الفأر في المصيدة"! أجبته: إنهم لا يطلعونني على أسرارهم.

- كنت أظن أن والدك هو مساعد المفوض، أليس كذلك؟

- بلى، لكنه لا يفشي الأسرار الرسمية.

تعمدت أن أجعل نبرة الغرور في صوتي. قال: إذن فأنت لا تعلم كيف... ماذا... إذا...

ثقل لسانه وهو يقول: إنهم لن يقوموا باعتقال أحد، أليس كذلك؟

- ربما.

لقد أوصاني المفتش تافيرنر بأن أجعلهم في نشاط مستمر... أجعلهم يثرثرون. حسناً، لقد جعلت لورانس براون يثرثر.

بدأ يتكلم بسرعة وعصبية: أنت لا تعرف الحال... الانفعال... لا تعرف ماذا هناك. يأتون ويروحون ويسألون الأسئلة... أسئلة سمجة لا علاقة لها بالقضية.

سكت، فانتظرته. همّ أن يتكلم. حسناً، فلأدعه يتحدث.

- أكنت حاضراً حين تحدث رئيس المفتشين ذلك الكلام الفظيع في ذلك اليوم بشأن السيدة ليونايدز وشأني؟ إنها فكرة رهيبة تجعل المرء يشعر بالعجز. كيف تمنع الناس من التفكير في أشياء سخيفة وكاذبة؟ فقط لأنها كانت تصغر زوجها بسنوات؟ إن الناس لهم عقول فظيعة! إنني أشعر... أكاد لا أملك نفسي. أشعر أن كل هذا مؤامرة!

- مؤامرة؟ هذا أمر مثير.

كان كلامه مثيراً وإن لم يكن على النحو الذي فهمه تماماً.

- إن العائلة، عائلة ليونايدز، لم تكن تعطف عليّ يوماً. كانوا قساة عليّ دوماً... وقد أحسست أنهم يحتقرونني.

بدأت يداه ترتجفان، وأردف قائلاً: لأنهم الأغنياء والأقوياء كانوا يزدرونني! ماذا كنت بالنسبة لهم؟ مجرد معلم معارض حي الضمير، وقد كانت معارضتي صحيحة ونابعة من فكر سليم.

لم أقل شيئاً، ولم يلبث أن انفجر قائلاً: لا بأس، ماذا لو كنت خائفاً؟ أخاف من فشلي في تبرئة نفسي... أخاف أن لا أستطيع أن أسحب الزناد عندما يتوجب عليّ ذلك... كيف تتبين أن الذي تقتله نازي؟ ربما كان ولداً مهذباً أو شخصاً قروياً ليست له ميول سياسية وإنما تمت دعوته للخدمة في جيش بلاده. أظن أن الحرب عمل خاطئ، هل تفهم ما أعنيه؟ أعتقد أنها خطأ.

بقيت صامتاً، وأظن أن صمتي كان يحقق أكثر مما تفعله

المنازعات والمجادلات. كان لورانس براون يجادل نفسه، وكان في جداله يكشف كثيراً مما في نفسه.

ثم قال بصوت مرتجف: كان الجميع يضحكون مني دائماً... يبدو أنني أملك موهبة في جعل نفسي أبدو سخيفاً. ليس الأمر أنني أحتاج إلى شجاعة لكنني أعمل الشيء بطريقة خاطئة دائماً. ذهبت مرة إلى بيت تشتعل فيه النيران لكي أنقذ امرأة تحاصرها النار، لكني ضللت الطريق وخنقني الدخان ففقدت وعيي، فبذل رجال الإطفاء جهداً كبيراً حتى أخرجوني. وسمعتهم يقولون: "لماذا لم يترك هذا الأحمق الأمر لنا؟". إن محاولتي لم تكن نافعة وكلهم وقفوا ضدي. وأياً كان هذا الذي قتل السيد ليونايدز فقد أحكمها حتى ألبسنيها... قتله أحدهم لكي يحطّمني!

- وماذا عن السيدة بريندا؟

احمرّ وجهه... لم يعد فأراً بل أصبح رجلاً. قال: السيدة بريندا امرأة عظيمة، رقة قلبها ولطفها مع زوجها الكهل كانا رائعين. إن التفكير بأنها سممت زوجها أمر مثير للضحك... وذلك المفتش الغبي لا يفهمها.

- ربما كان متحيزاً بسببِ عدد القضايا في ملفاته التي تسمم فيه أزواج كبار بالسن بفعل زوجاتهم الشابات رقيقات القلوب!

قال لورانس براون غاضباً: الغبي الذي لا يطاق!

ذهب ناحية المكتبة عند الزاوية وبدأ ينقب بين الكتب، وأدركت أنني لن أسمع المزيد منه فخرجت من الغرفة ببطء. وبينما

كنت أسير في الممر إذ انفتح باب عن يساري وباغتتني جوزفين كأنها جنيّ خرج من جوف الأرض! كان وجهها قذراً وكذلك يداها، وعلى أذنها خيط عنكبوت. قلت: أين كنت يا جوزفين؟

نظرت من خلال الباب شبه المفتوح فرأيت درجتين تؤديان إلى غرفة مستطيلة مظلمة تشبه العليّة، ورأيت خزانات كبيرة فيها. قالت: إنها غرفة الصهاريج.

- ولماذا كنت في غرفة الصهاريج؟

قالت جوزفين بنبرة حازمة رسمية: أقوم بالتحري.

- وماذا عساك أن تجدي في غرفة الصهاريج؟

لم تجب عن هذا السؤال، قالت: عليّ أن أغتسل.

- أعتقد أن هذا ضروري.

مشت إلى أقرب حمام، ثم التفتت وقالت: لقد آن الأوان لتظهر الجريمة التالية، أليس كذلك؟

- الجريمة التالية؟

- في الروايات تظهر في مثل هذا الوقت دائماً جريمة ثانية... شخص ما يعرف شيئاً يتم التخلص منه قبل أن يتمكن من كشف ما يعرفه.

- الحياة الواقعية ليست كالقصص البوليسية يا جوزفين، ولو أن أحداً في هذا البيت عرف شيئاً فلن يحبّ البوح به لأيّ كان.

ردت عليّ جوزفين بجواب غامض فيما كان الماء يجري من الصنبور: أحياناً يعرفون أشياء وهم لا يشعرون.

طرفت عيناي وأنا أجتهد في فهم كلمتها، ثم تركتها ونزلت إلى الطابق الأسفل. وبينما كنت خارجاً من الباب إلى الدرج إذ أقبلت عليّ بريندا من باب غرفة الاستقبال، واقتربت مني ونظرت إليّ وقالت: هل من جديد؟

كانت طريقتها مثل طريقة لورانس في التماس الأخبار لكن صياغتها مختلفة، فكانت كلمتها الوحيدة هذه أكثر تأثيراً.

هززت رأسي وقلت: لا شيء.

تنهدت وقالت: أنا خائفة كثيراً يا تشارلز، إني خائفة.

كان خوفها حقيقياً، ظهر لي مرتبطاً مع ذلك المكان الضيق فأردت أن أطمئنها لأساعدها، وأصابني -مرة أخرى- ذلك الإحساس الشديد بأنها وحيدة في محيط عدائيّ.

ربما كانت تريد أن تصرخ وتقول: "مَن يقف إلى جانبي؟"... وماذا عسى أن تكون الإجابة؟ لورانس براون؟ ومَن يكون لورانس براون؟ ما هو إلا أحد الضعفاء!

تذكرتهما وهما يجريان ويدخلان البيت من الحديقة ليلة أمس. وأردت مساعدتها لكني لم أستطع أن أفعل شيئاً أو أقول لها شيئاً، فكنت -في قرارة نفسي- ينتابني شعور بالذنب ثم أتخيل عينَي صوفيا

تراقبانني باستهزاء، وتذكرت صوفيا وهي تقول: "إذن فقد أوقعت بك"!

لم تكن صوفيا تفهم أو تريد أن تفهم حال بريندا في هذه المسألة: وحيدة مشبوهة بالجريمة، ولا أحد ينصرها.

قالت بريندا: التحقيق سيجري غداً. ترى ماذا سيحدث؟

هنا كنت أستطيع أن أطمئنها: لا شيء، لا تقلقي. سيتم تأجيله حتى يقوم الشرطة بمزيد من التحري، ولعلهم يطلقون للصحافة حريتها لأن الصحف لم تذكر حتى الآن أن الوفاة غير طبيعية. إن لعائلة ليونايدز نفوذاً كبيراً، لكن مع تأجيل التحقيق سوف يبدأ المزاح.

ما أعجب أقوال المرء أحياناً! المزاح؟ لماذا قلت هذه الكلمة دون غيرها؟

سألتني: هل... هل سيكونون مفزعين كثيراً؟

- لو كنت مكانك لما قبلت بأية مقابلة صحفية. بريندا، لماذا لا تعيّنين لك محامياً؟

تراجعت إلى الوراء فَزِعة وقد شهقت شهيقاً قوياً. قلت لها: لا، ليس كما تفهمين، لا أقصد... لكن محامياً يعتني بمصالحك وينصحك ويعلمك ما تقولين وما تفعلين مما لا تقولين ولا تفعلين. إنك وحيدة.

قالت: نعم، أنت على صواب. لقد ساعدتني يا تشارلز، لقد ساعدتني.

نزلت الدرج وأنا أشعر بالحماسة والرضا، ورأيت صوفيا بجانب الباب الأمامي فقالت بصوت فاتر وجاف: أطلت البقاء... لقد سألوا عنك بالهاتف، والدك يريدك.

- من سكوتلانديارد؟

- أجل.

- ماذا يريدون مني؟ ألم يقولوا شيئاً؟

هزت صوفيا رأسها نافية، ورأيت في عينيها القلق فقلت لها: لا تقلقي يا حبيبتي، سأعود في الحال.

* * *

-١٧-

ساد في غرفة والدي شيء من التوتر. جلس الرجل العجوز وراء طاولته واستند رئيس المفتشين بظهره إلى النافذة، وجلس السيد جيتسكيل على كرسيّ الزوار وهو منزعج وبدأ يقول محتداً: حرص بالغ لا لزوم له...

تكلم والدي بهدوء: نعم، نعم. ها، مرحباً يا تشارلز، لقد قضيت وقتاً طويلاً وظهر تغير مفاجئ.

قال السيد جيتسكيل: تغير لا مثيل له من قبل.

كان واضحاً أن شيئاً ما قد أزعج المحامي الصغير، وابتسم رئيس المفتشين تافيرنر لي من ورائه.

قال أبي: هل لي أن أختصر؟ جاءت السيد جيتسكيل رسالة مذهلة صباح اليوم يا تشارلز، وهي من السيد أجرودو بولاوس صاحب مطعم ديلفوس. إنه رجل طاعن في السن، وُلد في اليونان وحين أصبح شاباً أعانه ليونايدز وصار صاحبه، وكان هذا كثير الشكر

لصديقه الذي أحسن إليه، ويبدو أن أريستايد كان يعتمد عليه اعتماداً عظيماً ويثق به كثيراً.

قال السيد جيتسكيل: لم أصدّق أبداً أن ليونايدز بمثل هذا الشك والارتياب ويخفي الأسرار... لقد كان شيخاً كبيراً بالطبع وربما كان خَرِفاً.

قال أبي بلطف: عندما تصبح شيخاً -يا جيتسكيل- فإن عقلك يسهب كثيراً في ذكريات الشباب.

- لكن شؤون ليونايدز كانت كلها بين يدي لأكثر من أربعين سنة، ومن أجل الدقة: منذ ثلاثة وأربعين عاماً ونصف العام.

ابتسم تافيرنر ثانية، وسألت جيتسكيل: ما الذي حدث؟

همّ السيد جيتسكيل بالكلام لكن أبي سبقه: لقد أوضح السيد أجرو دو بولاوس في رسالته أنه كان ينفّذ تعليمات محددة لصديقه أريستايد ليونايدز، وباختصار فقد وضع السيد ليونايدز في عهدته ظرفاً مختوماً قبل نحو سنة، وكان مطلوباً من السيد أجرو دو بولاوس أن يعطيه إلى السيد جيتسكيل حال موت السيد ليونايدز. وقد اعتذر السيد أجرو دو بولاوس لأنه تأخر لكنه بيّن أنه كان مريضاً بذات الرئة وقال إن نبأ موت صديقه القديم لم يبلغه إلا ظهر البارحة.

قال جيتسكيل: هذا العمل ينافي أخلاق المهنة.

وأكمل أبي قائلاً: ولما فتح السيد جيتسكيل الظرف المختوم واطّلع على ما فيه رأى أن من واجبه...

وهنا قاطع جيتسكيل مضيفاً: بناء على الظروف...

- أن يطلعنا على ما فيه، فوجدنا وصية موقعة حسب الأصول ومصدقة، ووجدنا رسالة تشرح وثيقة مرفقة.

قلت: إذن فقد ظهرت الوصية أخيراً؟

تورد وجه السيد جيتسكيل قليلاً وقال: إنها ليست الوصية نفسها. هذه ليست هي الوثيقة التي أعددتها حسب طلب السيد ليونايدز، هذه الوصية مكتوبة بخط يده، وهو أخطر ما يفعله الموصي. يبدو أن السيد ليونايدز أراد أن يجعلني أبدو رجلاً أحمق!

حاول رئيس المفتشين تافيرنر أن ينعش هذا الجو الحزين فقال: لقد كان رجلاً كهلاً يا سيد جيتسكيل، والناس إذا شاخوا صاروا طائشين بعض الشيء... لا أقصد أنهم يصبحون مجانين لكنْ غريبي الأطوار قليلاً.

عطس السيد جيتسكيل وقال أبي: اتصل بنا السيد جيتسكيل وأخبرنا ببنود الوصية الأساسية فطلبت منه أن يأتي إلينا فوراً ويجلب الوثيقتين معه، ثم اتصلت بك يا تشارلز.

لم أفهم تماماً لماذا اتصل والدي بي، وبدا لي هذا تصرفاً غير قويم من والدي وتافيرنر. كنت سأعرف بخبر الوصية في الوقت المناسب، ولم يكن من شأني قط أن أعلم كيف قسم العجوز ليونايدز أمواله. سألت جيتسكيل: هل هي وصية مختلفة؟ أعني... هل وزع فيها أمواله بشكل مختلف؟

- نعم.

كان أبي ينظر إليّ، ولكن رئيس المفتشين تافيرنر حرص أن لا ينظر تجاهي. أصابني الخوف... كأن شيئاً يدور في ذهنيهما، شيئاً أجهله.

ونظرت إلى جيتسكيل متسائلاً: إنه ليس من شأني، ولكن...

- إن قسمة السيد ليونايدز ثروته حسب الوصية ليست سراً يخفى بالطبع، وقد أدركت أن من واجبي أن أبينها للشرطة أولاً حتى يرشدوني إلى الخطوة التالية. وأنا أعرف...

وسكت برهة قبل أن يضيف: أن بينك وبين الآنسة صوفيا شيئاً.

- آمل أن أتزوج بها، لكنها لم تقبل خطبتي في الوقت الحاضر.

- أجل، هذا تصرف صحيح منها تماماً.

خالفته وإن لم يكن هذا وقتَ جدال، ثم قال: حسب هذه الوصية المؤرخة في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) في العام الماضي فقد ترك السيد ليونايدز -بعد أن جعل لزوجته مئة ألف جنيه- أملاكه كلها وأمواله جميعاً لحفيدته صوفيا كاثرين ليونايدز.

فغرت فمي دهشة، ثم قلت وقد باغتني الخبر: ترك أمواله كلها لصوفيا؟! يا له من عمل غريب. هل من سبب؟

قال أبي: "لقد أوضح أسبابه في الرسالة المرفقة". وأخرج ورقة من الدرج أمامه وقال: هل تمانع أن يقرأها تشارلز يا سيد جيتسكيل؟

لم يمانع جيتسكيل، فسلمني الرجل العجوز الرسالة. كانت مكتوبة بخط يد دقيق بالحبر الأسود، وكان خط الرسالة يُظهر شخصية الفقيد وتميزه. لم تكن مثل الرسائل الأخرى المكتوبة بعناية وفيها ملامح من الماضي حين كان تعلم القراءة والكتابة صعباً وذا قيمة عالية، وهذا نص الرسالة:

عزيزي جيتسكيل،

ربما يصيبك الذهول إذا قرأت هذه الرسالة وربما تغضب، لكن لدي أسباباً خاصة جعلتني أتصرف بطريقة قد تبدو لك سرية من غير لزوم.

إنني مؤمن بالفردية منذ وقت طويل. قد لاحظت في صباي (ولم أنسَ ذلك أبداً) أن العائلة تركن إلى شخص واحد قوي يتحمل عبء العناية بالعائلة ورعاية سائر أفرادها. ولقد كنت أنا في عائلتي هذا الشخص؛ جئت إلى لندن وأعددت نفسي وأعلت والدتي وأجدادي في سميرنا وخلّصت أحد إخوتي من قبضة القانون وضمنت حرية أختي من زواج غير سعيد... وهكذا.

وقد منحني الله حياة طويلة استطعت فيها رعاية أطفالي والعناية بهم وبأطفالهم، وقد أخذ الله بعضهم مني بالموت لكنني سعيد بأن البقية يعيشون تحت سقف بيتي. وعندما أموت لا بد أن ينتقل العبء الذي كنت

أقوم به إلى شخص آخر، وقد فكرت: هل أقسم ثروتي بين أبنائي الأعزاء بالتساوي قدر استطاعتي؟ فإن فعلت فأخشى أن لا يكون في قسمتي مساواة حقاً. إن الناس لا يتساوون؛ ولا بد من خلف لي يحمل ثقل شؤون بقية أفراد العائلة.

نظرت بتمعن فلم أجد أحداً من ولديّ صالحاً لكي يتولى هذه المهمة؛ فابني العزيز روجر لا يدرك قيمة العمل، وهو رجل ذو سمت محبوب لكنه متهور جداً ولا يستطيع أن يحكم على الأمور حكماً صحيحاً. أما فيليب فهو غير واثق من نفسه ليفعل شيئاً سوى الفرار من الحياة. وحفيدي يوستيس صغير جداً، وأخشى أنه غير مدرك ولا حصيف كما يلزم، وهو كسول ويتأثر بأفكار أي امرئ يلقاه.

وحدها حفيدتي صوفيا التي تجتمع فيها كل الصفات المطلوبة: فتاة ذكية حكيمة جريئة عادلة، وعقلها سديد ونفسها سمحة، فإليها أعهد بالمحافظة على سعادة العائلة وسعادة إيديث دي هافيلاند، أخت زوجتي اللطيفة والتي أنا ممتن لها على تكريسها حياتها الطويلة للعائلة.

من أجل هذا كتبت الوثيقة المرفقة. أما الذي سيكون صعباً شرحه لك -يا صديقي القديم- فهو الخداع الذي مارسته عليك. لقد ظننت أن من غير الحكمة إثارة قلاقل في شأن قسمة ثروتي، وليست لديّ نية أن أجعل عائلتي تعرف أن صوفيا ستكون هي وريثتي.

وحيث إن روجر وفيليب قد أخذا ثروة كبيرة من قبل فإنني لا أشعر أن قسمة ثروتي حسب الوصية سوف يضعهما في موقف مذل. ولكيلا تنشأ ظنون طلبت منك أن تصوغ لي وصية قرأتها لأفراد العائلة مجتمعين، ثم وضعتها على مكتبي ووضعت عليها قطعة ورق نشاف ودعوت خادمين، فلما حضرا زلقت النشافة إلى أعلى قليلاً وكشفت أسفل الوثيقة ووقعت أنا وأمرتهما أن يوقعاها.

إن الذي وقعته أنا والخادمان هو الوصية التي أرفقتها الآن وليست التي كتبت مسودتها وقرأتها على الجميع بصوت مرتفع. لا يمكنني أن أكون واثقاً أنك ستفهم ما الذي دفعني لتنفيذ هذه الحيلة... أرجوك أن تغفر لي أنني أخفيت الأمر عنك؛ فالشيخ الكبير يحب الاحتفاظ بأسراره الصغيرة!

شكراً لك أيها الصديق القديم على اهتمامك الدائم بشؤوني الخاصة. بلّغ صوفيا حبي الكبير لها وأوصِها أن ترعى العائلة جيداً وأن تجنّبهم الأذى.

المخلص: أريستايد ليونايدز

قرأت هذه الوصية الخطيرة باهتمام شديد، ثم قلت معقّباً: أمر غريب.

قال جيتسكيل وهو ينهض عن مقعده: غريب جداً... كنت أظن أن صديقي القديم، كما قلت آنفاً، كان يثق بي.

قال والدي: لا يا جيتسكيل؛ لقد كان رجلاً غير آمن، وكان يحب فعل الشيء بأسلوب مماثل ملتوٍ إن صحّ التعبير.

قال رئيس المفتشين تافيرنر بانفعال: هذا صحيح يا سيدي، كان مخادعاً أكثر من غيره.

خرج جيتسكيل من الغرفة غاضباً، فقد جُرحت كبرياؤه المهنية جرحاً بالغاً. وقال تافيرنر معلقاً: لقد آذته هذه الوثيقة أذى قاسياً؛ فشركة جيتسكيل... «كالوم وجيتسكيل»، ذات صيت حسن، وعندما كان العجوز ليونايدز ينجز صفقة تثير الشك لم يكن يُعلم بها جيتسكيل، فقد كان العجوز يعامل ست شركات محاماة تعمل نيابة عنه. لقد كان مخادعاً.

قال والدي: وكان أشد خداعه حين كتب وصيته.

- لقد كنا حمقى! لا أحد يستطيع لعب الحيلة في تلك الوصية غير العجوز نفسه، إنما نسينا أنه ربما كان يريد ذلك.

تذكرت ابتسامة جوزفين عندما قالت متفاخرة: «أليس الشرطة أغبياء؟». لكن جوزفين لم تحضر اجتماع الوصية. لو أنها كانت في ذلك اليوم تتنصت بالباب (ولا ريب في هذا) فما كان يسعها أن تخمن ماذا يفعل جدها. إذن فعلامَ كان تفاخرها؟ ما الذي تعرفه لتزعم أن الشرطة حمقى؟ أم أن ذلك كان تباهياً أيضاً؟

رفعت بصري بحدة وأنا مذهول من سكون الغرفة وسكوتها. كان والدي وتافيرنر يراقبانني، ولم أدرِ ماذا لمحت في وجهيهما

فقلت بجرأة: صوفيا لم تكن تعلم شيئاً عن هذه الوصية... لا شيء أبداً.

والدي: لا تعلم؟

لم أتبين كلمته: أكانت سؤالاً أم موافقة؟ قلت: كانت ستصعق دون شك.

- حقاً؟

- نعم، ستصعق.

حل الصمت قليلاً. ثم رنّ الهاتف فوق مكتب أبي رنة شديدة فجأة فرفع أبي السماعة: نعم... صلني بها.

والتفت إليّ قائلاً: إنها فتاتك تريد محادثتنا في أمر عاجل.

أخذت السماعة منه: صوفيا؟

- تشارلز... أهذا أنت؟ إنها... جوزفين...

انقطع صوتها قليلاً فهتفت: ماذا أصاب جوزفين؟

- لقد ضُربت على رأسها... ارتجاج في الدماغ. إنها... إنها في حالة سيئة جداً. يقولون إنها قد لا تتعافى!

التفتّ إلى الرجلين الآخرين وقلت: لقد ضُربت جوزفين.

أخذ أبي السماعة مني وهو يخاطبني بحدة: ألم أوصك أن تراقب تلك الطفلة؟

* * *

-١٨-

لم يمض وقت طويل حتى كنت وتافيرنر نسرع في سيارة الشرطة تجاه سوينلي دين. وخطر ببالي خروج جوزفين من بين الصهاريج وملاحظتها بغرور حين أنذرت باقتراب الوقت لظهور جريمة قتل ثانية. لم تكن الطفلة المسكينة تعلم أنها هي نفسها ستكون الضحية في الجريمة التالية!

لقد أصاب والدي حين لامني لوماً ضمنياً. كان يجب عليّ مراقبة جوزفين؛ فلا أنا ولا تافيرنر استطاع أن يأتي بدليل على من سمم العجوز ليونايدز، فلعل هذا الدليل كان لدى جوزفين. إن الذي كنت أرى أنه مباهاة وهراء أطفال كان شيئاً مختلفاً تماماً، فربما حصلت جوزفين -عن طريق هوايتها المفضلة: التطفل والتجسس- على خيط من المعلومات لم تعلم هي نفسها قدره وخطره.

وخطر ببالي الغصن الذي انقصف في الحديقة، وحينئذ أصابني إحساس بأن الخطر كان وشيكاً. كان ينبغي أن أدرك أن هذه جريمة قتل، وأياً كان الذي ارتكب الجريمة فقد عرض نفسه للخطر ولن يتردد في تكرار جريمته إن تأكد أنها ضمان لسلامته. ربما عرفت

ماجدا بغريزة الأمومة الخفية أن جوزفين في خَطر، ولعل هذا ما جعلها متحمسة فجأة ومتعجلة في سفر الطفلة إلى سويسرا.

وخرجت صوفيا لاستقبالنا حين وصلنا وقالت إن جوزفين حُملت في سيارة الإسعاف إلى مستشفى ماركت بيسنغ العام، وإن طبيبها، غري، سوف يبلغهم ساعة ظهور نتيجة الأشعة.

سألها تافيرنر: كيف وقع الحادث؟

تقدمتنا صوفيا في الطريق خلف البيت، ودخلنا من باب في ساحة صغيرة مهجورة، وفي إحدى الزوايا رأينا باباً مفتوحاً جزئياً. وأوضحت صوفيا: إنه بيت للغسيل، في أسفل الباب فتحة أحدثتها قطة، وقد اعتادت جوزفين أن تقف عليها وتتأرجح.

تذكرت التأرجح على الأبواب ونحن صغار.

كانت غرفة الغسيل صغيرة مظلمة، ورأيت فيها صناديق خشبية وخراطيم عتيقة وبعض أدوات الحديقة المهمة وأثاثاً مكسوراً، وكان خلف الباب مصد رخامي على هيئة تمثال أسد.

أوضحت صوفيا: إنه مصد الباب... ولا بد أنه كان موضوعاً فوق أعلى الباب.

رفع تافيرنر يده إلى قمة الباب. كان باباً منخفضاً وقمته تعلو رأسه قدماً واحداً. قال: إنه شرك.

هز الباب يميناً ويساراً يجربه وانحنى إلى التمثال الرخامي من غير أن يلمسه، وسأل: هل لمسه أحد؟

صوفيا: لا، لم أسمح أن يلمسه أحد.

- عمل صحيح. من وجدها؟

- أنا. لم تأت لتأكل غداءها في الساعة الواحدة، وكانت نانی تناديها وكانت قد عبرت المطبخ وخرجت منه إلى ساحة الإسطبل قبل ربع ساعة. ناني قالت إنها كانت تلعب بكرتها أو تتأرجح في الباب ثانية، وقلت إنني سأذهب لأحضرها.

- هل قلت إنها تعودت أن تلعب هكذا؟ مَن كان يعلم ذلك؟

هزت صوفيا كتفيها استهجاناً: أظن أن أهل البيت جميعاً يعلمونه جيداً.

- ومن يدخل غرفة الغسيل غيرها؟ عمال الحديقة؟

- لا، لا يذهب إليها أحد.

- أليست هذه الساحة الصغيرة مكشوفة من البيت؟ ألا يستطيع امرؤ أن يتسلل خارج البيت أو يدور من أمام البيت ويزرع ذلك الكمين؟

وسكت وهو ينظر إلى الباب، ثم حرّكه يمنة ويسرة وهو يقول: لم يكن التدبير محكماً. إما أن تقع عليها الضربة أو تفلت منها، والغالب أن تفلت منها لكنها لم تكن محظوظة فضُربت.

ارتجفت صوفيا. ونظر تافيرنر إلى البلاط وكان عليه آثار ضربات متعددة. قال: كأن أحداً قام بتجربة أولاً لكي يرى كيف يقع الثقل على الأرض ويتأكد أن الصوت لن يسمعه أهل البيت.

- لم نسمع شيئاً ولا عرفنا شيئاً حتى خرجت ووجدتها ملقاة على وجهها وجسمها متمدد في الخارج.

وانقطع صوت صوفيا قليلاً ثم أضافت: والدم على شعرها.

أشار تافيرنر إلى وشاح صوفي على الأرض وسأل: هل هذا وشاحها؟

- نعم.

التقط قطعة الرخام بحذر باستخدام الوشاح وقال بلا أمل: ربما يكون عليها بصمات، لكني أظن أن الذي فعلها كان حذراً.

ثم التفت إليّ وسألني: إلامَ تنظر يا تشارلز؟

كنت أنظر إلى كرسي مطبخ خشبي ظهره مكسور كان ملقى بين الأشياء المهملة وعليه آثار التراب. قال تافيرنر: عجباً! أحدهم وقف على هذا الكرسي وقدماه موحلتان. لماذا؟

هزّ رأسه ثم سأل: متى وجدتِها يا آنسة ليونايدز؟

- في الساعة الواحدة وخمس دقائق.

- وشاهدتها خادمتكم ناني تخرج قبل ذلك بعشرين دقيقة. مَن كان آخر شخص دخل بيت الغسيل قبلها؟

- لا أعرف، ربما جوزفين نفسها. جوزفين كانت تتأرجح على الباب هذا الصباح بعد الفطور... هذا ما أعرفه.

أومأ تافيرنر برأسه وقال: إذن بين ذلك الوقت والواحدة إلا ربعاً وضع شخص الشرك.

قلت: هذه كانت سنادة الباب الأمامي، فهل تعرفين متى فقدت؟

هزت صوفيا رأسها وقالت: لم يُفتح الباب طوال اليوم، فقد كان الجو بارداً.

- هل تعرفين أين كان كل واحد طول الصباح؟

- أنا خرجت أسير. ويوستيس وجوزفين كانا في الدرس حتى الثانية عشرة والنصف ما عدا فترة راحة في العاشرة والنصف، وأظن أن أبي مكث في المكتبة طوال الصباح.

- وأمك؟

- كانت خارجة لتوها من غرفة نومها حين دخلتُ البيت في الثانية عشرة والربع تقريباً، فهي لا تصحو مبكراً.

دخلنا البيت مرة ثانية وتبعت صوفيا إلى المكتبة. كان فيليب يجلس على كرسيه شاحباً منهكاً، وكانت ماجدا جاثية على ركبتيه تبكي. وسألتهما صوفيا: ألم يأتِ من المستشفى خبر بعد؟

هز فيليب رأسه نافياً وقالت ماجدا وهي تنشج: لماذا منعوني أن أخرج معهم؟ طفلتي... طفلتي العجيبة القبيحة! كم مرة قلت لها: «أنت لست ابنتي»، وكانت تغضب كثيراً. كم كنت قاسية عليها! والآن... سوف تموت! أخشى أن تموت.

قال فيليب: اهدئي يا عزيزتي، اهدئي.

شعرت أن لا مكان لي في هذا المشهد الأبوي القلق الحزين فانسللت بهدوء وجعلت أبحث عن ناني. كانت في المطبخ تبكي هي الأخرى وقالت: إنما هي عقوبة إلهية... عقوبة إلهية بسبب الأشياء القاسية التي كنت أفكر فيها يا سيد تشارلز، هذا هو الأمر.

لم أحاول أن أفهم قصدها، واستمرت بالقول: ثمة شر في هذا البيت... لم أكن أريد أن أفهم ذلك ولا أصدقه، شخص ما قتل سيد البيت وحاول أن يقتل جوزفين.

- لماذا؟

مسحت ناني عينها بمنديلها ونظرت إليّ نظرة لاذعة: أنت تعرف جيداً كيف كانت يا سيد تشارلز. كان تحب كشف الأشياء حتى الحقيرة جداً... تعودت أن تختبئ تحت طاولة العشاء وتتنصت إلى حديث الخادمات ثم تقلبها عليهن كي تحس أنها مهمة. لقد أهملتها أمها، لم تكن طفلة أنيقة حلوة مثل أخويها. واعتادت أمها أن تقول إنها ليست ابنتها. إنني أعتب على السيدة بسبب ذلك إذ كان هذا يثير حفيظتها، لكنها كانت ترجع إلى عادتها في تتبع الناس ثم تخبرهم أنها كانت تعلم أشياء عنهم، وهذا أمر خطير عندما يكون في المكان مجرم طليق.

وتذكرت شيئاً فسألت ناني: هل تعرفين أين مخبأ دفترها الأسود الصغير الذي تدون فيه ملاحظاتها؟

- أعرف ما تعنيه يا سيد تشارلز، لكن جوزفين كانت كتومة.

لقد رأيتها تلحس قلمها الرصاص وتكتب في الدفتر ثم تلحس القلم مرة أخرى، وقد نهيتها أن تفعل ذلك حتى لا يصيبها الرصاص بالتسمم، فقالت إنها لن تتسمم لأن قلم الرصاص ليس فيه رصاص حقاً بل كربون. ولم أفهم معنى ذلك؛ لأنك حين تسمي شيئاً «قلم رصاص» فلا بد أن يكون فيه رصاص!

- أجل، لكن جوزفين كانت على حق. وماذا عن دفتر الملاحظات هذا؟ أتعرفين أين كانت تحفظه؟

- لم أكن أعلم يا سيدي. كان شيئاً من الأشياء التي تكتمها.

- ألم يكن معها عندما عُثر عليها؟

- نعم، لم يكن معها هذا الدفتر.

تساءلت: هل خطف أحدٌ دفترَ الملاحظات أم أنها أخفته في غرفتها؟ وخطر ببالي تفتيش غرفتها. لم أكن متأكداً من مكان غرفتها ولكني بينما كنت أقف متردداً في الممر إذ ناداني صوت تافيرنر: تعال هنا، في غرفة الطفلة... أرأيت مشهداً كهذا في حياتك؟

خطوت فوق عتبة الباب ووقفت جامداً. بدت الغرفة الصغيرة وكأن إعصاراً قد دهمها: أدراج الخزانة مفتوحة مبعثر ما فيها على الأرض، الفرشة والملاءة سُحبا عن السرير الصغير والأغطية مكومة والكراسي مقلوبة والرسوم أنزلت عن الحائط والصور انخلعت من أطرها!

قلت: يا إلهي! ما هذا؟

- ما رأيك؟

- شخصٌ ما كان يبحث عن شيء.

- تماماً.

نظرت حولي وصفرت: ومن يكون هذا الشخص؟ لا أحد يستطيع أن يدخل هنا ويفعل كل هذا ولا يسمعه أحد أو يراه؟

- لِمَ لا؟ السيدة بريندا تقضي الصباح في غرفة نومها تقلم أظافرها وتكلم أصدقاءها بالهاتف، وفيليب يجلس في المكتبة منكبّاً على كتبه، وناني في المطبخ تقشر البطاطا... إذن فالأمر سهل جداً لعائلة يعرف بعضها عادات بعض. وأريد أن تعلم شيئاً: يستطيع أي واحد في البيت أن يفعل ذلك؛ يستطيع أن يضع الشرك ويخرب غرفتها... لكنه كان شخصاً مستعجلاً يغتنم الوقت فلا يبحث بهدوء. لقد فكرت في الأمر يا تشارلز، لا يستطيع أحدٌ في هذا البيت أن يثبت مكان وجوده ساعة الحادثة؛ فيليب وماجدا وناني وفتاتك في طابق واحد، وبريندا تقضي معظم صباحها وحدها، ولورانس ويوستيس في استراحة من العاشرة والنصف إلى الحادية عشرة، وقد كنت أنت معهما في بعض الوقت لا كله، وكانت الآنسة دي هافيلاند في الحديقة وحدها، وكان روجر في مكتبه.

- كليمنسي هي وحدها التي كانت في وظيفتها في لندن.

- لا، بل كانت خارج وظيفتها. لقد بقيت في البيت اليوم وكانت في غرفتها وحدها تعاني صداعاً في الرأس. أيهمّ هذا؟ لا أدري. يا ليتني أعرف عمّ كانوا يبحثون هنا...

ودارت عيناه في الغرفة التي ملأتها الفوضى ثم قال: هل تراهم وجدوه؟

خطر ببالي شيء... فكرة حسمها تافيرنر بسؤاله: ماذا كانت الطفلة تفعل حين رأيتها آخر مرة؟

قلت: "انتظر"، وانطلقت من الغرفة مرتقياً الدرج فدخلت من الباب الأيسر وصعدت إلى الطابق العلوي، فتحت باب غرفة الصهاريج وصعدت الدرجتين وحنيت رأسي لأن السقف منخفض ومائل، ونظرت حولي.

لقد قالت جوزفين -حين سألتها عمّا كانت تفعله هناك- إنها كانت تتحرى. ولم أدرِ ماذا عسى أن يكون في حجرة مليئة ببيوت العناكب وخزانات الماء كي تتحراه جوزفين؟ لكن مثل هذه العلبة ربما تكون مخبأ أميناً للأشياء، وربما كانت جوزفين تخبئ هناك شيئاً، شيئاً تعلم جيداً أنه ليس من شأنها الاحتفاظ به. فإن كان الأمر كذلك فلن يطول بحثي عنه.

ولم ألبث إلا ثلاث دقائق حتى وجدت حزمة رسائل ملفوفة بقطعة ورق بني ممزقة ومدسوسة خلف أكبر خزان. وقرأت الرسالة الأولى:

آه يا لورانس... يا حبيبي العزيز،

ما أروعك حين اقتبستَ بيت الشعر ذاك في الليلةَ الماضية! كنت فيه تقصدني أنا وإن لم تنظر إلي. أريستايد قال إنك تقرأ الشعر جيداً، هو لم يستطع أن

يدرك ما كنا نشعر به كلانا. أشعر يا حبيبي أن كل شيء سيكون على ما يرام وسوف نكون سعيدين جداً بأنه ما كان يعلم أبداً وهو سيموت سعيداً، كم كان طيباً معي! لا أريد أن يعاني، فالعيش بعد الثمانين ليس فيه من متعة، لا أريد ذلك.

قريباً سنكونِ معاً إلى الأبد. كم يكون رائعاً أن أقول لك: "يا زوجي العزيز". أحبك... أحبك حباً لا نهاية له! إنني...

وكان في الرسالة المزيد لكن نفسي عافت قراءته. نزلت إلى الطابق السفلي متجهماً ووضعت الحزمة بين يدي تافيرنر وقلت: ربما يكون هذا ما كان يبحث عنه صديقنا المجهول.

قرأ تافيرنر بعض الفقرات ثم صفر ونظر إليّ نظرة ذات مغزى، ثم قال بهدوء: حسناً، هذا يفضح سر بريندا ليونايدز والسيد لورانس براون. إذن فقد كانا هما منذ البداية!

* * *

-١٩-

يبدو لي غريباً -وأنا أرجع إلى الوراء- كيف تلاشت شفقتي على بريندا وزال عطفي عليها فجأة بسبب رسائلها، تلك الرسائل التي كتبتها إلى لورانس براون. هل جعلني غروري عاجزاً عن احتمال مفاجأة أن بريندا كانت متيمة به وأنها تعمدت الكذب عليّ وأنني قد خُدعت بسهولة؟

لا أدري؛ فأنا لست طبيباً نفسانياً. غير أنني أفضل أن أفكر أن الضربة التي أصابت جوزفين على رأسها بطريقة لا ترحم هي ما جفف ينابيع عطفي على بريندا.

قال تافيرنر: براون هو الذي وضع الشرك، وهذا يوضح ما كان يحيرني.

- ما الذي حيرك؟

- كان ذلك عملاً أحمق! لو أن الطفلة أمسكت بهذه الرسائل... رسائل لعينة بلا شك... فأول شيء يجب عمله هو محاولة استعادتها. وكيف تستطيع استعادتها وأنت لا تعلم مكانها؟ ولو كانت الطفلة

تتحدث في شأن هذه الرسائل حديثاً من غير أن تظهر شيئاً لكان حديثها مثيراً أيضاً. إذن فليس أمامك إلا قتل الطفلة... لقد اقترفت الجريمة الأولى فلا عليك إن أنت ارتكبت جريمة أخرى. وأنت تعلم أنها كانت تهوى التأرجح على الباب في الساحة المهجورة، فأحسن شيء تفعله هو أن تنتظر وراء الباب، فإذا دخلت صرعتها بقضيب معدني أو قطعة جميلة من حجر، فكلها هناك في متناول اليد. لماذا تضيع الوقت وتضع قطعة من الرخام فوق الباب ربما لا تصيبها ولو أصابتها فربما لا تنجز الغرض المطلوب كما تريد تماماً (وهو ما حدث فعلاً بعد ذلك)؟ إنني أسألك: لماذا؟

- حسناً، ما هي الإجابة؟

- الفكرة التي وصلتُ إليها أن أحدهم أراد أن يحصل على دليل يثبت أنه لم يكن في مكان الجريمة لحظة وقوعها، لكننا لا نُخدع بهذا. أولاً: لا أحد لديه مثل هذا الدليل، وثانياً: هناك شخص عقد العزم على أن يبحث عن الطفلة في ساعة الغداء ثم يذهب ويجد الكمين وقطعة الرخام حيث تكون طريقة العمل واضحة المشاهد تماماً. ولو أن القاتل أبعد قطعة الرخام قبل أن نجد الطفلة لكنا قد تحيرنا... ولكن لا معنى لذلك.

ورفع يديه في الهواء بيأس فسألته: فما هو تفسيرك إذن؟

- العنصر الشخصي... الخاصية الشخصية؛ خاصية لورانس براون. إنه لا يحب العنف ولا يستطيع إكراه نفسه على فعل العنف الجسدي. إنه لا يستطيع أن يقف وراء باب ويشج رأس طفلة، إذن يجهز الكمين ويذهب ولا يرى شيئاً.

قلت: فهمت، إنه الإيسيرين في زجاجة الأنسولين مرة أخرى.

- تماماً.

- أتظن أنه يفعلها دون علم بريندا؟

- هذا يوضّح لماذا لم ترمِ بريندا زجاجة الأنسولين بعيداً. نعم؛ لقد أعدّا هذا العمل معاً، وربما فكرت هي في حيلة السم وحدها. موت سهل جميل لزوجها العجوز المتعَب هو خير عمل تفعله! لكني متأكد أنها لم تضع الشرك فوق الباب؛ فالنساء لا يؤمنّ أبداً أن الأشياء الميكانيكية تنجح. أعتقد أن الإيسيرين كان فكرتها لكنها جعلت صاحبها المتيّم بها يقوم بالعمل، إنها من الصنف الذي يجتنب أن يفعل شيئاً يثير الشبهة ثم يظهر أن الضمير حي.

سكت تافيرنر قليلاً: لعل النائب العام يقتنع أن لدينا قضية مع هذه الرسائل. إذا تحسنت حال الطفلة فسيبدو كل شيء جميلاً!

نظر إليّ بطرف عينه وأضاف: ما هو شعور المرء عندما يحصل على مليون جنيه إسترليني؟

جفلت؛ فقد نسيت الأحداث المتعلقة بالوصية بسبب أحداث الساعات القليلة الماضية. قلت: إن صوفيا لا تعلم حتى الآن، هل أخبرها؟

- لقد فهمت أن جيتسكيل سيعلن الخبر الحزين (أو السعيد) بعد التحقيق.

سكت تافيرنر ونظر إليّ متأملاً: ترى ما هي ردود أفعال العائلة عندئذٍ؟

* * *

-٢٠-

انتهى التحقيق كما كنت قد تنبأت له، فقد طلب الشرطة تأجيله. وقد أسعدنا الخبر الذي وصلنا ليلة أمس من المستشفى ويفيد بأن إصابة جوزفين كانت أقل خطراً مما نظن ونخشى وأنها سوف تتعافى، وقال الدكتور غري إنه لن يسمح لأحد أن يزورها الآن حتى أمها.

همست صوفيا: لا سيما أمها... لقد أوضحت ذلك للطبيب. على أية حال فهو يعرف والدتي.

لا بد أنني كنت مرتاباً لأن صوفيا قالت بحدة: لِمَ نظرة الاستنكار هذه؟

- حسناً، إن أمك بالتأكيد...

- يسرني أن لديك بعض الأفكار الجميلة يا تشارلز، لكنك لا تعرف تماماً ماذا عسى أمي أن تفعل. إنها لا تستطيع منع نفسها من أي عمل ولكن في مشهد درامي كبير، والمشاهد الدرامية ليست أشياء طيبة لمن يتعافى من إصابة في رأسه.

- أنت تفكرين في كل شيء يا حبيبتي.

- حسناً، لا بد من شخص يفكر الآن بعد أن مات جدي.

نظرت إليها متأملاً. عرفت أن فطنة العجوز ليونايدز لم تفارقه؛ فها هو عبء همومه قد أُلقي على كاهل صوفيا.

صحبنا جيتسكيل بعد التحقيق ونحن في طريقنا إلى البيت المائل، وهناك تنحنح وقال بأبهة: عندي إعلان من واجبي أن أبلغكم به جميعاً.

ومن أجل هذا الغرض اجتمعت العائلة في غرفة استقبال ماجدا، وكان ينتابني إحساس ممتع لرجل وراء الكواليس؛ فقد كنت أعلم سابقاً ماذا يريد جيتسكيل أن يقول، وقد تهيأت لملاحظة رد فعل كل واحد منهم.

كان خطاب جيتسكيل مختصراً وصريحاً، وأي علامة على المشاعر الشخصية والقلق كانت تظهر على الخدود جيداً. قرأ أولاً رسالة أريستايد ليونايدز ثم قرأ الوصية نفسها. كان ذلك مشهداً مثيراً للاهتمام، وتمنيت لو تستطيع عيني أن تراهم جميعاً في آنٍ واحد.

لم ألتفت كثيراً إلى بريندا ولورانس؛ فالفقرة المتعلقة ببريندا في هذه الوصية لم تتغير. لقد راقبت روجر وفيليب وماجدا وكليمنسي، وكان انطباعي الأول عنهم أنهم تصرفوا جميعاً تصرفاً مناسباً.

فيليب كانت شفتاه مزمومتين فيما ألقى رأسه على ظهر الكرسي الطويل الذي كان يجلس عليه، ولم يتكلم. أما ماجدا فعلى العكس

من ذلك؛ حيث انفرجت تتكلم لحظة أنهى السيد جيتسكيل كلامه فكان صوتها القوي يطغى على نبراته الرفيعة كالمد يغرق الجدول: حبيبتي صوفيا... ما أغرب هذا! أمر مثير. لقد كان العجوز الجميل ماكراً جداً ومخادعاً، ألم يكن يثق بنا؟ أكان يخشى أن نغضب؟ لم يكن يبدو محباً لصوفيا أبداً أكثر منا. الحق أنه أمر مثير جداً.

وفجأة قفزت ماجدا بخفة وجعلت تلاطف صوفيا وتنحني لها احتراماً وتبجيلاً: مدام صوفيا، إن أمك العجوز المفلسة المعتلّة تتوسل إليك أن تتصدقي عليها... أعطنا الفتات يا عزيزتي... إن أمك تريد أن تذهب إلى السينما!

قال فيليب من غير أن يتحرك: أرجوك يا ماجدا، كفاك تهريجاً.

صاحت ماجدا فجأة وهي تلتفت إلى روجر: أواه! لكن روجر... مسكين روجر! كان الفقيد على وشك أن ينقذه، ثم... قبل أن يتهيأ له ذلك مات! والآن، روجر لن يأخذ شيئاً.

والتفتت التفاتة متغطرسة ناحية صوفيا: صوفيا، يجب أن تفعلي شيئاً من أجل روجر.

ولكن كليمنسي قالت وهي تخطو إلى الأمام وعلى وجهها ملامح التحدي: لا، لا شيء... لا شيء أبداً.

جاء روجر ناحية صوفيا متثاقلاً مثل دب كبير أنيس، وأمسك يديها بحنان: لا أريد بنساً واحداً يا عزيزتي، حالما ينتهي هذا الأمر

فسوف أرحل أنا وكليمنسي إلى جزر الهند الغربية ونعيش حياة بسيطة. لو أصبحت مفلساً فسوف أطلب المساعدة من رئيس العائلة...

وابتسم لها ابتسامة جذابة وقال: وحتى ذلك الحين فلا أريد بنساً واحداً. في الحقيقة أنا رجل بسيط يا عزيزتي، سلي كليمنسي إن كنت غير ذلك.

انطلق صوت غير متوقَّع. كان ذلك صوت إيديث دي هافيلاند، قالت: هذا جيد، ولكن يجب أن تلتفت قليلاً إلى هذا الأمر. لو أصبحت مفلساً -يا روجر- ولم تمدد صوفيا لك يد المساعدة فسينتشر كلام كثير لن يسر صوفيا.

سألتها كليمنسي بازدراء: وماذا يهمنا من أحاديث الناس؟

تجهمت إيديث وقالت: نحن نعلم أنه لا يهمك يا كليمنسي، لكن صوفيا تعيش في هذا العالم. إنها فتاة ذكية وذات قلب طيب، ولا أشك أن أريستايد كان مصيباً تماماً عندما اختار صوفيا لتمسك ثروة العائلة... وإن يكن تجاوز ولدين ما زالا حيين ليس من أعرافنا الإنكليزية، لكني أكره أن يشيع في الناس أنها طمعت في المال وتركت روجر ولم تنجده.

ذهب روجر صوب خالته فأحاطها بذراعيه وعانقها قائلاً: كم أحبك يا خالتي إيديث... مقاتلة صامدة. لكنك لم تفهميني؛ أنا وزوجتي نعلم ما نريد مما لا نريد.

وقفت كليمنسي تتحداهم وعلى خديها الرقيقين حمرة مفاجئة:

لا أحد منكم يفهم روجر... لم تفهموه ولا أراكم سوف تفهمونه أبداً. هيا يا روجر.

غادرا الغرفة بينما بدأ جيتسكيل يجلو حنجرته ويرتب أوراقه وملمحه يدل على الاستياء، فهو يكره مثل هذه المشاهد كثيراً. واتجهت عيناي أخيراً إلى صوفيا نفسها؛ كانت تقف متصبة أنيقة بجانب الموقد وذقنها مرفوع إلى أعلى وعيناها شاخصتان.

لقد ورثت ثروة ضخمة الآن، لكنني أخشى عليها من الوحدة التي غدت تعيشها فجأة. لقد نشأ حاجز بينها وبين عائلتها، ومن الآن فصاعداً انفصلت عنهم. وحسبت أنها أدركت هذه الحقيقة من قبل وقد واجهتها... ما أثقل العبء الذي تحمله على كتفها بعد العجوز ليونايدز! هو كان يدركه وكانت هي تدركه، لقد كان مؤمناً بقوة كتفيها على حمل هذا العبء، لكنني شعرت بالأسف عليها في تلك اللحظة.

بقيت صوفيا صامتة لا تتكلم، والحق أنه لم تسعها فرصة للحديث. وجلا جيتسكيل حنجرته من أجل خطبة رقيقة بليغة ثم قال: هنيئاً لك يا صوفيا، فأنت الآن امرأة ثرية، ولكني لا أنصحك باتخاذ أي إجراء مستعجل. يمكنني أن أقدم لك الآن ما تحتاجينه من النفقة، وإذا رغبت في مناقشة الترتيبات المستقبلية فيسعدني أن أنصح لك خير نصح؛ حددي لي موعداً في فندق لينكولن متى شئت.

بدأت إيديث تتكلم: روجر...

أدركها جيتسكيل: روجر يجب أن يعتمد على نفسه. إنه رجل

كبير في الرابعة والخمسين، وقد أصاب أريستايد، لأن روجر ليس رجل أعمال ولن يكون أبداً كذلك!

ونظر إلى صوفيا قائلاً: إذا دعمتِ شركة التجهيز الغذائي ووقفت على قدميها ثانية فلا تحسبي أن روجر يقدر أن يديرها بنجاح.

- لا أحسب أنني سأجعل الشركة تقف على قدميها ثانية.

كانت تلك كلمتها الأولى؛ كان صوتها جازماً جاداً وهي تقول: من الحماقة أن أفعل.

رمقها جيتسكيل بنظرة وابتسم، ثم ودع الجميع وخرج. وحلّ الصمت قليلاً كأن كل أفراد العائلة في تفكير بالغ، ثم نهض فيليب وقال بضجر: سأعود إلى المكتبة، لقد أضعتُ وقتاً طويلاً.

توسلت إليه صوفيا: أبي!

التفت إليها فيليب بعينين باردتين فيهما عداوة، فأحسست أنها ترتجف وتتراجع إلى الوراء.

قال فيليب: سامحيني لأنني لم أهنئك... لقد كان هذا صدمة لي؛ فما كنت أصدق أن أبي يذلّني هكذا ولا يقدّر إخلاصي له طول حياتي! نعم، إخلاصي.

كانت تلك أول مرة يخرج فيها فيليب من تحفظه، صاح: يا إلهي! كيف يفعل ذلك بي؟ كان دائماً غير عادل معي، دائماً.

صاحت إيديث دي هافيلاند: لا يافيليب، لا... لا تفكر هذا التفكير. لا تظنه ازدراء؛ فالناس إذا تقدموا في العمر يميلون إلى الجيل الأصغر عفوياً. تأكد أن الأمر ليس إلا هذا، ولا تنسَ أن أريستايد كان ذا إدراك ذكي في الأعمال، لقد سمعته كثيراً يقول إن حصتين من ضريبة الإرث...

قال فيليب بصوت أجش خافت: إنه لم يهتم بي يوماً! كان يحب روجر... روجر. حسناً، لماذا؟

وظهرت على وجهه الجميل ملامح حقد غريبة وهو يقول: لقد أدرك أبي أن روجر أحمق وفاشل فحرمه من الإرث.

قال يوستيس: وماذا عني؟

لم أكن قد لاحظت يوستيس حتى تلك اللحظة. أدركت أنه كان يرتجف وينفعل انفعالاً عنيفاً، كان وجهه حانقاً وامتلأت عيناه بالدموع، وكان صوته يتردد وهو يعلو بجنون.

قال يوستيس: إنه عمل مخز... عمل مخز لعين! كيف يجرؤ جدي أن يفعل ذلك بي؟ كيف؟ كنت حفيده الوحيد فكيف يتجاوزني إلى صوفيا؟ هذا ليس عدلاً. إنني أكرهه... أكرهه ولن أغفر له أبداً طول حياتي. عجوز مستبد قذر... كنت أريده أن يموت... أردت الخروج من هذا البيت وأردت أن أكون سيد نفسي، والآن أراني تحت إمرة صوفيا ورحمتها. أتمنى لو أنني مت!

انقطع صوته وانطلق خارج الغرفة. وطقطقت إيديث دي

هافيلاند بلسانها طقطقة حادة وهمست: لماذا لا يوجد ضبط للنفس؟

قالت ماجدا: أفهم كيف يشعر تماماً.

قالت إيديث بفظاظة: أنا واثقة من أنك تعرفين.

- حبيبي المسكين! يجب أن أذهب إليه.

أسرعت إيديث وراءها: ماجدا...

اختفى صوتهما، وبقيت صوفيا تنظر إلى فيليب كأنها تتوسل إليه لكنها لم تلقَ استجابة. نظر إليها ببرود وقد ربط جأشه مرة أخرى وقال: لقد لعبت أوراقك بمهارة يا صوفيا!

ثم خرج. قلت: هذا كلام قاسٍ... صوفيا.

مدت يديها إليّ فأمسكتها بذراعي وقلت: هذا كثير عليك يا حبيبتي.

- أعرف تماماً بمَ يشعرون.

- ما كان ينبغي لذلك الشيطان العجوز أن يقحمك في هذا الحرج.

اعتدلت في وقفتها وقالت: هو ظن أنني أهل للأمر... وأنا أهله حقاً. أتمنى، أتمنى لو أن يوستيس لم يتأثر إلى هذا الحد.

- سيتغلب على ذلك.

- حقاً؟ إنني أتساءل؛ فهو يكتب ويفكر كثيراً... وأبي تأثر تأثراً بالغاً أيضاً.

- استجابة أمك مقبولة إلى حد ما.

- إنها منزعجة بعض الشيء؛ فمن غير الطبيعي أن تأتي إلى ابنتك وتسألها مالاً لتنفقه على المسرحيات. سوف تأتيني بعد قليل وتطلب مني تمويل مسرحية «إيديث ثومبسون».

- وماذا ستقولين لها؟ إن كان ذلك يجعلها سعيدة...

رفعت صوفيا رأسها إلى الوراء وقالت: أقول: لا؛ إنها مسرحية فاسدة وأمي لا تستطيع أداء الدور، ذلك هدر للمال.

ضحكت ضحكة خفيفة لم أملك نفسي منها، فسألتني صوفيا: ما الأمر؟

- لقد بدأت أدرك لماذا ترك جدك ماله لك أنت. إنك سر جدك يا صوفيا!

* * *

-٢١-

لم يصبني شعور بالأسف مثلما أصابني اليوم لأن جوزفين لم تشهد شيئاً من هذا المشهد كله. يا ليتها كانت؛ إذن لاستمتعت به كثيراً.

تعافت جوزفين بسرعة وكان متوقعاً أن تعود في أي يوم، لكن حادثاً آخر مهماً فاتها.

كنت في حديقة الصخور مع صوفيا وبريندا ذات صباح عندما اقتربت من الباب سيارة، خرج منها تافيرنر والرقيب لامب فصعدا الدرج ودخلا المنزل. وقفت بريندا جامدة تحدق إلى السيارة وقالت: هذان الرجلان... لقد عادا! كنت أظن أن كل شيء قد انتهى.

رأيتها وهي ترتجف. كانت بريندا قد انضمت إلينا قبل عشر دقائق وكانت تلتف بمعطف من الفرو الثمين، قالت: إذا لم أتنفس الهواء وألعب التمارين الرياضية فسأصبح مجنونة، وإذا ذهبت خارج البوابة فهناك صحفي يتربص بي لينقض علي... إنني كالمحاصَرة، إلى متى؟

قالت صوفيا إن الصحفيين سيملّون الانتظار عمّا قريب، وأضافت: بوسعك أن تخرجي بالسيارة.

- أقول لك إنني أريد أن أقوم بالتمارين الرياضية.

سكتت، ثم قالت فجأة: لماذا أنهيت خدمات لورانس يا صوفيا؟

أجابتها صوفيا بهدوء: إننا نعد ترتيبات أخرى من أجل يوستيس، وسوف تسافر جوزفين إلى سويسرا.

- لقد أزعجت لورانس كثيراً... إنه يشعر أنك لا تثقين به.

لم ترد صوفيا عليها، وفي تلك اللحظة وصلت سيارة تافيرنر.

قالت بريندا متذمرة وهي تقف هناك ترتجف في هواء الخريف الرطب: ماذا يريدان؟

كنت أعرف سبب مجيئهما، ولم أخبر صوفيا بشيء عن الرسائل التي وجدتها قرب الصهاريج، لكنني كنت أعلم أنهم حملوا هذه الرسائل إلى النائب العام.

خرج تافيرنر من البيت مرة ثانية ومشى فوق الممر والمرجة الخضراء، وجاء إلينا فارتجفت بريندا أكثر، وقالت بعصبية: ماذا يريد؟ ماذا يريد؟

ثم وصل تافيرنر إلينا. تكلم بغلظة وبنبرة رسمية وكان كلامه رسمياً: هذا تبليغ باعتقالك. أنت متهمة بحقن أريستايد ليونايدز حقنة الإيسيرين في التاسع عشر من أيلول الماضي، لا بد أن أنبهك إلى

أن أي شيء تنطقين به قد ينقلب دليلاً عند محاكمتك.

انهارت بريندا وصرخت: لا، لا، لا... هذا كذب! تشارلز، أخبرهم أن هذا ليس صحيحاً. لم أفعل ذلك، لم أكن أعلم أي شيء من ذلك. إنها مؤامرة... لا تدعهم يأخذونني. هذا كذب... افهمني، هذا ليس صحيحاً... أنا لم أفعل شيئاً...

كان مشهداً فظيعاً، فظيعاً حتى لم أصدقه. وحاولت تهدئتها ووعدتها بأن أعيّن لها محامياً يتولى كل شيء. ثم كلمها تافيرنر بلطف، قال لها: هيا يا سيدة ليونايدز. هل تريدين قبعة؟ لا؟ إذن نذهب في الحال.

تراجعت وهي تنظر إليه بعينَي قطة جاحظتين، وقالت: لورانس... ماذا فعلتم بلورانس؟

قال تافيرنر: إن السيد لورانس براون هو الآخر رهن الاعتقال.

سكن جسدها المرتجف وسالت الدموع على خديها، وتبعت تافيرنر عبر المرجة إلى السيارة. رأيت لورانس براون والرقيب لامب يخرجان من البيت، وركبوا جميعاً في السيارة وانطلقت بهم.

نظرت إلى صوفيا، كانت شاحبة والألم ظاهر في وجهها. قالت: إنه أمر مخيف يا تشارلز... مخيف.

- أعرف.

- لا بد أن تحضر لها محامياً قديراً... أحسن محام. يجب... يجب أن تأتي بكل مساعدة ممكنة. لا أفهم هذه الأمور، لَم أرَ أحداً يُعتقل أمامي من قبل.

قلت: أعلم، فالمرء لا تكون عنده فكرة عن هذه الأشياء.

صمتنا، وبقيت أفكر في الرعب اليائس على وجه بريندا، ثم أدركت السبب فجأة. كانت هذه هي الملامح التي رأيتها على وجه ماجدا في أول يوم دخلت البيت المائل ساعة كانت تتحدث عن مسرحية «إيديث ثومبسون». كانت قد قالت: «وبعدها... الرعب التام».

الرعب التام... هذا ما كان على وجه بريندا. لم تكن من الصنف المقاتل، وتساءلت إن كانت أعصابها تهيئها لارتكاب جريمة قتل... ولعلها لم ترتكبها. ربما فعلها لورانس براون بسبب هوسه الشديد وشخصيته المتقلبة، وضع محتوى زجاجة صغيرة في زجاجة أخرى صغيرة... عمل سهل بسيط من أجل امرأة أحبها.

تنهدت صوفيا بعمق وقالت: إذن فقد انتهى الأمر؟ لكن لماذا يحبسونهما ولم يظهر بعد دليل كاف؟

- بل ظهرت بعض الأدلة... رسائل.

- أتعني رسائل حب؟

- نعم.

- وهما يحفظان مثل هذه الأشياء؟ يا للحماقة!

- نعم؛ كانا أحمقين حقاً. إنها الحماقة التي تجعلهما لا يستفيدان من خبرة الناس. لا يمكنك أن تفتح صحيفة يومية فلا تقرأ مثالاً لهذه الحماقة... الرغبة في الاحتفاظ بالكلمة المكتوبة، الحب الأكيد المكتوب.

قلت: إنه عمل وحشي يا صوفيا. لكن لا تغضبي من أجله؛ فهذا ما كنا جميعاً نأمله من البداية، أليس كذلك؟ هذا قولك أنت في أول ليلة التقينا بها؛ قلتِ إنك تتمنين أن يكون الشخص الذي تفكرين فيه هو مَن قتل جدك... وبريندا كانت هي التي خطرت ببالك، أليس كذلك؟ بريندا أم لورانس؟

- توقف يا تشارلز... إنك تبعث في قلبي الرعب!

- الآن نستطيع أن نتزوج يا صوفيا. لا تصدّيني أكثر؛ فعائلة ليونايدز بريئة من القضية.

حدقت إليّ، ولم أدرك لمعة عينيها الزرقاوين من قبل. قالت: نعم؛ أعتقد أننا أبرياء منها الآن. إننا أبرياء... لكن هل أنت متأكد؟

- يا عزيزتي، ليس لأحدٍ منكم ذرة من دافع لقتله.

شحب وجهها فجأة وقالت: إلا أنا يا تشارلز... لقد كان لديّ دافع.

قلت ذاهلاً: نعم، بالطبع... لكنه لم يكن يدفعك في الحقيقة؛ فأنت لم تكوني على علم بأمر الوصية.

همست: بل كنت أعلم يا تشارلز.

- ماذا؟!

- كنت أعلم أن جدي أوصى بماله لي.

- كيف؟

- لقد أخبرني جدي بذلك قبل أسبوعين من مقتله؛ قال لي

فجأة: "لقد تركت ثروتي كلها لك يا صوفيا. يجب أن تعتني بالعائلة من بعدي".

حدقت من الدهشة وقلت: أنت لم تخبريني بذلك من قبل!

- نعم. اسمع، عندما أوضح الجميع أمر الوصية وتحدثوا كيف وقّعها ظننته ارتكب خطأً بحديثه ذاك معي وأنه يحسب أنه تركها لي وحدي. أو أنه، إذا كتب وصية يترك فيها ثروته لي، فإنها إذن قد ضاعت ولن تظهر أبداً. لم أحب أن تظهر الوصية... كنت خائفة.

- خائفة؟ لماذا؟

- أظن... لعله بسبب القتل.

تذكرت نظرة الرعب على وجه بريندا والهلع غير المبرر، وذكرت الرعب الذي خطر ببال ماجدا... الرعب التام، حين فكرت في أن تمثل دور القاتلة. لم يكن الذعر ليدخل في قلب صوفيا، لكنها كانت واقعية وكانت تستطيع أن ترى تماماً أن وصية ليونايدز ستجعلها في موقع الشبهة.

عرفت الآن أكثر وأكثر لماذا رفضت زواجنا وفهمت إلحاحها عليّ لأكشف الحقيقة. لا شيء سوى الحقيقة ينفعها... لقد قالت ذلك برغبة عارمة ولهفة أذكرها جيداً.

عدنا نسير نحو البيت. وفجأة تذكرت شيئاً آخر كانت قد قالته؛ لقد قالت صوفيا إنها تستطيع أن تقتل شخصاً ما ولكن ذلك سيكون من أجل شيء يستحق القتل!

* * *

-٢٢-

جاء روجر وكليمنسي يمشيان بخفة نحونا عند منعطف في حديقة الصخور. كانت ثياب روجر الواسعة تناسبه أفضل من الثياب الرسمية، وبدا متلهفاً ثائراً، أما زوجته فكانت عابسة. قال: مرحباً بكما. أخيراً! ظننت أنهم لن يعتقلوا تلك المرأة القذرة... لا أدري ماذا كانوا ينتظرون؟ حسناً، لقد سجنوها مع صديقها البائس وأرجو أن يشنقوهما معاً.

ازدادت كليمنسي عبوساً وقالت: لا تكن متوحشاً يا روجر.

- متوحشاً! هراء، عندما يُقتل عجوز مسكين بالسم عمداً وبدم بارد وهو لا حول له ولا قوة ثم أبتهج لأنهم أمسكوا المجرم لينال عقابه تزعمين بأنني متوحش؟ يا ليتني أشنق تلك المرأة بيدي! لقد وثق العجوز بها فخانته. حين جاء الشرطة ليقبضوا عليها كانت معكما، أليس كذلك؟ كيف كان حالها؟

قالت صوفيا بصوت خافت: كان موقفاً رهيباً، كانت مذعورة حتى فقدت صوابها.

- إنها تستحق ذلك.

قالت كليمنسي: لا تكن حقوداً.

- إنك لن تستوعبي الموقف يا عزيزتي، فهو لم يكن والدك. كنت أحب والدي، ألا تفهمين؟ كنت أحبه.

- لقد فهمت الآن.

قال روجر بشكل يشبه المزاح: ليس لك خيال يا كليمنسي، ماذا لو كان الذي تسمم أنا؟

رأيت كيف انخفض جفناها وكيف صفقت كفيها وقالت تزجره: لا تقل أشياء كهذه وإن كنت مازحاً.

- لا عليك يا عزيزتي، سنرحل من هنا عمّا قريب، الآن سيطلقوننا فنذهب.

سألتها: أأنت مهتمة بالرحيل كثيراً؟

- إن البقاء في هذا البيت يرهقني.

نظرت إليها دَهِشاً فابتسمت ابتسامة باهتة وأومأت برأسها قائلة: ألم ترَ يا تشارلز أنني كنت أقاتل طوال الوقت؟ أقاتل من أجل سعادتي، من أجل سعادة روجر... خشيت كثيراً أن تقنعه العائلة بالبقاء في إنكلترا؛ فهذا يعني أن نستمر في العيش معهم ونظل في قيود الروابط العائلية... خشيت أن تعطيه صوفيا مالاً فيبقى في إنكلترا ظاناً أن في ذلك راحة ومتعة لي. إن مشكلة روجر أنه لا يصغي... لديه أفكار ولكنها خاطئة. إنه لا يعرف شيئاً، وهو -مثل أبيه- يظن أن سعادة المرأة في راحتها والمال... لكني سأقاتل من أجل سعادتي،

سأقاتل، سآخذ روجر بعيداً وأمنحه الحياة التي تناسبه حيث لن يشعر بالفشل... أريده لنفسي بعيداً عنهم جميعاً، بعيداً تماماً.

كان كلامها سريعاً بصوت خافت ويأس جفلت منه، فلم أكن أدرك أنها كانت على حافة الانهيار، وأنا لم أدرك أيضاً كيف أن شعورها نحو روجر كان شعور يأس وتملك، عندها تذكرت تلك الكلمة الغريبة التي قالتها إيديث دي هافيلاند: «هذا الحب الأعمى»... لقد اقتبسَتْها بنبرة غريبة. ترى أكانت تفكر في كليمنسي؟

أظن أن روجر كان يحب والده أكثر من أي شخص آخر، حتى زوجته التي كان مخلصاً لها. لقد أدركت لأول مرة كيف كانت رغبة كليمنسي في الاستحواذ على زوجها رغبة ملحة، ورأيت أن حبها روجر هو محور وجودها. كان هو طفلها، وزوجها، وحبيبها!

وصلت سيارة نحو الباب الأمامي، ورأينا فيها جوزفين. خرجت جوزفين وماجدا من السيارة، وكان رأس جوزفين ملفوفاً بضمادة، لكنها بدت معافاة رغم ذلك.

قالت جوزفين من فورها: أريد أن أرى سمكتي الذهبية.

كانت تنظر إلينا وإلى بركة الماء، وقالت ماجدا: من الأفضل لك أن تستريحي أولاً بعض الوقت وتتناولي بعض الأطعمة المغذية يا حبيبتي.

- لا عليك يا أمي.

كنت أعلم أن جوزفين كانت تستطيع مغادرة المستشفى منذ

بضعة أيام في الحقيقة، وأن إشارة من تافيرنر هي التي أبقتها هناك أياماً أخر، فهو لم يرغب في أن يجازف بسلامة جوزفين حتى يُعتقل المشبوهون.

قلت لماجدا: أعتقد أن الهواء النقي ينفعها، سأذهب لمراقبتها.

أمسكت بجوزفين قبل أن تصل إلى بركة الماء وقلت: لقد حدثت جميع الأشياء بينما كنتِ بعيدة عن البيت.

لم تجبني جوزفين، بل نظرت بعينيها الضعيفتين إلى البركة وقالت: أين فيرديناند؟

- أيها هو فيرديناند؟

- ذلك الذي له أربعة ذيول.

- ذلك النوع مسل، فأنا أحب السمك الذهبي اللامع.

- إنه مشهور.

- ولا أهتم كثيراً بتلك السمكة البيضاء التي تبدو وكأنها قميص عفن!

نظرت جوزفين إليّ نظرة ازدراء وقالت: هذه سمكة الشيبارنكين، إنها غالية الثمن... أغلى من السمك الذهبي بكثير.

- ألا تودين معرفة ما حدث يا جوزفين؟

- أعتقد أنني أعرف ذلك.

- هل عرفت بالوصية الأخرى وأن جدك ترك ثروته لصوفيا؟

أومأت جوزفين بأسلوب يدل على ضجرها وهي تقول: لقد أخبرتني أمي... وعلى أية حال كنت أعرف ذلك من قبل.

- هل تقصدين أنك سمعت ذلك وأنت في المستشفى؟

- لا، بل كنت أعرف أن جدي أوصى بماله لصوفيا، سمعته يقول لها ذلك.

- أكنت تتنصتين؟

- أجل، فأنا أحب التنصّت.

- إنه عمل مخزٍ، وتذكري أن الذين يتنصتون لا يسمعون خيراً لأنفسهم.

نظرت إليّ نظرة غريبة وقالت: بل لقد سمعت ما قاله لها بشأني إن كان هذا ما تعنيه. إن ناني تغضب إن هي أمسكت بي وأنا أتنصت على الأبواب، وهي تقول إنه عمل غير طبيعي من «ليدي» صغيرة.

- إنها على حق تماماً.

- آه، لا توجد «ليدي» في هذه الأيام... كانوا يقولون ذلك في هيئة الخبراء؛ زعموا أنه لقب قديم.

غيرت الحديث قائلاً: لقد تأخرت في العودة إلى البيت وفاتك الحدث الكبير... لقد قبض رئيس المفتشين على بريندا ولورانس.

كنت أتوقع من جوزفين، فتاة التحري الصغيرة، أن تهتز من هذا الخبر، لكنها رجعت تقول بأسلوبها الممل المثير للجنون: أعرف.

- كيف وقد حدث ذلك لتوه؟

- مرت السيارة من جانبنا في الطريق. كان رئيس المفتشين تافيرنر ورجل التحري الذي يلبس الحذاء السويدي في السيارة وخلفهما بريندا ولورانس فعرفت أنهما قد اعتُقلا ولا شك. أرجو أن يكون قد حذّرهما... يجب عليه ذلك.

أكّدت لها أن تافيرنر قد اتبع الأصول بحزم. ثم قلت معتذراً: نسيت أن أخبرك بأمر الرسائل... لقد وجدتها وراء الصهاريج.

تحسست جوزفين رأسها بيدها بحيوية وقالت بزهو: كدت أن أكون مقتولة... لقد قلت لك إن الوقت حان لتظهر جريمة قتل ثانية... لقد كانت غرفة الصهاريج مخبأ سيئاً لهذه الرسائل. عرفت ذلك منذ رأيت لورانس يخرج منها ذات يوم... لم يكن رجلاً نافعاً يحسن أشياء مثل إصلاح الصنابير أو الأنابيب أو الكهرباء، فعرفت أنه كان يخفي شيئاً هناك بلا شك.

ثم انقطع صوتها عندما سمعت صوت إيديث دي هافيلاند ينادي آمراً: جوزفين، جوزفين، تعالي هنا في الحال.

تنهدت جوزفين وقالت: مزيداً من الجلبة... لكن من الأفضل أن أذهب؛ يجب عليك أن تطيع إن كان الآمر هو الخالة إيديث.

ركضت عبر المرجة وتبعتها ببطء، وبعد كلمات قليلة دخلت جوزفين إلى البيت. واتجهتُ إلى إيديث عند المصطبة حيث أرعبني القلق والمعاناة في وجهها؛ فقد بدت منهكة ومهزومة. ولمحت في وجهي اهتماماً وحاولت أن تبتسم.

قالت: يبدو أن تلك الطفلة قد جلبت لنفسها السوء بمغامراتها. سوف نعتني بها أحسن عناية... ما أسعدني لأن الأمر قد انتهى!

وتنهدت ثم قالت: يا له من عرض! إذا ما تم سجنك بتهمة قتل فلا أقل من بعض الكرامة. إنني لا أصبر على أناس مثل بريندا التي انهارت وكانت تصرخ؛ هؤلاء الناس لا يملكون الجرأة... كان لورانس براون كأرنب حُشر في زاوية.

قلت لها مشفقاً: شريران مسكينان.

- نعم، شريران مسكينان. أظن أنها تدرك كيف تحفظ نفسها، أليس كذلك؟ أقصد البحث عن محامين أكفاء ونحو ذلك.

ما أغرب هذا الأمر! كلهم يكرهون بريندا لكنهم يهتمون بأن تحصل على كل فرصة للدفاع عن نفسها. ومضت إيديث تتكلم: كم سيطول الأمر؟ كم سيستغرق الأمر كله؟

قلت إنني لا أعرف تماماً، فربما يجري التحقيق في مركز الشرطة ثم ينقلان إلى المحكمة، وقدرت أن يتم ذلك في غضون ثلاثة أشهر أو أربعة، وإذا تمت إدانتهما فسيكون استئناف.

- وهل تظن أن تتم إدانتهما؟

- لا أدري، لا أدري ما هي أدلة الشرطة تماماً. ثمة رسائل...

- رسائل حب؟ إذن فقد كانا عشيقين؟

- هذا ما يبدو.

عبست وقالت: لست سعيدة لسماع ذلك يا تشارلز. أنا لا أحب بريندا، وكنت من قبل أكرهها كثيراً وقلت أشياء قاسية بحقها، لكني أشعر الآن برغبة في أن تحصل على فرصة، كل فرصة ممكنة! كان أريستايد سيتمنى ذلك. أتمنى أن تلقى بريندا العدل والإنصاف.

- ولورانس؟

هزت كتفيها وقالت: لورانس! على الرجال أن يعتنوا بأنفسهم، وما كان أريستايد ليغفر لنا لو أننا...

لكنها قطعت حديثها فجأة قائلة: لا بد أن وقت الغداء قد حان؛ من الأفضل أن ندخل.

شرحت لها أنني مسافر إلى لندن، فسألتني: في سيارتك؟

- نعم.

- فهل ستطيع أن تأخذني معك؟ أعتقد أنه قد سُمح لنا أن نخرج.

- أجل، لكني أظن أن ماجدا وصوفيا ستذهبان إلى لندن بعد الغداء، وسوف تشعرين براحة أكبر معهما لأن سيارتي بمقعدين فحسب.

- لا أريد مرافقتهما... خذني معك ولا تتكلم كثيراً.

فوجئت، لكني أطعتها. ولم نتكلم كثيراً في طريقنا إلى المدينة، سألتها: أين تريدين؟

- شارع هارلي.

أصابني بعض الخوف وأنا أتخيّل «شارع الأطباء»، لكني لم أحب أن أبدو متطفلاً. وأخيراً قلت: أرجو...

ثم سكتّ فقالت: من أجل هذا لم أحب مرافقة ماجدا... إنها تثير النقاش وتخلق ضجة كبيرة.

- أنا آسف جداً.

- لا حاجة بك للأسف؛ لقد عشت حياة طيبة... حياة طيبة جداً.

ثم ابتسمت ابتسامة مفاجئة وقالت: وهي لم تنته بعد.

* * *

-٢٣-

لم أكن قد رأيت والدي منذ بضعة أيام. وجدته مشغولاً بأمور أخرى غير قضيتنا فذهبت أبحث عن تافيرنر. كان تافيرنر يستمتع بفترة راحة قصيرة ولم يكن عنده ما يشغله وكان يرغب في الخروج وتناول العصير معي.

هنأته على كشف القضية فتقبل تهنئتي بفتور وقال: لقد انتهى ذلك ولدينا قضية... لا أحد ينكر أن لدينا قضية واضحة الآن.

- أتظن أنك ستنجح في إدانتهما؟

- الإجابة على ذلك مستحيلة؛ فالدليل الذي بحوزتنا غير مباشر، وهو ما يكون غالباً في قضايا القتل. إن شيئاً كثيراً يعتمد على أقوالهما في هيئة المحلفين ونظرة المحلفين إليهما.

- وما هو أثر الرسائل؟

- تبدو رسائل خطيرة لمن ينظر فيها أول مرة يا تشارلز. إن فيها إشارات إلى حياتهما معاً بعد أن يموت زوجها وكلمات مثل: «لن يطول الأمر»... لكن محامي الدفاع سوف يجتهد أن يلويها إلى

جهة أخرى مدّعياً أن الزوج كان كبيراً جداً، وإذن فقد كانا يتوقعان موته بالطبع... وهو أمر معقول. ليس فيها ذكر صريح للسم، لكن فيها بعض فقرات ربما تعني ذلك. وهذا يرجع إلى القاضي الذي يتولى القضية، فإن كان هو العجوز كاريري فلن يرحمهما... إنه رجل مستقيم يغضب للخيانة الزوجية. أظن أن إيغلز أو هامفري كير سيحضر ليدافع عنهما... هامفري رائع في هذه القضايا لكنه يحب أن يكون للمتهم سجل حربي جريء أو شيء كهذا ليساعده في العمل. إن المسألة ستكون: هل تميل هيئة المحلفين إليهما؟ أنت لا تعرف أمر هؤلاء المحلفين، لكن هذين الاثنين لا يستحقان عطف الناس عليهما في الحقيقة يا تشارلز... امرأة حسناء تزوجت كهلاً كبيراً من أجل ماله. أما براون فهو فتى هادئ غير عنيف أو عصبي المزاج. ربما يقررون أنه فعلها وأنها لم تكن تعلم عن الأمر شيئاً أو أنها هي ارتكبتها بينما لم يكن هو يعلم شيئاً عنها، ولعلهم يقررون أنهما كلاهما مشتركان فيها.

- وما قولك أنت؟

رمقني بنظرة جامدة خالية من التعبير وقال: أنا لا أقول شيئاً. لقد عرضت الحقائق ورفعت إلى المدعي العام وتقرر أن هناك قضية... هذا كل الأمر. لقد قمت بواجبي وانتهى دوري الآن، فهل عرفت الأمر يا تشارلز؟

لم أعرف، ورأيت أن تافيرنر لم يكن سعيداً لسبب ما.

لم أُفضِ بما في نفسي لوالدي إلا بعد ثلاثة أيام، وهو لم يذكر

لي القضية أبداً. كان بيننا شيء من التحفظ، وأعتقد أنني كنت أعرف سببه، وكان عليّ أن أكسر هذا الحاجز بيننا.

قلت: علينا أن ننتهي من هذا الأمر. إن تافيرنر ليس مقتنعاً بأنهما فعلاها، كما أنك أنت لست مقتنعاً أيضاً.

هزّ والدي رأسه وكرر قولة تافيرنر: ليس لنا الآن من الأمر شيء؛ هناك قضية ينبغي حلها، لا شك في ذلك.

- لكنك لا تظن أنت ولا تافيرنر يظن أنهما مذنبان.

- هذا الأمر يقرره المحلفون.

- أبي، لا تتهرب مني بهذه المصطلحات. ما هو رأيك، بل ما هو رأيكما كليكما؟

- رأيي الشخصي ليس أفضل من رأيك يا تشارلز.

- بل هو كذلك، فإن خبرتك أفضل من خبرتي.

- إذن أصْدُقك: أنا لا أعرف.

- هل يمكن أن يكونا مذنبين؟

- آه! نعم.

- لكنك ترتاب في ذلك.

- وكيف للمرء أن يتأكد؟

- لا تتهرب مني يا أبي. لقد كنتَ متأكداً من ذلك في أوقات

أخرى، أليس كذلك؟ كنت متأكداً تماماً من غير أدنى شك.

- بلى، أحياناً وليس دائماً.

- أرجو من الله أن تكون متأكداً في هذه المرة.

- وأنا أيضاً أرجو ذلك.

صمتنا كلانا. كنت أفكر في أمر هذين الاثنين اللذين تسللا من الحديقة وقت الغسق وحيدَين خائفَين. كانا خائفين، ألم يكن الخوف يدل على الشعور بالذنب؟ لكني أجبت نفسي: ليس ذلك بالضرورة؛ فقد كان لورانس وبريندا خائفين من الحياة ولم تكن عندهما ثقة بالنفس ولا قدرة على مواجهة الخطر.

تكلم والدي بلطف وهدوء: هيا يا تشارلز، دعنا نواجه الحقيقة. أنت ما زلت ترى في نفسك أن أحد أفراد عائلة ليونايدز هو القاتل، أليس كذلك؟

- ليس ذلك في الحقيقة... إنني أتساءل فقط.

- بل تعتقد ذلك... ربما تكون مخطئاً لكنك تعتقده.

- نعم.

- لماذا؟

- لأن... لأن... نعم، هذا هو؛ لأنهم يعتقدونه هم أنفسهم.

- هم يعتقدون ذلك؟ هذا مثير للاهتمام! أتقصد أنهم يشتبهون بعضهم ببعض أم أنهم يعرفون القاتل؟

- لا أدري؛ فالأمر كله غامض جداً. على كل حال فهم يحاولون أن يحجبوا عن أنفسهم المعرفة.

أومأ والدي برأسه، فقلت: ليس روجر... روجر يعتقد من كل قلبه أن الفاعل هو بريندا ويتمنى ويدعو أن تُعلّق على المشنقة. مشكلة روجر سهلة لأنه بسيط وواثق من نفسه وليس في صدره شيء، لكن الآخرين يميلون إلى الاعتذار. إنهم مرتبكون ويصرون عليّ بأن أتأكد أن بريندا ستحصل على أفضل محامٍ وعلى كل فرصة ممكنة. لماذا؟

- لأنهم لا يعتقدون في قلوبهم أنها مذنبة. نعم، هذا صحيح. تشارلز، من يكون قد فعلها يا ترى؟ هل تحدّثت إليهم جميعا؟ من هو أفضل رهان؟

- لا أعرف، لكنني أشعر شعوراً صادقاً بأن القاتل هو أحدهم.

- صوفيا؟

- لا... يا إلهي! لا.

- إن الاحتمال موجود في ذهنك يا تشارلز، نعم، إنه كذلك. لا تحاول إنكاره، ألم يخطر في ذهنك يا تشارلز؟ بلى، وهو وجه قوي لن تعترف به. ماذا عن الآخرين؟ فيليب؟

- من أجل دافع غريب جداً فقط.

- قد يكون الدافع غريباً أو لعله سخيف قليلاً. ما هو دافعه؟

- إنه شديد الغيرة من روجر. كان غيوراً طوال حياته، إن تفضيل روجر عليه قد دفعه إلى الوحدة والخلوة بنفسه، وكان روجر يوشك على الانهيار مادياً ثم سمع العجوز ذلك فوعده بالمساعدة، فماذا لو علم فيليب بذلك؟ لو مات العجوز في تلك الليلة فلن ينال روجر المساعدة فيسقط ويخرج من العمل. أعرف أن هذا سخيف.

- لا، بل هو أمر شاذ ربما يحدث، فهو سلوك بشري متوقع. وماذا عن ماجدا؟

- الحق أنها طفولية. إن تصرفاتها لا تناسب مكانتها، لكني ما كنت لأفكر يوماً أنها قد تكون متورطة لولا عزمها المفاجئ على إرسال جوزفين إلى سويسرا. لعلها خافت من شيء تعرفه جوزفين.

- ثم ضربت جوزفين على رأسها؟

- لا تفعل الأم ذلك.

- ولِمَ لا؟

- لكن يا أبي، إن الأم لا يمكن...

- تشارلز، تشارلز، ألا تقرأ بيانات الشرطة؟ كم جريمة سببها كراهية أم لأحد أطفالها!

اعترفت لأبي: إنها تمازح جوزفين وتقول إنها ليست ابنتها.

- وهل كانت الطفلة تهتم؟

- ربما.

- من غيرهم؟ روجر؟

- روجر لم يقتل والده... أقسم على ذلك.

- استثنِ روجر إذن. زوجته... ما اسمها؟ كليمنسي؟

- نعم. لو كانت هي التي قتلت العجوز ليونايدز فإن هذا سيكون لسبب غريب جداً.

سردت عليه حديثي مع كليمنسي وقلت: لعلها قتلت الرجل العجوز رغبة منها في إخراج روجر من إنكلترا. لقد أقنعت روجر بأن يذهب ويخبر والده، وحين عرف العجوز بالأمر أراد دعم شركة التجهيز الغذائي فأُحبطت آمال كليمنسي وخطتها جميعاً. إنها تهتم بأمر روجر وهي يائسة... كانت تحبه حباً أعمى.

- أنت تردد ما قالته إيديث دي هافيلاند.

- نعم، وإيديث واحدة أخرى. أظنها قد تفعلها لكني أجهل السبب... ربما رغبةً في السيطرة على أهل البيت؛ فهي تحب الهيمنة.

- وهي أيضاً مهتمة بأن تلقى بريندا محامياً قديراً، أليس كذلك؟

- بلى، وربما يدل هذا على ضميرها الحي؛ فلو أنها ارتكبت الجريمة لأرادت أن تلصق التهمة ببريندا.

- ربما، ولكن، هل كانت ستصرع الطفلة جوزفين؟

- لا، وهذا يذكّرني بأن جوزفين قالت لي شيئاً ما زال يلحّ على ذهني ولا أستطيع أن أتذكر ما هو... لقد نسيته. لكنه شيء يخالف المألوف، ليتني أستطيع أن أذكره!

- لا عليك، سوف تذكره. أفي ذهنك شيء أو اسم آخر؟

- نعم، كثير جداً. ماذا تعرف عن شلل الأطفال؟ أقصد، ما أثره في الشخصية؟

- يوستيس؟

- نعم، كلما فكرت في هذا الأمر أكثر بدا لي أن يوستيس يفعلها. كراهيته واستياؤه من جده وكآبته وغرابة أطواره... إنه الوحيد في العائلة الذي يمكن أن يقتل جوزفين بطريقة لا ترحم إذا كانت تعرف عنه شيئاً. ولعلها تعرف؛ لأن جوزفين تعرف كثيراً وتدوّن أشياء كثيرة في دفتر صغير.

وسكتُّ فجأة ثم صحت: يا إلهي، يا لحماقتي!

- ماذا أصابك؟

- الآن عرفت ما الخطأ. لقد افترضنا أنا وتافيرنر أن تخريب غرفة جوزفين والبحث المحموم فيها كان من أجل تلك الرسائل. كنت أظن أنها هي التي أخفتها في غرفة الصهاريج لكنها، حين كلمتني البارحة، قالت إن لورانس هو الذي كان يخبئها فيها لأنها شاهدته يخرج من غرفة الصهاريج فذهبت تتلصص فوجدت الرسائل. ثم قرأتها بالطبع، لكنها تركتها مكانها.

- حسناً؟

- ألا تفهم؟ كيف يبحث ذلك الشخص عن الرسائل في غرفة جوزفين؟ لا بد أنه كان يريد شيئاً آخر.

- وما ذلك الشيء؟

- الدفتر الأسود الصغير الذي كانت تدون فيه نتائج أعمال التحري الذي تقوم به. إنه الشيء الذي كان يبحث ذلك الشخص عنه. وأظن أن ذلك الشخص لم يجده، بل أعتقد أن جوزفين ما زالت تحتفظ به، فإن كان كذلك...

هممت بالنهوض فقال أبي: إن كان كذلك فإنها ما تزال في خطر، أليس هذا ما كنت تقصده؟

- بلى، لن تنجو من الخطر حتى ترحل إلى سويسرا. إنهم يخططون لإرسالها.

- هل تريد هي أن تذهب؟

فكرت ثم قلت: لا أظن.

قال أبي بحدة: إذن فربما لا تذهب. لكنك مصيب في شأن الخطر، خير لك أن تذهب هناك.

صرخت: يوستيس؟ كليمنسي؟

قال والدي: الحقائق في ذهني تشير بوضوح إلى احتمال واحد يا بني. إني أعجب كيف لا تراها هكذا؛ فأنا...

فتح غلوفر الباب وقال: عذراً يا سيد تشارلز، مكالمة لك. الآنسة ليونايدز تتحدث من سوينلي دين... الأمر عاجل.

ظننت أن الأمر تكرار مرعب، وفكرت بسرعة: هل سقطت جوزفين ضحية مرة أخرى وهل أصاب القاتل هدفه هذه المرة؟

أسرعت إلى الهاتف: صوفيا؟ أنا تشارلز.

جاء صوت صوفيا وفيه نبرة من اليأس: تشارلز... الأمر لم ينتهِ بعد! إن القاتل لا يزال هنا!

- ماذا تقصدين؟ ماذا جرى؟ هل هي... هل هي جوزفين؟

- ليست جوزفين، بل ناني.

- ناني؟

- أجل، كان على الطاولة بعض الكاكاو... كاكاو لجوزفين. ولم تشربه، تركته على الطاولة، ناني حسبت أن من المؤسف سكبه فشربته.

- المسكينة ناني. وكيف حالها؟

انقطع صوت صوفيا: آه تشارلز... لقد ماتت!

* * *

-٢٤-

عدنا إلى الكابوس ثانية... هذا ما خطر ببالي بينما كنت وتافيرنر في السيارة خارجين من لندن كما فعلنا في رحلتنا الأولى.

كان تافيرنر يخفف من توتره بالشتائم بين فترة وأخرى في حين كنت أنا أكرر من وقت لآخر بغباء وبلا فائدة: إذن فلم يكونا بريندا ولورانس، لم يكونا بريندا ولورانس!

هل اعتقدتُ أنهما هما مَن ارتكب الجريمة حقاً؟ كنت سعيداً بهذا الاعتقاد لأنه يدفع عن الآخرين الاحتمالات الأكثر شراً. لقد تبادلا العاطفة وكتبا رسائل حب سخيفة وأخذتهما الآمال بموت العجوز قريباً بسلام وسعادة... لكن هل كانا يرغبان في موته حقاً؟

أحسست أن بريندا كانت تتوق فقط إلى حياة رومانسية، أما لورانس فأظنه يستمتع بالإحباط وأحلام المستقبل الغامض ويفرح بالسعادة الروحية أكثر من التفكير في الزواج.

لقد أوقعهما الخوف في فخ فلم يكونا ذكيين في الخروج من هذا المأزق. كان لورانس غبياً إذ لم يتلف رسائل بريندا، أما

بريندا فأظن أنها قد أتلفت رسائله لأن أحداً لم يجدها. إذن لم يكن لورانس هو مَن وضع تلك القطعة الرخامية فوق باب غرفة الغسيل، بل شخص آخر ما زال يستر وجهه بقناع.

توقفت السيارة بنا عند باب البيت المائل، وخرج تافيرنر وتبعته فرأينا رجلاً قدرت أنه من الشرطة السرية في الصالة، حيا تافيرنر فجذبه تافيرنر إليه.

لفتت انتباهي كومة من الأمتعة في الصالة عليها رقاع وقد رُزمت لتحمل، وعندما نظرت إليها نزلت كليمنسي عن الدرج وهي ترتدي ثوبها الأحمر وعليها معطف وقبعة حمراء. قالت: لقد جئت في الوقت المناسب لتودعنا يا تشارلز.

- وهل أنتما مسافران؟

- سنذهب إلى لندن الليلة، وسوف تطير طائرتنا في وقت مبكر من صباح الغد.

كانت هادئة تبتسم وقد بدا الترقب في عينيها. قلت: لكنكما لن تستطيعا الذهاب الآن بالتأكيد.

- ولِمَ لا؟

كان صوتها قاسياً. قلت: من أجل هذه الوفاة.

- ليست لنا أية علاقة بوفاة ناني.

- ربما، لكن...

- لماذا تقول: «ربما»؟ لا شأن لنا بالأمر. كنت أنا وروجر في الطابق الأعلى نحزم أمتعتنا ولم ننزل أبداً ولا لحظة ساعة تُرك الكاكاو على طاولة الصالة.

- هل يمكنك أن تثبتي ذلك؟

- أستطيع إثباته بالنسبة لروجر، وهو يستطيع إثبات ذلك بالنسبة لي.

- ألا شيء غير هذا؟ أنتما زوجان، تذكّري ذلك.

اشتعل غضبها وصاحت: مستحيل يا تشارلز! أنا وروجر راحلان لكي نحيا حياتنا الخاصة، فلماذا نسمّ عجوزاً لطيفة حمقاء لم تؤذِنا أبداً؟

- لعلكما لم تكونا تقصدان تسميمها هي.

- ونحن لا نسمم طفلة أيضاً.

- هذا يعتمد على الطفلة في الواقع، أليس كذلك؟

- ماذا تقصد؟

- جوزفين ليست طفلة عادية؛ إنها تعرف عن الناس كثيراً. إنها...

سكتت، وظهرت جوزفين من الباب تسير نحو غرفة الاستقبال تقضم تفاحة وعيناها تلمعان وخداها متوردان وهي فَرِحة فرحاً

شديداً. قالت: لقد سُمّمت ناني مثل جدي... أمر مثير، أليس كذلك؟

سألتها بقوة: ألا يزعجك ذلك؟ ألم تكوني تحبينها؟

- قليلاً؛ كانت تزجرني دائماً وتثير الضجة.

سألتها كليمنسي: هل تحبين أحداً يا جوزفين؟

أدارت جوزفين عينيها الغوليتين نحو كليمنسي وقالت: أحب خالتي إيديث كثيراً، وأحب يوستيس... لكنه نذل، لم يشاركني في اكتشاف الفاعل.

قلت: من الأفضل لك يا جوزفين أن تكفّي عن تحرياتك، فهذا عمل غير آمن.

- لا حاجة لأن أتحرى شيئاً منذ الآن... إنني أعرف.

صمتنا لحظة، وبقيت عينا جوزفين ساكنتين لا تطرفان وهما تنظران إلى كليمنسي. ثم سمعت صوتاً كالشهيق فاستدرت إلى الخلف، كانت إيديث دي هافيلاند تقف في وسط الدرج لكنها لم تكن صاحبة الشهيق، فقد جاء الصوت من وراء الباب الذي جاءت منه جوزفين لتوها.

خطوت نحوه بخفة وفتحته بقوة فلم أر أحداً. وأصابني قلق شديد؛ كان بالباب شخص وسمع كلمات جوزفين هذه. عدت فأمسكت جوزفين من ذراعها وهي تأكل تفاحتها وتحدق في كليمنسي بثبات، وأحسست أن وراء هدوئها رضا خبيثاً.

قلت: هيا يا جوزفين، سنذهب لنتحدث قليلاً.

أظن أن جوزفين تمنّعت لكني لم أكن أحتمل أي كلام تافه، فأسرعت بها رغماً عنها إلى الجناح الذي تسكن فيه وأخذتها إلى غرفة صغيرة لا تُستعمل حيث لن يسمعنا أحد. أغلقت الباب بقوة وأجلستها على كرسي وأخذت كرسياً آخر وسحبته للأمام حتى أقابلها.

قلت: والآن يا جوزفين... ستصارحينني؟ ماذا تعرفين؟

- كثيراً جداً من الأمور.

- بالتأكيد؛ فرأسك هذا مليء بالأخبار المتصل منها بالقضية وغير المتصل. لكنك تعلمين تماماً ما أقصده، أليس كذلك؟

- بلى، أعرف؛ أنا لست غبية.

لم أدرِ إن كان هذا ذماً لي أم للشرطة، لكني لم أكترث له. قلت: هل تعرفين مَن وضع لك شيئاً في الكاكاو؟

أومأت جوزفين برأسها بالإيجاب.

- وتعرفين من دس السم لجدك؟

أومأت بالإيجاب أيضاً.

- وتعرفين من ضربك في رأسك؟

أومأت بالإيجاب مرة ثالثة.

- إذن فستخبرينني بما تعرفينه، ستخبرينني بكل شيء... الآن.

- لن أفعل.

- يجب أن تفعلي؛ عليك أن تخبري الشرطة بكل معلومة لديك.

- لن أخبر الشرطة بشيء لأنهم أغبياء يظنون أن بريندا هي القاتلة أو لورانس، وأنا لست غبية مثلهم. كنت أعلم تماماً أنهما لم يفعلاها. كانت لديّ فكرة عن الفاعل منذ البداية، ثم أجريت نوعاً من الاختبار، والآن أعرف أنني كنت على حق.

أنهت كلامها وفرحة الانتصار على وجهها. ودعوت الله أن يلهمني الصبر، وحدقت إليها ثانية: اسمعيني يا جوزفين، أظن أنك ذكية جداً... لكن ذكاءك لن ينفعك كثيراً إذا لم تستمتعي بالحقيقة. ألا ترين -أيتها الصغيرة الحمقاء- أن كتمانك أسرارك بهذه الطريقة السخيفة يجعلك في خطر كبير؟

- بل أفهم ذلك بالطبع.

- لقد نجوتِ من الموت مرتين بأعجوبة؛ في المرة الأولى أوشكت أن تموتي وفي المرة الثانية ضحى شخص آخر بحياته. ألن تفهمي أن التجول في البيت والجهر بأعلى صوتك بأنك تعرفين القاتل سيدفع إلى محاولة ثالثة، فإما أن تموتي أو تموت نفس أخرى؟

قالت جوزفين بمتعة: في بعض القصص يُقتل الشخص تلو

الآخر حتى تنتهي بالقبض على القاتل، لأنه (أو لأنها) الشخص الوحيد الذي بقي.

- هذه ليست قصة بوليسية، هذا بيت «ثري غابلز» في سوينلي دين وأنت فتاة صغيرة حمقاء قرأَتْ أكثر مما يفيد مصلحتها! سأجعلك تخبرينني بما تعرفينه ولو تطلب الأمر استعمال القوة.

- أستطيع أن أخبرك بشيء غير صحيح.

- لكنك لن تفعلي، على أية حال فماذا تنتظرين؟

- أنت لا تفهم... لعلي لا أخبرك أبداً؛ فربما كنت أحب هذا الشخص.

وسكتت كأنها تريد أن أفهم مغزاها ثم قالت: ولو أخبرتك فسأفعل هذا بطريقة صحيحة، أجمع الجميع فيجلسون حولي ثم أفصل الأمر كله مع الأدلة، ثم أقول بغتة: والفاعل هو أنت!

وأشارت بسبابتها بطريقة مثيرة إلى إيديث دي هافيلاند التي دخلت الغرفة وقالت: ضعي لب التفاحة في تلك السلة يا جوزفين. هل معك منديل؟ أرى أصابعك دبقة، سآخذك في السيارة.

قابلت عيناي عينيها بإشارة ذات دلالة، وقلت: ستكونين آمنة وأنت خارج البيت في الساعة القادمة أو قريباً من ذلك.

أبدت جوزفين تمردها فقالت خالتها: سنذهب إلى لونغ بريند ونشتري البوظة (الآيسكريم).

لمعت عينا جوزفين وقالت تخاطب خالتها: اثنتين؟

- ربما. اذهبي الآن والبسي قبعتك ومعطفك ووشاحك الكحلي؛ فالطقس بارد اليوم. الأفضل أن ترافقها يا تشارلز حتى تلبس ملابسها. لا تتركها فلديّ رسالتان أريد كتابتهما.

جلست إيديث إلى الطاولة ورافقتُ جوزفين خارج الغرفة. كنت أنوي أن ألازم جوزفين ولا أتركها حتى من غير تحذير إيديث، فقد كنت أخشى خطراً وشيكاً على الطفلة وقريباً منها.

دخلت صوفيا الغرفة فأدهشها حضوري وقالت: هل تحولت إلى مربية أطفال يا تشارلز؟ لم أعلم أنك هنا.

تباهت جوزفين وقالت: أنا ذاهبة إلى لونغ بريندج مع خالتي إيديث، سنأكل البوظة.

- في يوم كهذا؟

- البوظة دائماً لذيذة، وحين تأكلينها تشعرين بالدفء.

عبست صوفيا، وأزعجني لونها الشاحب والخطوط السوداء التي بدت تحت عينيها بسبب الإرهاق. ثم رجعنا ثانية للقاء إيديث في الغرفة الأخرى، كانت تكتب على ظرفين ونهضت بخفة وقالت: الآن سننطلق. لقد أخبرت إيفانز أن يحضر سيارة الفورد.

وتركزت عيناي ثانية على الحقائب والملصقات الزرقاء عليها فأثارت في نفسي قلقاً غامضاً.

كانت سيارة الفورد أمام البيت. ارتدت إيديث دي هافيلاند قفازيها ونظرت إلى السماء قائلة: إنه يوم جميل. الجو بارد لكنه ينشّط البدن... يوم خريفي إنكليزي حقيقي.

صمتت قليلاً ثم التفتت إلى صوفيا وقبّلتها قائلة: وداعاً يا عزيزتي. لا تقلقي كثيراً؛ يجب احتمال أمور معينة. هيا يا جوزفين.

دخلت في السيارة تتبعها جوزفين، ولوحتا لنا بينما انطلقت السيارة.

قلت: أعتقد أنها على حق؛ من الأفضل إبقاء جوزفين بعيدة لفترة من الزمن، لكن علينا أن نجعل تلك الطفلة تخبرنا بما تعرفه يا صوفيا.

- لعلها لا تعرف شيئاً. إنها تتباهى فقط؛ جوزفين تحب أن تجعل نفسها مهمة.

- الأمر أخطر من ذلك. هل تعلمين ما هو السم الذي كان في الكاكاو؟

- يعتقدون أنه الديجيتالين. إن خالتي إيديث تتناول الديجيتالين لقلبها وفي غرفتها زجاجة مليئة منه، ولكنها فارغة الآن.

- كان ينبغي أن تُحفظ مثل هذه الأشياء بحرص أكبر.

- كانت تفعل ذلك، ولكن ليس صعباً على شخص ما أن يعلم مخبأ المفتاح.

- شخص ما؟ من هو؟

نظرتُ إلى كومة الأمتعة قائلاً: لن يذهبا؛ يجب أن لا يُسمح لهما بالرحيل.

فوجئت صوفيا وهتفت: روجر وكليمنسي؟! هل تعتقد يا تشارلز...؟

- ما رأيك أنت؟

حركت صوفيا يديها حركة يأس وهمست: لا أعرف يا تشارلز، كل ما أعرفه هو أنني عدت إلى الكابوس ثانية.

- أعرف، كنت أفكر في هذا وأنا قادم مع تافيرنر.

- إنه كابوس حقاً؛ تمشي بين الناس وتنظر في وجوههم، وفجأة تتغير الوجوه فلا تعرف منها وجهاً؛ فقد أصبح الوجه غريباً... غريباً... وحشياً! تشارلز، هيا نخرج، هيا نخرج لكي نصبح في أمان. إنني خائفة ما دمت في هذا البيت.

* * *

-٢٥-

مكثنا في الحديقة طويلاً لكننا لم نتحدث عن الرعب الذي سكن في قلوبنا، وبدلاً من ذلك تحدثت صوفيا بأسلوب عاطفي عن ناني والألعاب التي كانوا يلعبونها معها وهم أطفال والحكايات التي كانت العجوز تحكيها لهم عن روجر وأبيهم والإخوة الآخرين.

قالت: كانوا أطفالها الحقيقيين. لقد عادت إلينا لتساعدنا في أثناء الحرب عندما كانت جوزفين طفلة رضيعة وكان يوستيس غلاماً صغيراً مسلياً.

كانت الذكرى بلسماً شافياً لصوفيا، وقد شجعتها على الحديث. ثم تساءلت: ماذا كان يفعل تافيرنر؟ لعله يستجوب أهل البيت.

ذهبتْ سيارة فيها مصور وشرطيان ووصلت سيارة إسعاف، وارتعشت صوفيا قليلاً، ثم انطلقت سيارة الإسعاف فعرفنا أنهم حملوا جثة ناني إلى المشرحة.

بقينا في الحديقة نجلس أو نمشي ونتحادث، لكن كلماتنا كانت قناعاً لأفكارنا الحقيقية. وأخيراً قالت صوفيا وهي ترتجف:

الوقت تأخر كثيراً والسماء أظلمت؛ يجب أن ندخل. الخالة إيديث وجوزفين لم تعودا بعد... كان يجب أن تعودا في هذه الساعة، أليس كذلك؟

استيقظ في نفسي نوع غامض من القلق. ترى ماذا حدث؟ هل كانت إيديث تتعمد إخراج الطفلة من البيت المائل؟

دخلنا البيت، وسحبت صوفيا الستائر جميعاً وأشعلت النار فبدت غرفة الاستقبال الكبيرة متناغمة مع جو غير حقيقي من الرفاهية العتيقة، وكانت على الطاولة مزهريات كبيرة من البرونز فيها أزاهير الأقحوان.

قرعت صوفيا الجرس فجاءت خادمة عرفتُ أنها كانت تعمل في الطابق العلوي تحمل الشاي، وكانت عيناها حمراوين من أثر البكاء ورأيتها تنظر إلى الوراء بسرعة وخوف.

ثم جاءت إلينا ماجدا، أما فيليب فأُرسل إليه الشاي في المكتبة. كان دور ماجدا دور امرأة حزينة جامدة، وتكلمت قليلاً وقالت مرة واحدة كأنها مشغولة البال: أين إيديث وجوزفين؟ لقد تأخرتا.

كنت أشعر بالقلق يزداد في نفسي، وسألت ماجدا: أما زال تافيرنر في البيت؟

- ربما.

ذهبت أبحث عنه وأخبرته أنني قلق على الآنسة دي هافيلاند

والطفلة، فذهب إلى الهاتف في الحال وألقى أوامره، وقال: سأخبرك عندما أتلقّى خبراً عنهما.

شكرته وعدت إلى غرفة الاستقبال. كانت صوفيا هناك مع يوستيس وكانت ماجدا قد ذهبت، قلت لصوفيا: سيخبرنا تافيرنر عندما يبلغه عنهما شيء.

همسَتْ: تشارلز، لا بد أن شيئاً قد حدث!

- عزيزتي صوفيا، إن الوقت لم يتأخر بعد.

قال يوستيس: ما الذي يقلقك؟ ربما ذهبتا إلى السينما.

ثم خرج من الغرفة متكاسلاً، فقلت لصوفيا: ربما أخذت جوزفين إلى فندق من الفنادق أو إلى لندن... لعلها أدركت أن الطفلة في خطر.

ردت صوفيا بنظرة كئيبة لم أستطع فهمها جيداً: لقد قبلتني قبلة وداع!

لم أفهم تماماً قصدها بتلك الملاحظة التي لا تتصل بالحديث فسألتها: هل ماجدا قلقة؟

- أمي؟ لا؛ إنها على ما يرام. إنها لا تشعر بالوقت، فهي تقرأ مسرحية جديدة لفافاسور جونز اسمها «المرأة تقتل». إنها مسرحية مسلية عن جريمة قتل... قصة مسروقة من مسرحية «الزرنيخ ورباط الحذاء القديم»، لكن فيها دوراً جيداً لامرأة أصابها الجنون عندما أصبحت أرملة.

لم أقل شيئاً، وجلسنا نتظاهر بالقراءة.

في الساعة السادسة والنصف فتح تافيرنر الباب ودخل. كان وجهه ينمّ عما يريد قوله لنا، ونهضت صوفيا قائلة: خيراً؟

- أنا آسف؛ عندي لكما أنباء سيئة. لقد أرسلت تعميماً للبحث عن السيارة، وقد أفادنا راكب دراجة بخارية بأنه شاهد سيارة فورد يشبه رقمُها الرقمَ المطلوب وهي تنعطف من الشارع الرئيسي في فلاكسبيرهيث وتدخل الغابة.

- أليست هي... الطريق المؤدية إلى محجر فلاكسبير؟

- بلى يا آنسة ليونايدز... وقد وجدنا السيارة في المحجر. كلا الراكبين كان ميتاً، وسوف يريحكما أن تعرفا أنهما قُتلتا على الفور.

- جوزفين!

كان ذلك صوت ماجدا التي وقفت عند مدخل الغرفة وقد ارتفع صوتها بالعويل: جوزفين، طفلتي!

قامت إليها صوفيا وأحاطتها بذراعيها. وفجأة قلت:. انتظروا لحظة.

تذكرت شيئاً، لقد كتبت إيديث دي هافيلاند رسالتَين على الطاولة وخرجَتْ إلى الصالة تحملهما بيدها، لكنهما لم تكونا بيدها عندما ركبَتْ السيارة!

انطلقتُ إلى الصالة وذهبتُ إلى خزانة الأدراج الطويلة حيث وجدتهما، وكانتا مخبأتين في مكان غير ظاهر وراء إبريق الشاي النحاسي. كانت الرسالة الأولى إلى رئيس المفتشين تافيرنر، وتبعني تافيرنر فأعطيته الرسالة. فتحها وقرأ سطورها المختصرة وأنا إلى جانبه:

> أظن أن هذه الوصية سوف تُفتح بعد وفاتي. لا أرغب الخوض في أية تفاصيل، لكني أقر بكامل مسؤوليتي تجاه وفاة زوج أختي أريستايد ليونايدز وجانيت روي (المشهورة باسم ناني) إقراراً تاماً.
>
> أعلن هنا صراحة أن بريندا ليونايدز ولورانس براون بريئان من دم أريستايد ليونايدز. إذا سألتم الدكتور مايكل شافاسي (وعنوانه رقم ٧٨٣ في شارع هارلي) فسوف يؤكد لكم أنني لم أكن لأعيش سوى بضعة أشهر، ولذا فقد فضّلت أن تنتهي حياتي هكذا لأنقذ شخصين بريئين من محنة اتهامهما بجريمة لم يرتكباها.
>
> إنني في وعي وعقل تامّين إذ أكتب هذا.
>
> إيديث ألفريد دي هافيلاند.

فرغْتُ من قراءة الرسالة وأدركت أن صوفيا قد قرأتها أيضاً، إما مع تافيرنر في هذا الوقت أو سواه... لست أدري.

همست صوفيا: خالتي إيديث!

تذكرت قسوة إيديث دي هافيلاند وهي تسحق بقدمها نبات اللبلاب، وتذكرت أنني اشتبهت فيها مبكراً، لكن لماذا؟

تحدثت صوفيا عمّا يدور في رأسي قبل أن أنطق به: ولكن لماذا جوزفين؟ لماذا أخذت جوزفين معها؟

سألتُها: لماذا فعلت ذلك كله؟ ما هو دافعها؟

قلت ذلك وأنا أعرف الحقيقة... لقد فهمت كل شيء بوضوح. أدركت أنني ما أزال أمسك برسالتها الثانية بيدي، ونظرت إليها فرأيت اسمي عليها.

كانت أسمكَ وأقسى من الرسالة الأولى، وأعتقد أنني عرفت ما بداخلها قبل أن أفتحها. مزّقتُ الظرف فسقط منه دفتر ملاحظات جوزفين الأسود. التقطته وفتحته، وقرأت ما كَتبتْه على الصفحة الأولى...

وسمعت صوت صوفيا كأنه قادم من مكان بعيد. كان صوتها واضحاً يدل على ضبط النفس: لقد أخطأنا الفهم... إيديث لم تقتل أحداً.

قلت: نعم، لم تقتل إيديث أحداً.

اقتربت صوفيا مني أكثر وهمَستْ: كانت جوزفين، أليس كذلك؟ إنها هي جوزفين.

نظرنا معاً في أول سطر من الدفتر الأسود مكتوباً بخط يد طفلة: «اليوم قتلتُ جدي»!

* * *

-٢٦-

هل كنتُ أعمى؟ كان عليّ أن أتساءل بذلك؛ فقد كانت الحقيقة ظاهرة بوضوح شديد منذ البداية. إن جوزفين وحدها تنطبق عليها كل الشروط اللازمة: زهْوُها وإصرارها على أهمية نفسها، ومتعتها في الحديث، وتكرارها الحديث عن ذكائها وغباء الشرطة!

لم أفكر بها أبداً لأنها كانت طفلة... لكن الأطفال قد ارتكبوا جرائم قتل، وجريمة القتل هذه كانت تتناسب تماماً مع قدرات طفل؛ فقد أوضح جدها نفسه الأسلوب بدقة فقدم لها فكرةَ قتله، فما كان عليها إلا تجنب ترك البصمات، وأدنى معرفة بالروايات البوليسية يعلّمها ذلك. وكل شيء سواه كان مزجاً لأحداث تختارها هي عشوائياً من قراءاتها في القصص الغامضة: دفتر الملاحظات، التحري، شكوكها المزعومة، إصرارها على أن لا تقول شيئاً إلا بعد أن تتأكد...

وأخيراً اعتدت على نفسها! كان عملاً يصعب تصديقه فلعلها تقتل نفسها بسهولة، لكنها -كونها طفلة- لم يخطر ببالها هذا الوجه. كانت هي البطل، والبطل لا يموت!

وكان أثر التراب على المقعد القديم في غرفة الغسيل يدلّ على أن جوزفين وحدها التي كان عليها أن تصعد على كرسي لتضع قطعة الرخام على حافة الباب، ومن الواضح أنها لم تُصَبْ بأذى في المرة الأولى (وهذا واضح من الخدوش الظاهرة على الباب)، فصعدت على الكرسي مرة ثانية ووضعت قطعة الرخام. كانت تحملها في وشاحها حتى لا تترك بصماتها، وفي تلك المرة سقطت عليها ونجت من الموت بأعجوبة.

كان عملاً مثالياً ونجح في تأكيد الانطباع الذي كانت تهدف إليه: أنها تعرف شيئاً وأنها في خطر ولذلك تم الاعتداء عليها!

وأدركتُ كيف تعمدت لفت انتباهي إلى وجودها في غرفة الصهاريج، وكانت قد أكملت تخريب غرفتها بصورة فنية قبل أن تخرج إلى غرفة الغسيل. لكنها عندما عادت من المستشفى وجدت أن بريندا ولورانس قد تم اعتقالهما، ولا شك أنها شعرت بالاستياء، فقد انتهت القضية وكانت هي، جوزفين، خارج الأضواء؛ لذلك سرقت أقراص الديجيتالين من غرفة إيديث ووضعتها في كوب الكاكاو الذي ستشرب منه، ثم تركت الكوب على طاولة الصالة ولم تمسّه.

أكانت تعرف أن ناني ستشربه؟ ربما، ومن كلامها في ذلك الصباح وانتقاد ناني لها ظهر استياؤها. هل كانت ناني تشك فيها من خبرتها الطويلة في الأطفال؟ أعتقد أن ناني عرفت دائماً أن جوزفين لم تكن عادية، فقد ظهر مع نمو عقلها المبكر مفهوم أخلاقي مشوّه، وربما اجتمعت أيضاً أسباب وراثية مختلفة، وهو ما كانت صوفيا

تسميه: «قسوة العائلة»... هذه العوامل كلها اجتمعت بعضها مع بعض!

كانت في جوزفين قسوة استبدادية ورثتها عن عائلة جدها، وأنانية ماجدا القاسية التي لا ترى إلا وجهة نظرها هي. وربما كانت تعاني من حساسية فيليب لأنها غير جذابة. وأخيراً كان يسري في نخاعها ذلك الأثر المنحرف للعجوز ليونايدز. كانت حفيدة ليونايدز وكان تشبهه في الذكاء والمكر، لكن بينما حبه كان موجهاً للعائلة والأصدقاء فإن حبها كان متجهاً لنفسها!

أظن أن العجوز ليونايدز كان يدرك ما لم يدركه أي واحد آخر في العائلة، فقد تكون جوزفين مصدر خطر على نفسها وعلى الناس، ومن أجل ذلك أبقاها بعيدة عن حياة المدرسة؛ ربما لأنه كان يخشى أن تفعل شيئاً مشيناً فحجبها وحبسها في البيت، وقد فهمت الآن إلحاحه على صوفيا أن تعتني بجوزفين.

هل كان قرار ماجدا المفاجيء بأن ترسل جوزفين إلى الخارج بسبب الخوف على الطفلة أيضاً؟ ربما لم يكن خوفاً حقيقياً بل غريزة أمومية غامضة. وإيديث دي هافيلاند؟ هل اشتبهت أولاً ثم خافت وأخيراً عرفت؟

نظرت إلى الرسالة الموجودة بيدي:

عزيزي تشارلز،

هذه رسالة خاصة لك، ولصوفيا إذا شئتَ؛ فمن الضروري أن يعرف أحد الحقيقة.

لقد وجدت الدفتر المرفق في مأوى الكلب المهجور مقابل الباب الخلفي. كانت تحتفظ به هناك، وهو يؤكد ما كنت أشتبه به من قبل. ربما يكون العمل الذي سأفعله صحيحاً وقد يكون خطأ، لا أعرف، لكن حياتي أوشكت على النهاية على أية حال، ولا أريد للطفلة أن تعاني لأني أظنها سوف تعاني إن تمت دعوتها لسرد ما أقدمت على فعله.

يوجد -غالباً- واحدٌ في العائلة «لا يكون على ما يرام». إذا كنت مخطئة فليغفر الله لي، لكني فعلته حباً بها، فليبارككما الله.

إيديث دي هافيلاند.

ترددت لحظة واحدة ثم سلمت الرسالة إلى صوفيا، وفتحنا ثانية دفتر جوزفين الصغير الأسود.

«اليوم قتلت جدي».

قلبنا الصفحات... كانت محتوياته مذهلة ولا بد أنها ستثير اهتمام خبير نفسي. كانت صفحاته تحدد بوضوح لا لبس فيه ثورة الغرور المحبَط. وقد اتضح دافع الجريمة، كان دافعاً طفولياً هزيلاً:

لم يسمح لي جدي بتعلّم رقص الباليه، فقررت قتله ثم السفر إلى لندن لنعيش هناك، ولن تمانع والدتي أن أتعلم الرقص.

وها أنا ذا أقدّم هنا فقط بعض الملاحظات التي كتبتها، وكلها ذات دلالة:

> لا أريد الذهاب إلى سويسرا... لن أذهب. ولو أجبرتني والدتي على السفر فسأقتلها هي الأخرى. لكني لا أستطيع جلب أي سم. ربما أقتلها باليوباري، فهو سامّ كما تقول الكتب.
>
> لقد أغضبني يوستيس كثيراً اليوم. إنه يزعم أنني مجرد فتاة ولا فائدة مني وأن أعمال التحري التي أجريها سخيفة. ما كان سيفكر أني سخيفة لو عرف أنني أنا التي ارتكبت جريمة القتل.
>
> أحب تشارلز، لكنه غبي. لم أقرر -بعد- من الذي سأجعله متهَماً بالقتل... ربما بريندا ولورنس. إن بريندا سيئة معي؛ فهي تزعم أن عقلي ليس سليماً، لكني أحب لورانس. لقد أخبرني عن شارلوت كوردي التي قتلت شخصاً وهو يستحم. لم تكن ذكية في عملها هذا.

وكان آخر ما دوّنته كاشفاً لكل شيء:

> إنني أكره ناني... أكرهها... أكرهها.. تقول إنني فتاة صغيرة، تقول إنني أتباهى، وهي جعلت والدتي تقرر إرسالي للخارج. سوف أقتلها أيضاً. أظن أن دواء خالتي إيديث سيؤدي الغرض، ولو حدثت جريمة قتل أخرى فسوف يعود الشرطة وسيكون الموقف مثيراً ثانية.
>
> ماتت ناني... أنا مسرورة. لم أقرر بعد أين أختبئ الزجاجة التي فيها الحبوب الصغيرة. ربما في غرفة

كليمنسي زوجة عمي، أو في غرفة يوستيس.

عندما أموت بعد أن أصبح عجوزاً سأترك هذا الدفتر ورائي لرئيس الشرطة، وسوف يعرفون أنني كنت مجرمة عظيمة حقاً!

أغلقت الدفتر، ونظرت إلى صوفيا فرأيت دموعها تنهمر على خدّيها بغزارة.

- آه، تشارلز! إنه رهيب... إنها صغيرة متوحشة، ومع ذلك فهي تثير الحزن والشفقة جداً.

أحسست بالشعور نفسه. لقد أحببت جوزفين، وما أزال أشعر بحبها. لا بد أن تحبها كما تَحب مريضاً أصابه السل أو أي مرض آخر قاتل. وكانت جوزفين كما قالت صوفيا: «متوحشة صغيرة»، لكنها كانت غريبة صغيرة تثير الشفقة. لقد ولدت وفيها علة... **الطفلة المنحرفة في البيت المنحرف.**

- تشارلز، لو عاشت فماذا سيحدث؟

- ستُرسَل إلى مركز إصلاحي أو مدرسة خاصة، ثم يطلق سراحها، أو ربما يشهد عليها الناس بالجنون... لا أدري.

ارتجفت صوفيا وقالت: ما حدث لها أفضل. لكن خالتي إيديث... لا أحب أن أجعل اللوم عليها...

- هي اختارت هذا. ولن يتم الإعلان عن فعلها، وحين يحال لورانس وبريندا إلى المحاكمة فلن تقدم ضدهما أية تهمة وسوف يتم إطلاق سراحهما.

قلت لها (وكانت نبرتي مختلفة هذه المرة وأنا أمسك بيديها كلتيهما): وأنت يا صوفيا سوف تتزوجينني. لقد سمعت لتوي أنهم عيّنوني في إيران، فسوف نذهب إلى هناك معاً وتنسين البيت المائل المنحرف الصغير، وأمك تستطيع أداء مسرحياتها ووالدك يستطيع شراء مزيد من الكتب، ويوستيس يذهب إلى إحدى المدارس عمّا قريب... فلا تقلقي عليهم بعد الآن وفكري فيّ.

نظرت صوفيا إليّ وقالت: ألستَ خائفاً من الزواج بي يا تشارلز؟

- ولماذا أخاف؟ كل مساوئ العائلة ظهرت في جوزفين المسكينة وكل صفات الخير والشجاعة في عائلة ليونايدز أعطيت لك. لقد كان جدك ينظر إليك نظرة سامية، ويبدو أنه كان على حق. ارفعي رأسك يا حبيبتي فالمستقبل لنا.

- سأفعل يا تشارلز؛ سأتزوجك وأسعدك.

* * *

قال والدي: ما هي الحقيقة يا تشارلز؟

لم أكذب على العجوز أبداً. قلت: لم تكن إيديث دي هافيلاند يا أبي... كانت جوزفين.

أومأ أبي برأسه بلطف وقال: نعم، لقد اعتقدت ذلك منذ بعض الوقت. مسكينة هذه الطفلة!

* * *

البَيْت المَائِل

كانت عائلة ليونايدز عائلة كبيرة سعيدة يعيش أفرادها بقناعة في بيت واسع (في شكله ما يشبه المَيَلان أو العِوَج) في بعض ضواحي لندن الفاخرة، ولكنهم يكتشفون -بعد مقتل كبير العائلة- أن بينهم قاتلاً.

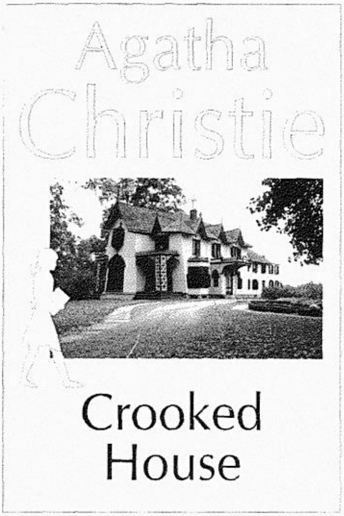
الشرطة يراقبون ويحققون، ولكن جريمة أخرى تقع تحت أنظار الجميع، ثم يكاد شخص ثالث أن يلقى حتفه... ترى هل أمسك الشرطة بالقاتل الصحيح؟

"إنها واحدة من أفضل رواياتي...
أغاثا كريستي".

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجِمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَيْ مليون نسخة!

ISBN 2-1957-2641-1
9782195726415

توزيع دار الأفق
٦ ش حسين فهمى من عباس العقاد
ت : ٢٧٢٥٣٣٥ موبايل : ٠١٢/١٠٣٣١٦٠.







رقم هذه الرواية حسب ت
صدور الروايات بالإنك

الناشر وصاحب
بالطبعة العربية في

الأجيَال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers